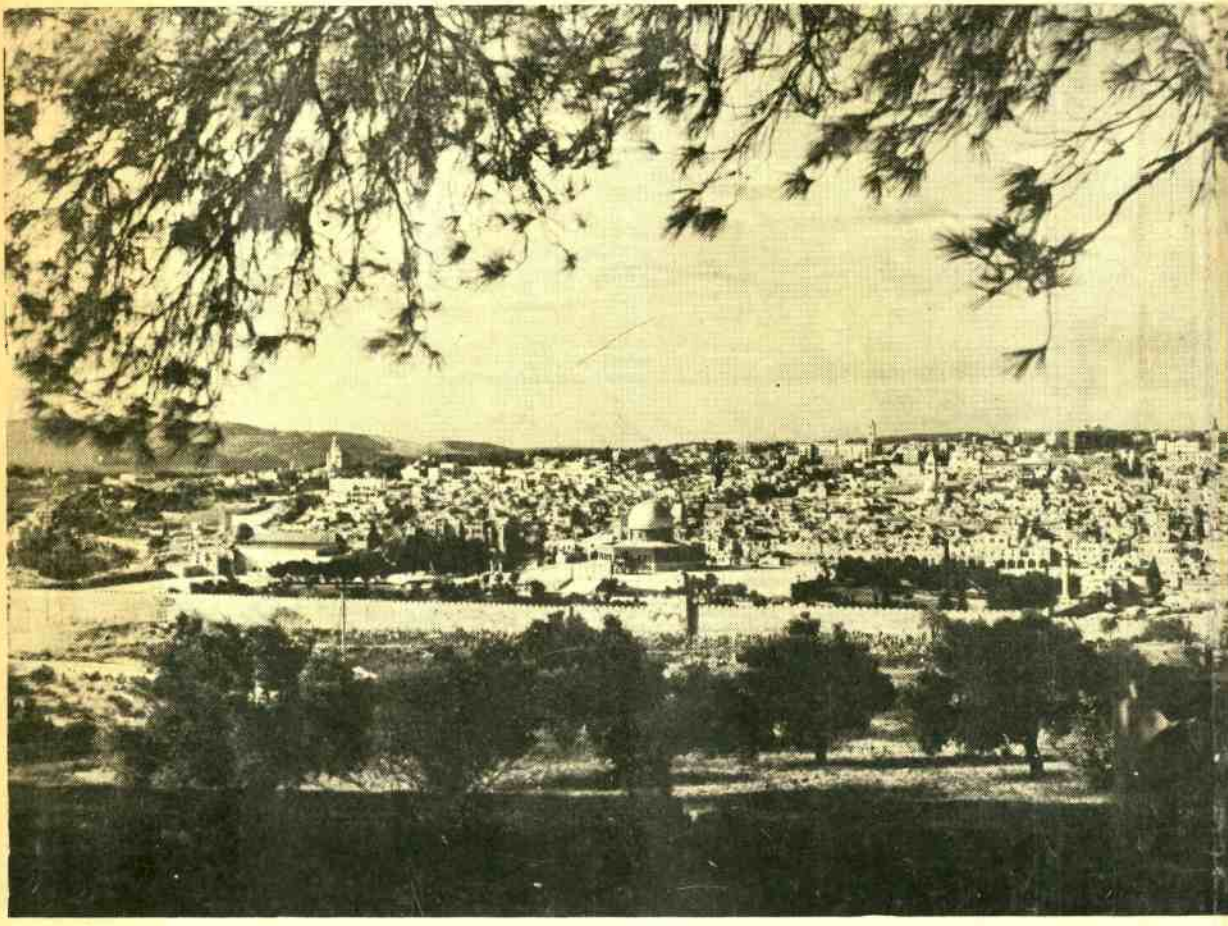
محمد أديب العامري

عروبة فلسطين في التاريخ



المكتبة العصرية
صيدا - بيروت



المؤلف

كان الحافز لتأليف هذا الكتاب سد الثغرة الواسعة في تاريخ فلسطين القديم الغامض ، وهي الثغرة التي تملؤهـا الدعاية الصهيونية بما تسميه « الوعد الإلهي » و « الحق التاريخي » لليهود في فلسطين .

وقد اعتمد المؤلف على المكتشفات الاثرية التي لا يمكن الشك في منطوقها ، وعلى المراجع الاختصاصية الوثيقة .

تخرج المؤلف من الجامعة الاميركية في بيروت سنة ١٩٣٠ ومن معهد الحقوق في القدس بعدئذ ، ومارس التعليم والسياسة والادارة في الحكومتين الفلسطينية والاردنية ، حتى تولى منصب السكرتير العام لوزارة الخارجية الاردنية ووكيل وزارة التربية والتعليم ثم رئيس ديوان الموظفين (١٩٥٥) وديوان المحاسبة برتبة وزير ، ثم وزيراً للخارجية ، وبعدها وزيراً للتربية والتعليم ثم وزيراً للثقافة والاعلام والسياحة والآثار . وبعد أن استقال من العمل الحكومي سنة ١٩٦٩ تفرغ للعمل في قضية فلسطين .

وقد صدرت للمؤلف من قبل كتب عدة في العلم والادب والثقافة العامة كان آخرها (١٩٧١) كتاب « القدس العربية » الذي يعتبر مدخلا لهذا الكتاب الفريد في بابه .

محمد أديب العامري

عروبة فلسطين في التاريخ

الحقائق التاريخية والمكتشفات الأثرية
تجاه المزاعم الصهيونية

منشورات المكتبة العصرية
بيروت - صيدا

آب (اغسطس) ١٩٧٢

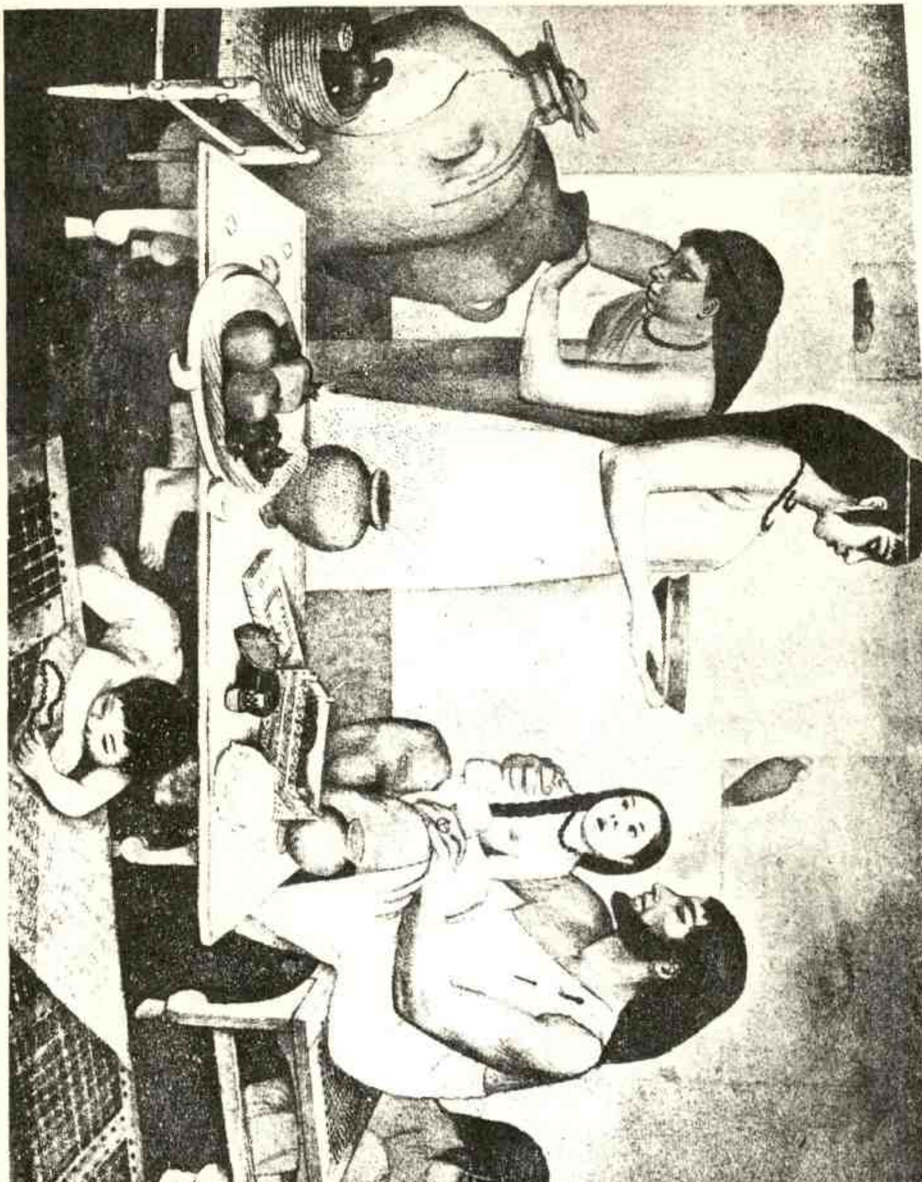
محمد يوسف اللويثي

الإهداء

إلى أروى

ابنتي وجيلها

أملَ أن يكونوا جيل الكرامة والإنقاذ



الاسرة الكنعانية في أريحا – فلسطين

عن الدكتورة كاثلين كنيون ، في نحو ٢٠٠٠ ق.م.

لقد أدركت مبلغ الفائدة الدعائية التي يظفر بها من يحتكر وسائل الاعلام فيتولى نشر وجهة نظره .

وأدركت أننا نظرنا إلى . . . الفلسطينيين والفينيقيين بعيون الاسرائيليين .

إذا أردنا الرؤية الصحيحة فعلينا أن نعاين الاشياء من وجهة نظر الجانب الصامت أيضاً ، لا أن تكون للجانب الصائت الكلمة الاخيرة كما كانت له الكلمة الاولى .

آرنولد توينبي

١٩٦٧

المقدمة

للدكتور ديمتري برامكي

ظهرت كتب عديدة عن تاريخ فلسطين بسبب الدور الذي لعبته هذه البلاد في الماضي ، فموقعها الجغرافي على مفترق طرق القوافل القديمة ، ومكانتها الدينية المرموقة ، لكونها مهبط أديان التوحيد الثلاثة ، وقدسيتها عند المسلمين ، إذ ان المسجد الأقصى كان اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، كل هذه العوامل جعلت فلسطين مهبط أفئدة ثلثي العالم المتمدن . ولكن أغلب هذه الكتب الفها مؤلفون غربيون اهتموا بابراز مكانة البلاد بالنسبة إلى الديانتين **اليهودية والمسيحية** وتجاهلوا مكانتها من الناحيتين الإسلامية والعربية . فكتاب الأستاذ محمد أديب العامري محاولة موفقة لتلافي هذا النقص وسد هذا الفراغ بغية إظهار الحقيقة دون تحيز إلى أي فئة من الفئات التي تهتم بمصير البلاد ، وبخاصة من الناحية القومية وناحية الرد على دعوى « الحق التاريخي » لليهود في البلاد .

لم تكن « فلسطين » بحدودها التي نعرفها الآن معلومة قبل الاحتلال البريطاني على شكلها الحديث بعد هذا الاحتلال ، بل كانت « سورية » تشملها كما تشمل جانباً من شرقي الأردن . وكانت جحافل الشعوب والدول الغازية تجتاح سهول فلسطين وجبالها فتدوي هذه بصدى زحف تلك الجحافل وتثير أهل البلاد للدفاع عن كيانهم . وقد طالما ثار أهل فلسطين الأصليون من كنعانيين وعموريين

وغيرهم وضحوا بالنفس والنفيس لتنعم البلاد بالاستقلال الدائم ، ولكن موقع البلاد على خط القوافل وطبيعتها الجغرافية ونظمها السياسية الناتجة عن ذلك لم تمكنها دائماً من الكيان المستقل ، وبخاصة منذ الغزوة العبرانية . وبعد الحرب العالمية الأولى استبشر أهل البلاد بالوعود الخلابة التي أغراهم بها الحلفاء المنتصرون. ولكن هذه الآمال سرعان ما خابت عندما أعلن وعد بلفور الذي « وهب » البلاد دون أي مسوغ قانوني او عرفي ، ضارباً بأماني البلاد عرض الحائط .

وحتى لو فرضنا جدلاً ان اليهود الذين جاء بهم وعد بلفور إلى فلسطين هم من أنسال اليهود الذين كانوا فيها أيام حكم داود وسليمان ، لما كان هنالك أي وجه قانوني كذلك لإسكانهم في بلاد لم يعرفوها منذ ما يزيد على الفي سنة ، في حين ان أهلها الأصليين الذين استوطنوها آلاف السنين قبل حكمهم ما يزالون قائمين فيها مقيمين .

ان الصهيونيين يعتمدون في دعواهم الاستيطان في فلسطين من جملة ما يعتمدون على ما يسمونه « الحق التاريخي » الذي لهم في البلاد . لقد ابرز مؤلف هذا الكتاب حقيقة سكان فلسطين قبل الغزوة العبرانية ومسألة «الحق التاريخي» نفسه إبرازاً واضحاً القى فيه اضواء جديدة على ابحاث قديمة جعلت للكتاب طابعاً مميزاً ، كما أشرنا ، وأهمية خاصة في هذه الفترة من تاريخ فلسطين وقضيتها .

لقد عمد المؤلف أولا إلى إيضاح العلاقات بين هذه الشعوب العربية القديمة وإبرازها في صورة واضحة ، وهي علاقات لم تكن واضحة منذ ربع قرن وضوحها الآن . فالعموريون والكنعانيون واليبوسيون والفينيقيون وغيرهم يرتدون إلى جزيرة العرب ، أي انهم من أصول عربية ، وإن كان اصطلاح « العرب » لم يطلق على شعوب الجزيرة إلا في مطلع القرن الأول قبل الميلاد . والمؤلف أيضاً أوضح المجال الذي كانت تتحرك فيه هذه الشعوب من جزيرة العرب إلى أقطار الهلال الخصيب من أقصاه إلى أقصاه ، مما جعل هذه الوحدة الجغرافية مجالا

متصلا مترابطاً تتحرك فيه وتبني حضارتها وتقيم تراثها ، فتمكنت بذلك من انشاء مظاهر المدنية المشرقة في عهود مبكرة سبقت اليها غيرها من شعوب الأرض ودولها .

وقد عمد المؤلف أيضاً في جولة موفقة إلى البحث عن « وعد يهوه » لليهود بأرض فلسطين . وهو يعالج هذا الموضوع من نواحيه المختلفة ، دينية وتاريخية وعلمية ، معالجة تضع القارىء أمام ذلك « الوعد » في ضوء النظرة العلمية الحديثة . يضاف إلى ذلك ان أغلب اليهود الذين أموا فلسطين أثناء الانتداب البريطاني ، وخاصة الأكثرية الاشكنازية منهم ، هم من التتار . ومن سلالة الذين اعتنقوا منهم الدين اليهودي في القرن الثامن بعد الميلاد ، وهؤلاء لاصلة لهم طبعاً بأرض فلسطين ، وإن كان العكس صحيحاً ، فقد اعتنق النصرانية كثيرون من اليهود الذين كانوا في فلسطين عند انتشارها ، كما أن كثيرين منهم اعتنقوا الإسلام فيما بعد وانضموا إلى السكان العرب ، واصبحوا على الأساس الديني جزءاً منهم دون أي تمييز . ومن سخرية القدر أن يكون العدوان الصهيوني المتكرر قد أصاب ولا ريب عديدين من السكان الفلسطينيين الذين هم من أصل يهودي ، وهذا من نتاج النظرية العنصرية الصهيونية التي لا تزال قائمة على الدين والغزو والتوسع في الضوء الساطع لحضارة القرن العشرين .

وقد عمد المؤلف كذلك إلى التمييز بين المعنى القديم لـ « السامية » ومعناها الحديث الذي تكشف بعد ان عرفت علاقات الشعوب التي خرجت من جزيرة العرب بعضها ببعض . فالعقاديون والاشوريون والكلدانيون وغيرهم من الشعوب التي ذكرتها أعلاه هم أقرب الآن لفهمنا مما كانوا عليه من قبل . وقد خرج المؤلف إلى أن الشعوب السامية هي العربية نقضاً للتعبير « سامي » الذي هو غير منطقي الآن ومشتق من خرافة لا أساس لها من الصحة .

ونظرية (العبيرو) في أصل اليهود التي يعتمدها المؤلف نظرية حديثة اتخذت طريقها إلى عدد من المصادر الاجنبية . ومهما اختلف الباحث مع المؤلف في هذه

النظرية ، فلا شك انه قد جند لها مصادر أثرية وتاريخية لا يستهان بها ، ولعلها تفسر السلوك الخاص الغريب الذي تظهر به الجماعات اليهودية أينما حلت .

لقد بذل المؤلف الأستاذ محمد أديب العامري مجهوداً شاقاً جديراً بالثناء والتقدير ، إذ خدم قضية أهل البلاد الاصليين وحاول إعادة الحق إلى نصابه ، منتهجاً أسلوباً علمياً دقيقاً مستشهداً بالعديد من المصادر ، قديمها وحديثها ، مما جعل لكتابه قيمة علميه فضلا عن قيمته الوطنية ، لأن القاريء العربي يجد فيه بحق ما يقوي انتماءه إلى وطنه العريق ، واعتزازه بقومه الاصفياء ، وحضارته القديمة المضيئة .

ديمتري برامكي

أستاذ التاريخ القديم والآثار ومدير المتاحف

بالجامعة الاميركية في بيروت

تمهيد

يعالج هذا الكتاب ناحية رئيسية من تاريخ فلسطين ، وهي مدى عروبة هذه البلاد قبل الاسلام ، وفيه اهتمام خاص بالقدس ، وبدعوى اليهود بما يسمى «حقهم التاريخي» في البلاد ودعواهم بأن الرب وعدهم بها وطناً لهم .

ففي موضوع صلة العرب بفلسطين يرتكب بعض الكتاب المحدثين ، وبخاصة الغربيين ، خطأً تاريخياً جسيما حين يقولون ، أو يوحون ، بأن صلة العرب بفلسطين أو بالقدس إنما ترجع إلى تاريخ دخول المسلمين اليهـــا ، أي منذ ١٣٣٢ سنة . ويختصرون أحيانا فيقولون «ثلاثة عشر قرنا» ! ولكنهم ينسون أو لا يوضحون بأن المسلمين حين دخلوا القدس دخولهم المعروف ذاك لم يكونوا إلا المدّ العربي الاخير الذي أجلى عن بلاد عربية من قبل (فلسطين وسورية ومصر) حكم الرومان الاجنبي ، كما أزال عن العراق حكم الدولة الفارسية . أما سكان البلاد الاصليون فكانت كثرتهم الغالبة عربا مسيحيين وغير مسيحيين قبل ذلك بآلاف السنين . هم الذين عمروا فلسطين ، وهم الذين بنوا القدس لاول مرة وجعلوا منها عاصمة لمُلْك ، والذين أسبغوا عليها صفة التقديس لأول مرة في التاريخ . ومع أن إقامة ثلاثة عشر قرنا متوالية تكسب حقاً لا ريب فيه ، فان هذا النسيان أو الغموض أو التجاهل له أهميته لان اليهود ، وهم يملأون الدنيا بدعايتهم ، قد أوحوا إلى كثيرين وكأن تاريخ فلسطين القديم هو تاريخ اليهودية لآلاف من السنين.

والحقيقة هي أن اليهود أو العبرانيين [1] إنما طرأوا على القدس وفلسطين طروءاً عابراً في مطلع الألف الأول قبل الميلاد ، أي أنهم كما قال جون برايت «قادمون متأخرون » على مسرح الاحداث في فلسطين . وفوق ادعاء اليهود ، ونخص الصهيونيين ومن شايعهم من الكتاب الاجانب السياسيين ، بأن صلتهم بفلسطين ترجع إلى حقب طويلة سالفة ، تأتي دعواهم ، وأكثرهم لا يدّينون ولا يؤمنون ، بأنها منحت لهم بوعد إلهي .

ولهذا الامر في الحقيقة جانب آخر خطير أيضاً . فان التوراة (العهد القديم) التي كتبها كتاب اليهود بأيديهم ذات تأثير ديني على العالم المسيحي الغربي ، وكان لقصصها تأثير على التراث الإسلامي كذلك . إن التوراة عند المسيحيين في سائر أنحاء العالم كتاب مقدس ، والانجيل استمرار للتوراة . وقصص التوراة تدور معظم أحداثها في فلسطين . فالطفل المسيحي الغربي يخرج من تلاوة التوراة وذهنه مملوء بالعقيدة بأن فلسطين هي اليهود واليهود هم أصحاب فلسطين ، وان غير اليهود طارئون عليها . وقد ثبتت بعض كتب المسلمين كثيراً من قصص التوراة ، كما وردت ، فكان لذلك أثره على عقول الناس بقدر لا يتناسب ومبلغ صحتها . وقد أساء اليهود إلى أسماء الفراعنة وإلى مصر كما أساؤوا إلى الكنعانيين وغيرهم من الشعوب العربية فكتبوا لنا بذلك تاريخنا إلى حد من الحدود .

ومن هنا نجد منذ البداية صعوبة كبيرة في زحزحة أفكار الغربيين في أوروبا وأميركا عن العقيدة التي غرستها التوراة قرونا عديدة .

فاذا جئتَ إلى دراسة التاريخ دراسة موضوعية متأنية رأيت الواقع مختلفاً جداً ، ولا يستند هـــذا الواقع الآن إلى الدراسات التاريخية وحدها ، ولكنه لحسن الحظ يستند إلى المكتشفات الاثرية ، إلى الالواح والحجارة والتماثيل الصماء

---

(١) من اجل التفريق بين « العبرانيين » و « الاسرائيليين » و « اليهود » انظر ص ١٣٥ تاليا .

الصادقة التي لا يشك أحد في أقوالها .

ومع ذلك فانك لا تستطيع أن ترتاح إلى عدد من هذه الدراسات التاريخية والحفريات الاثرية التي تكاثرت خلال مائة السنة الاخيرة ، والتي قام بمعظمها محققون واثريون من مختلف دول العالم الغربي ، ويجب أن تقترب منها حذراً . فقد صادف اهتمام الدول الاستعمارية، منذ أواخر القرن الماضي بدراسة تاريخ الشرق العربي ، الوقت الذي اشتدفيه بحث هذه الدول عن ثروات خارج بلادها وأسواق لبيع منتجاتها ، كما اشتدت حاجتها إلى تأمين طرق المواصلات الدولية منها واليها . لذلك نجد الجمعيات تؤسس والاموال ترصد لانشاء مراكز الابحاث العربية والشرقية في الجامعات والدوائر والوزارات للقيام بحفريات أثرية في فلسطين ومصر واليمن وحضرموت والعراق وسورية ولبنان وغيرها من بلاد الشرق العربي .

ومع الهجمة الاستعمارية هذه من الدول الاجنبية تظهر حركة الصهيونية العالمية ، بعنفوانها واندفاعها ، مزوّدة بتأييد صريح من الدول الراسمالية والاستعمارية . لذلك تجد البعثات الاثرية التي قامت في كل فج عربي في قلب الجزيرة والهلال الخصيب تنفق الاموال للبحث عن الآثار العبرانية خاصة . ومن هنا لا نعجب من اهتمام بيت روتشيلد صاحب المال والاعمال وأمثاله بتمويل هذه الحفريات،لان استثمار أموالهم مرتبط بسعة الرقعة التي يسيطر عليها الاستعمار والصهيونية .

وعندما قام « صندوق البحث الفلسطيني » مثلا ، الذي أسس في بريطانيا سنة ١٨٦٥ بالعمل في فلسطين جعل غايته منذ ذلك الوقت « البحث الدقيق المنسق عن آثار الارض المقدسة وطبوغرافيتها وطبقات أرضها وجغرافيتها

الطبيعية وعادات سكانها وأطوارهم لغايات توضيح التوراة »[1] . وتقول الدكتورة كاثلين كنيون التي بحثت في آثار أريحاوالقدس أوسع الابحاث وأحدثها: « إن جوهر الموضوع هو في الكلمتين الاخيرتين (توضيح التوراة) ، فقدظهرت في منتصف القرن التاسع عشر يقظة كبرى في بريطانيا حول تاريخ الشرق الادنى »[2] ... الخ .

ومن الغريب ان الحفريات التي تمت في العراق وسورية ولبنان كانت فيما بدا لنا تستهدف الغاية نفسها . نستدل على ذلك بتحليل هذه الحفريات ودراستها . فكل شيء ، أو معظم الشيء ، يدور حول التوراة وحول اليهود ، وكأن تاريخ المنطقة لم ينشغل إلا باليهود وحدهم .

ومع ذلك فقد دلت هذه الحفريات على أن الشرق العربي إنما شُغِل بأهله ، وان الشعوب التي عَمَرت الهلال الخصيب وأنشأت الحضارات البشرية الاولى كانت ذات أصول عربية ، أي انها خرجت كلها من قلب جزيرة العرب ، وان الآثار والنقوش التي كشفت عنها حفريات المنقبين هي في الغالب آثار الاشوريين والبابليين والكنعانيين واليبوسيين وغيرهم من الشعوب العربية القديمة ، أو التي سبقتها ، وان العبرانيين ظهروا متأخرين ومكثوا مدداً قصيرة متقطعة ، ولذا كان ما استخرج من آثارهم زهيداً جداً لا خطر فيه ولا غناء ، وانهم لم يعرفوا القدس وفلسطين إلا جماعات موزعة محدودة العدد تشبه المرتزقة والمحاربين ، داخلة إلى البلاد خارجة منها ، غير مستقرة فيها ، وانهم في أوج قوتهم السياسية قبل ميلاد المسيح بنحو الف سنة ، حين استطاعوا أن يقيموا ملكاً في القدس ، لم تزد مدة ملكهم هذا على سبعين سنة ، زمن داود وسليمان ، وانهم لم يكونوا

---

(١) من اجل التفاصيل الكاملة عن اي مرجع ، بما في ذلك الناشر وتاريخ الصدور ، انظر صفحات المراجع في آخر الكتاب (ص ٢٠٥) .

Kathleen Kenyon , Arch . in the Holy Land , P . 17

(٢) Ibid , P . 17 .

ذوي علم او فن او صناعة ، وان اهم ما جاؤا به من ديانة التوحيد والدعوة إلى الفكر الاصلاحي والادب والشعر المثبت في تضاعيف التوراة ، وغيرها من كتبهم ، إنما اقتبس أغلبه أو كله عن البابليين والاشوريين في العراق أثناء فترة السبي وعن الكنعانيين والمصريين وغيرهم ، كما سنرى من بحثنا في هذا الكتاب.

وسنرى بصفة خاصة أن غزو الصهيونية الحديثة لفلسطين واحتلالها ، من حيث شكلها الشاذ وهمجيتها البالغة ، شبيهة بغزوة يشوع لفلسطين واحتلال جزء منها سنة ١٢٠٠ ق.م. حين كانت ، لآلاف السنين قبل ذلك ، معمورة زاهرة بأهلها العموريين والكنعانيين وغيرهم من قبائل العرب . وكما يقاوم أصحاب البلاد اليوم فقد قاوم أهل البلاد يومئذ الغازين المحتلين مقاومة عنيدة أدت بسرعة إلى إنهاء حكم الغزو والاحتلال .

وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على المراجع الاجنبية في المقام الاول ، وبخاصة مراجع الحفريات الاصلية التي كتبها أصحابها الذين قاموا أنفسهم بالحفريات ، أو مراجع الاخصائيين في علوم الآثار الذين تولوا شرح مكتشفات زملائهم . ومع ان أكثر المراجع العربية الاصيلة وثيقة النظرة فيما تعلق بها من هذا البحث فقد جاء اعتمادنا عليها في المقام الثاني ، لأسباب ظاهرة .

ولكننا لا نحب أن يفهم القارىء الكريم من هذا ان بيان عروبة فلسطين أو القدس في القدم بمثل هذا الكتاب أو غيره سيحرر البلاد في ذاته ، أو يثبت الحق فيها للعرب ، كما لا نحب أن يظن أحد أن استيلاء الصهيونيين على فلسطين أو أجزاء أخرى من بلاد العرب ، إنما جاء مصدقاً لوعد إلهي أو حق تاريخي . كلا ، فان تفرق العرب وغدر الصهيونين وقوتهم وخداعهم ، ومظاهرة القوى الاستعمارية لهم ، هي التي مكنت للصهيونيين من فلسطين . والقوة وحدها ، ظاهرة وباطنة ، في حيلة أو غير حيلة ، هي التي تخرجهم منها .

• • •

وبعد فاني اقدم الكتاب على عجل للقارىء العربي ، راجياً أن تصدر منه خلاصة بالعربيـة ، وأخرى باللغات الأجنبيـة . واني لأشكر السادة الذين أعانوني على التدقيق فيه من سائر نواحيه ، وهم الأساتـذة : الدكتور ديمتري برامكي ومحمود العابدي والشيخ عبد الحميد السائح وشكري المهتدي وعبد الحميد ياسين وسليمان موسى والمرحوم « البدوي الملثم » – يعقوب العودات .

عمان ، ١٩٧٢ محمد أديب العامري

الفصل الأول

فلسطين والقدس ممر عالمي

تاريخ فلسطين والقدس تاريخ معقد لتعدد أحداثه وتواليهـــا ، واختلاف الشعوب والدول التي غزتهما أو مرت بهما ثم انحسرت عنهما او بقيت فيهما. ولكنه تاريخ شائق طريف لارتباطه بمهد الحضارة البشرية وارتباط ذلك بتاريخ العرب الحافل المجيد .

ففلسطين والقدس كانتا وطناً قديماً للعرب عامة ولبعض الشعوب التي مرت بها فترات خاصة ، كما كانتا ممراً عالمياً طوال حقب التاريخ .

ومن الشعوب التي عاشت في هذه البلاد « إنسان فلسطين » و « إنسان البحر المتوسط » ، اللذان ذابا في اهل البلاد العرب وغيرهم فيما بعد ، و «الفلسطينيون» الذين جاؤا من اليونان ثم اندمجوا في أهل البلاد ، والصليبيون والأتراك والبريطان الذين غزوا البلاد ثم زالوا عنها .

ومـــن القبائل والشعوب والدول الرئيسية التي حلت في فلسطين والقدس العموريون (الأموريون) والكنعانيون و (اليبوسيون والفينيقيون) . **ويكاد الثقات الآن يجمعون على أن هذه القبائل والشعوب خرجت من شبه جزيرة العرب ، وانها بقيت في فلسطين لم تغادرها ، وان سواد أهل هذه البلاد الحاليين ، وخاصة القرويين ، هم أنسال تلك القبائل والشعوب القديمة أو العرب المسلمين**

الذين استقروا في البلاد بعد جلاء الرومان عنها ، زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فالعموريون استقروا في جبال فلسطين وشرقي الأردن ، والكنعانيون استقروا في سهول فلسطين وأغوارها ، كما نعرف حدودها الآن ، وفي أنحاء من سورية ولبنان . واليبوسيون ، وهم بطن من الكنعانيين [1] ، استقروا في القدس وما حولها ، والفينيقون ، وهم بطن آخر من الكنعانيين ، استقروا في الساحل الشمالي من فلسطين وفي لبنان .

ومن الشعوب والدول التي امتد حكمها إلى فلسطين ثم ارتد عنها المصريون والأشوريون والبابليون الذين يُفصل تاريخهم عن تاريخ العرب في معظم المراجع الاجنبية فصلا مشوشاً مغلوطاً ، فيُذكرون لنا أحياناً كثيرة باسم « الفراعنة » فقط ، وكأن ليس لهم أصول ، او باسم « الساميين » لا غير ، وما الفراعنة في كثير من الحالات إلا من أصول عربية ، وما الساميون إلا العرب أنفسهم ، كما سنرى .

ومن الممالك والدول والجماعات الاجنبية التي دخلت البلاد ، غازية محتلة ، العبرانيون والفرس واليونان والرومان والصليبيون والأتراك والبريطانيون ، وأخيراً اليهود الصهيونيون .

اما العرب المسلمون فلم يكونوا في حقيقة الامر ، وفي فهمنا الآن، غزاة محتلين حين اتوا إلى فلسطين ، بل انهم خرجوا من قلب جزيرة العرب في موجة عربية جديدة ، شأن الموجات السابقة ، التي سنتحدث عنها بعد قليل ، إلا أنها كانت هذه المرة ذات دعوة دينية عالمية . وقد تم مع نشر هذه الدعوة إنهاء الاحتلالين الاجنبيين الفارسي والروماني ، وتحرير اهل البلاد الذين كانت تغلب عليهم الاصول العربية ، من مسيحيين وغيرهم ، ثم الامتداد بالدعوة الاسلامية إلى سائر بلاد العرب وإلى اجزاء اخرى من العالم .

---

(١) Kathleen Kenyon , Archaeology in the Holy Land , p . 240

اما السبب الرئيسي الذي جعل فلسطين وما حولها « ممراً عالمياً » ، أكثر من اي مكان آخر في العالم ، فهو ان هذه المنطقة متوسطة بين قارات العالم القديم ، آسيا وافريقيا واوروبا . وقد ساعد وضع جزيرة العرب ، بما فيها الهلال الخصيب ، على ان تتخلص هذه المناطق من ادوار الهمجية البشرية الاولى ، وان تزدهر بالعمران والحضارة قبل غيرها ، لحسن مناخها ولوقوعها على طرق التجارة القديمة ، وخصب اجزاء مهمة منها . وكما كانت هذه المنطقة على الأرجح مهد « الإنسان العاقل » فقد كانت ايضاً مهد الحضارات العالمية .

وقد تعاون قلب جزيرة العرب والهلال الخصيب على إنشاء هذه الحضارات . فقد كانت الجزيرة تمد الهلال بالعنصر البشري ، وكان الهلال يهيء لهذا العنصر اسباب التطور والتقدم . ويشبه الهلال الخصيب نصف دائرة ، ولذا وصف ورنر كيلر هذا الهلال بقوله :

« كان نصف الدائرة العظيم هذا ، المحيط بالصحراء العربية ، يضم عدداً من الحضارات التي يقع بعضها إلى جانب بعض في نظام كأنه اللؤلؤ المضيء يرسل الاشعة إلى الظلمة البشرية المحيطة به . لقد كان هذا مهد حضارات العالم من العصور الحجرية إلى العصور الذهبية للحضارة اليونانية الرومانية » (١) . وقد نتج عن هذا كله الصورة التي رسمها المؤرخ جيمس هنري برستد إذ قال :

« وكما التقت في اسواق فلسطين تجارات الأمم المحيطة بها تتبارى في مضمار السلم ، كذلك تلاقت جيوشها في ساحة الوغى ، تتقاتل وتتطاحن ، لأن موقعها

---

(١) Keller , the Bible as History p . 27 من اجل التفاصيل الكاملة عن اي مرجع انظر صفحات المراجع في آخر الكتاب .

بين جارتيها القويتين مصر وبلاد ما بين النهرين [١] جعلها معتركاً حربياً قروناً عديدة . ولقد منيت فلسطين مراراً في تلك الحروب بما منيت بـه البلجيك في الحرب ما بين المانيا وفرنسا ، سنة ١٩١٤ ، فاستولت عليـها مصر مئات من السنين ، وبعد ذلك بزمان استولت عليها اشور ثم تسلط عليها الكلدان ، وآخر الكل بسط يدهم عليها الفرس ، ولذلك لما آل امرها إلى العبرانيين لم يؤملوا ان يبقوا امداً طويلا » [٢] .

ولا يتم برستد سلسلة « الاستيلاء » إلى عهد الرومان والاتراك والبريطان ، ثم هو لا يفرق بين الاستيلاء العبري من ناحية وبين حملات المصريين والأشوريين والكلدانيين من ناحية اخرى . وهذا الآن خطأ ، وبخاصة مـــن ناحية عرق السكان او جنسهم ، لأنه يسوي بين الغزوات التي جاءت من اقوام ذات أعراق او اجناس مختلفة او مختلطة ، من خارج جريرة العرب ، وبين هـــذه الشعوب المصرية والأشورية والكلدانية وغيرها مما نعرف الآن انـــه متصل بعضه ببعض وانه خرج من جزيرة العرب في مراحل متتابـــعة . اما العبرانيون فلهم وضع خاص ، فأصولهم ليست صافية ولا معلومة تماما ، ولا يمكن ان نعُدهم مـــع الكنعانيين مثلا او الكلدانيين ، لأن هؤلاء ذوو أصول عربية واضحة ، قاموا بحملاتهم ضمن حـــدود الجزيرة العربية ، بتعريفها القديم الـــذي كان ينطبق عليهم [٣]

(١) النهران هما دجلة والفرات و « ما بين النهرين » قديما يقع ضمن العراق الحـــديث . وتتصل حدود العراق الحديث بالجبال التركية من الشمال ، والجبال الايرانية من الشرق، والخليج العربي من الجنوب ، والحدود الداخلة في الصحراء السورية من الغرب . اما « ما بين النهرين » قديماً فكان في الغالب يشمل الرقعة الواقعة بين الجبال التركية ومناطق بغداد ، فقط .

(٢) العصور القديمة ، برستد ص ١٥٤.

(٣) انظر ص ١٤ تالياً .

إن صلة الأشوريين والكلدانيين والكنعانيين ومعظم المصريين وغيرهم من القبائل والشعوب بعضها ببعض لأنها خرجت كلها من جزيرة العرب ، كما تبين من الحفريات الحديثة والدراسات الأثرية ، حقائق كانت أقل وضوحاً في الوقت الذي كتب فيه برستد (١٩٢٦) . ويبدو لنا أننا حين نضع الأمر في نصابه على هذا النحو ، فان كثيراً من الغموض الغريب الذي يلف تاريخ هذه البلاد يتقشع حالا وينجلي . وسنتعرض فيما بعد للتصنيف الذي فرضه بعض المستشرقين في موضوع « السامية » و « الساميين » وهو التصنيف الذي نشروا به كل هذا الغموض الذي نعانيه .

وقد وقع الاتصال والتفاعل اللذان نشير اليهما بين سكان وادى النيل من جهة وسكان وادي الرافدين من جهة اخرى ، في القسم الأخير من الألف الرابع قبل الميلاد . وقد شاركت فلسطين في هذا التفاعل بحكم موقعها بين البلدين .وكما كانت فلسطين تشارك في التفاعل فقد كانت تتبع احد هذين البلدين فترات من الزمن . وكانت المدة التي تبعت فيها فلسطين مصر اطول من المدة التي تبعت فيها دول ما بين النهرين ، وذلك بحكم الجوار .

تمهيد عن القدس

وأما القدس فيجب أن نبادر إلى القول بأنها نشأت مدينة يبوسية (كنعانية) خالصة . ان اليبوسيين هم بناتها الاولون ، وهم من أصول عربية ، وهم الذين أقاموا فيها ملكاً لاول مرة في التاريخ ، واتخذوا فيها هياكل لآلهتهم واعتبروها مدينة مقدسة قبل غيرهم من الشعوب او اصحاب الديانات .

فاذا قالت التوراة (يشوع (١٥/٦٣) وقالت بعض المراجع التاريخية إن الذي سكن في القدس او بناها هم اليبوسيون ، فان الغموض الذي يشوب هذه المراجع للانهو انها لا توضح ان اليبوسيين بطن من الكنعانيين ، وان الكنعانيين

خرجوامن جزيرة العرب ، او انهم ذوو اصول عربية . وقد اقام الكنعانيون في البقاع والأراضي التي نسميها الآن فلسطين ، وفيما حولها ، منذ بداية التاريخ البشري المدون وقبله إلى اليوم ، لم يفارقوا البلاد وظلوا هم وغيرهم من القبائل ذات الأصول العربية الكثرة العددية الغالبة ، وخاصة عندما اضيف اليهم عرب آخرون جاءوا مع الفتح الإسلامي وبعده[1] .

وإذا ذكرت معظم المراجع الاجنبية وبعض المراجع العربية الكنعانيين مثلا ذكرتهم دون اية اشارة إلى صلة بالماضي او المستقبل ، ودون اي ربط بشعوب اخرى او بلاد . فاذا تحدثت عن العبرانيين جاء الحديث وكأن فلسطين لم ينشأ فيها شعب غير شعبهم او تنهض جماعة غير جماعتهم .

أما العبرانيون ، الذين سنوضح حقيقة علاقتهم بفلسطين والقدس القديمتين ، فقد طرأوا على فلسطين طروءاً عندما غزا يشوع اريحا وعدداً آخر من المدن حوالي سنة ١٢٠٠ ق.م. [٢] وكانت القدس آنذاك مدينة يبوسية ذات ملك يبوسي . وظلت هذه المدينة المقدسة مستعصية على الغزوة العبرانية تمزق الوجود الاجنبي مدة تزيد على قرنين قبل ان يتمكن داود من فتحها . وقد اسس العبرانيون في غزوتهم للقدس مملكة داود وسليمان ، وهي مملكة لم تدم اكثر من سبعين سنة ، ثم تجزأت وسبي عدد من اليهود إلى خارج فلسطين ، ثم عاد اليها من عاد بعد نحو ٥٠ سنة ، (حوالي سنة ٥٣٨ ق م.) ثم حاولوا محاولتهم المكابية بتأسيس مملكة ، فانتهت المحاولة بالفشل ، ثم خرجت اعداد منهم بالتدريج حتى كانت اعوام ١١٦٣ — ١١٧٣ م ، إذ زار بنيامين توديلا الاسباني

---

(١) الصهيونيون اليوم اكثرية في البقاع التي اغتصبوها من فلسطين ، ولكنهم يظلون اقلية اذا اعتبر عدد الفلسطينين من قاطنين ولاجئين ونازحين داخل البلاد وخارجها .

(٢) يشير واحد من احدث التحقيقات الى ان عام ١٢٦٠ ق.م. قد يكون الاصح « انظر كتاب Digging up Jericho P.259

فلسطين وذكر ان فيها مائتي يهودي فقط . وفي خلال القرن المذكور لم يكن في القدس سوى يهودي واحد [1] . وفي هذه الأثناء ظلت البلاد عربية الأصول في سكانها ولغتها وثقافتها وحضارتها .

نكتفي بهذا القدر الآن لننتقل إلى وصف جزيرة العرب وسكانها ، وصفاً موجزاً ، كتقديم لفهم اوضاع المنطقة التي كانت ميدان حركة للشعوب التي اثرت في تاريخ المنطقة القديم ، والتي كانت المكان الذي غزا اليهود جزءاً منه حيناً من الدهر ، فأثروا بغزوهم ذاك على وضع فلسطين حيناً من الدهر .

---

(١) FR. Eugene Hoade. Guide To The Holy Land Franciscan Press, Jerusalem, 1962, P. 71.

الفصل الثاني

جزيرة العرب وموجات الهجرة

وكما كانت فلسطين وبقية الهلال الخصيب ممراً عالمياً دولياً فقد كانت هي او « جزيرة العرب » فيما يرجح مهد « الإنسان العاقل » في التاريخ ، كما كانت منشأ الديانات الرئيسية واساس الحضارات البشرية ، وملتقى طرق التجارة العالمية ، برية وبحرية .

وبسبب من عزلة الجزيرة والهلال ، لدواع جغرافية واضحة ، فان التاريخ القديم لسكان هذه الزاوية من العالم يكاد يكون مستقلا . ذلك ان البحار المحيطة بجزيرة العرب من جهات ثلاث، وانغلاق الجهة الشمالية من الهلال الخصيب بالأنهار والجبال التي تكون خط قوسه الخارجي ، كل ذلك حدد حركة السكان من القبائل العربية ضمن هذه الزاوية . ويقول مرجوليوث ان قلب الجزيرة لم يغزُه احد في التاريخ ، وان هنالك تجانساً عجيباً بين السكان هناك [١] . ويرجح كثيراً ان يكون « الإنسان العاقل » (Homo Sapiens) قد نشأ اول ما نشأ في فلسطين او في الاقسام الجنوبية من جزيرة العرب ، ثم اخذ يخرج من هذه الاقسام ومن قلب الجزيرة ليعيش في الهلال الخصيب ، من شرقيه إلى غربيه ،

---

(١) Margolioth, the Relations between Arabs and Israelites pp ,1 and 5

طلباً للماء والمرعى. ان حركة تلك القبائل في جماعات كبيرة وهجرتها على شكل ما سمي « الموجات » العربية هي التي مهدت لحضارة العقاديين (الاكاديين) والاشوريين والبابليين والكنعانيين وغيرهم .

وقد نتج عن تحركات بعض الجماعات المختلطة من وراء الجبال الشمالية وضمن طرفي الهلال الخصيب وقلبه ، ومن مصر ، ان تكونت الفئات العبرانية ، على النحو الذي سنبحثه في الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب .

فما هي هذه الموجات وكيف تمت تلك التحركات ؟

العصر الجليدي وجزيرة العرب

هنالك ادلة اثرية على ان الارض في اثناء العصور الحجرية الاولى ، وما قبلها ، كانت مغطاة بالجليد الذي زحف بالتدريج خلال ازمنة متطاولة من القطب الشمالي إلى جبال الألب ، وإلى الجنوب من ذلك ، اي إلى اوروبا وآسيا وشمالي افريقيا ، واجزاء كبيرة من الاراضي الصحراوية الحالية هناك ، واستمر في زحفه إلى ان بلغ اعالي وادي النيل عند صعيد مصر . وزحف من سيبيريا في آسيا إلى الجنوب حتى بلغ اعالي وادي الرافدين ، دجلة والفرات [1] .

ومن هنا نرى ان ما يسمى « عصر الجليد » قد اثر في بلاد العرب ، ابتداء بالخليج العربي في الشرق وانتهاء بالمحيط الاطلسي في الغرب . وقد استمر هذا العصر مئات الآلاف من السنين ، كان الثلج أثناءها يتراجع عن البلاد متجهاً إلى القطب الشمالي ، ثم يزحف اليها نحو الجنوب مرة اخرى ليقف عند حد لا يتعداه . وكان مناخ بلاد العرب آنذاك ، احوالها الطبيعية مختلفة عنها في الوقت الحاضر .

قال فيليب حتي : « في اثناء شطر من العصر الجليدي كانت الصحارى العربية مروجاً آهلة بالسكان . ولما كانت الطبقة الجليدية التي غطت المعمورة

(١) Robinson , Breasted and Smith , Earlier ages p , 9

آنئذ لم تتعد جبال آسيا الصغرى الشاهقة جنوباً ، فان الجزيرة لم تتضرر ولم تصبح يوماً غير مأهولة [١] .

وكانت الجبهة الجنوبية لهذا الجليد واسعة ، هائلة الاتساع ، كما كانت تؤثر في الاراضي التي تقع إلى الجنوب منها (الهلال وقلب الجزيرة) فتصبح هذه ماطرة غزيرة المطر تنبت في اراضيها الغابات الواسعة والزروع الكثيفة . والارجح ان يكون البترول الذي فجر حديثاً تحت الصحارى العربية نتيجة انطمار هذه الغابات والزروع في الازمنة السحيقة في القدم .

ثم تبعت عصور الامطار الغزيرة عصور متوالية من الجفاف ، لأسباب ما زالت مجهولة للان ، فأدى ذلك إلى انحسار الجليد آخر مرة ، وكان ذلك منذ حوالي عشرة آلاف سنة قبل الميلاد [٢] ، وتحول معظم الاراضي بعدئـذ إلى صحارى دائمة . وشاركت فلسطين بقية اجزاء الجزيرة العربية في التعرض للجفاف النسبي بعد ان كانت خضراء يانعة [٣] واثر ذلك في سكان الجزيرة ، فأخذ بعض اهلها يهجرونها ويخرجون إلى الاراضي التي يجدون فيها الماءوالمرعى فيما بين النهرين في العراق ، وواحة دمشق وانهار سوريا ، وفي اجزاء فلسطين المطورة المثمرة ووادي النيل بما فيه من مياه غزيرة دائمة .

ونشأت بذلك موجات الهجرة من قلب جزيرة العرب إلى اجزاء الهلال الخصيب . وكانت بداية هذا فيما يرجح حوالي الوقت الذي انحسر فيه الجليد وبدأ الجفاف ، اي عشرة آلاف سنة قبل الميلاد ، او بعد ذلك بقليل .

ويقول الاستاذ مصطفى مراد الدباغ في كتابه الكبير « بلادنا فلسطين» ان

---

(١) فيليب حتي ، تاريخ العرب (المطول) ج ١ ، ص (١٥) . والاختلاف بين هذا وما ورد في (١) أعلاه في موضوع مدي الزحف اختلاف مقبول ،

(٢) Wright , Radiocarben Dates , Biblical arch Reader , I, p 339

(٣) Di gging up Jericho P, 76,

الآثار التي استخرجت من جوف الارض ما بين الفرات ودجلة تبرهن على «ان اولى الهجرات السامية قد بدأت قبل ميلاد المسيح بنحو خمسة آلاف سنة . على ان هذه الاكتشافات يجب ان لا تنفي فكرة وقوع هجرات سامية اخرى قبل هذا التاريخ »[١] .

اتجاه الموجات العربية

بعد انحسار الجليد وانخفاض نسب الامطار وبداية الجفاف بدأت الموجات العربية في التحرك .

وقد شُبهت هذه الموجات بهجرة العرب السوريين واللبنانيين والفلسطينيين إلى امريكا في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن ، من حيث شكلها والزمن الذي تحتاج اليه . فالموجة لم تكن تقع دفعة واحدة ، بل ان الناس كانوا يتركون قلب الجزيرة ويرتحلون الى جهات الهلال الخصيب ، (او وادي النيل) قبائل وجماعات تتلو الواحدة منها الاخرى ، فلا يتم انتقال الموجة إلا خلال قرن او اثنين . وكانت الموجات تقع مرة كل نحو ألف سنة[٢] .

« ويذهب الاستاذ فنكر الى ان جزيرة العرب هي المهد الاول للساميين ، ففي موجات متتالية خرج من جزيرة العرب العموريون والكنعانيون والاراميون وذلك على مثال الفتح الاسلامي في القرن السابع الميلادي »[٣] .

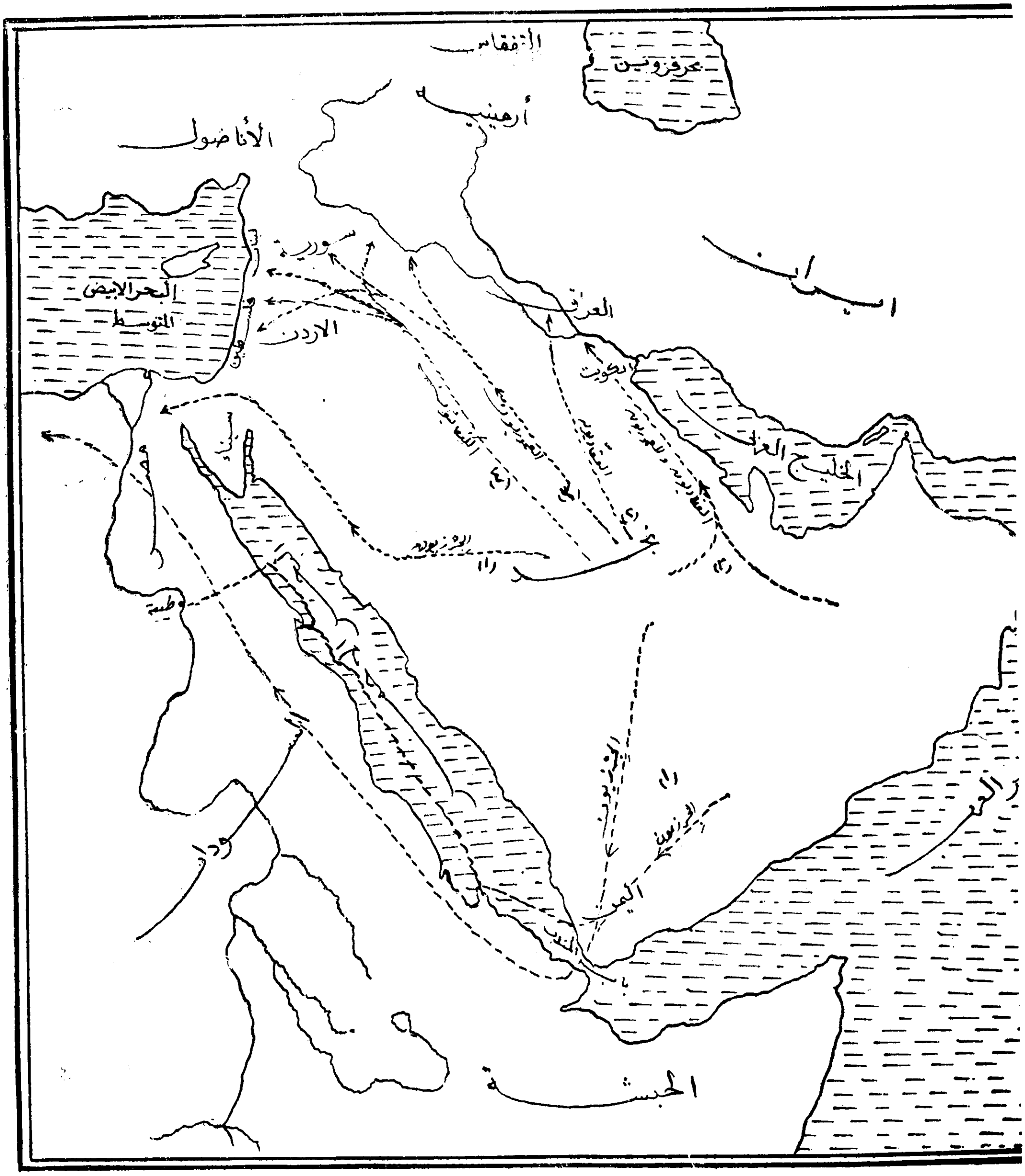
ولقد اتخذت هذه الموجات طرقاً اربع ، اولاها في اتجاه الجنوب مبتدئة من قلب الجزيرة او جنوبيها ، قاطعة البحر من باب المندب مجتازة إلى افريقيا ، ومن هناك إلى السودان فمصر فشمالي افريقيا ، او في اتجاه الشمال في البحر الاحمر نفسه حتى وادي الحمامات على ساحل مصر مقابل طيبة . وفي اتجاه الشمال

---

(١) بلادنا فلسطين ، ص ٣٧٩ .

(٢) تاريخ العرب (لمطول) ص ١٣.

(٣) حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ٦٧ ، وديسو ، تاريخ العرب في سورية ص ٢٠.



جزيرة العرب
والطرق الرئيسية للهجرات التاريخية

والشمال الغربي عن طريق الساحل الغربي لجزيرة العرب ، فدخل اصحابها إلى مصر ايضاً عن طريق سيناء اثناء الالف الرابع (القرن الاربعين) قبل الميلاد أو قبل ذلك،واختلط اصحابها هناك بالأصول الحامية في مصر وكونوا السلالات الفرعونية المصرية . وهؤلاء هم الجرزيون وغيرهم من القبائل العربية الأصول .

وثانيتها موجة اتخذت سبيلها إلى الشمال عن طريق الساحل الشرقي لجزيرة العرب فحملت العقاديين ، وقبائل من العموريين الذين اسسوا فيا بعد ملك بابل فيا بين النهرين ، وذلك في نحو ٣٥٠٠ ق.م. وثالثتها موجة حملت العموريين إلى سورية وفلسطين وشرقي الأردن ، وذلك حوالي سنة ٣٥٠٠ ق.م.

ورابعتها واهمها من ناحية موضوع هذا الكتاب هي الموجة التي اتجهت إلى الشمال والشمال الغربي . وقد هاجر في هـذا الاتجاه اصحاب الموجة التي وقعت في نحو سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد أو قبلها ، وهي هجرة الكنعانيين الذين حلوا في فلسطين (والقدس التي اخذت تنشأ فيا بعد) وفي أجزاء من سورية ولبنان . وكان ذلك قبل مـا يزيد على ألفي سنة مـن دخول العبرانيين لفلسطين . فالعبرانيون قدموا متأخرين إلى الميدان وما لبثوا فيه إلا قليلا .

وهناك أيضاً الموجات التي حملت الآراميين إلى سهل البقاع وسورية وفلسطين والانباط إلى البتراء ، وغيرهم مما لا نحتاج إلى الدخول فيه ، إذ ان اهم مايعنينا هنا هو موجة العموريين والكنعانيين وبطنيهم من اليبوسيين والفنيقيين ، كما يهمنا تحركات الجماعات العبرية في الهلال الخصيب واتجاهها إلى فلسطين منـذ حوالي سنة ١٣٠٠ ق.م.

وخلاصة الموجات التاريخية التي تعنينا كما يلي :

(١) موجة الجرزيين التي وقعت حوالي سنة ٣٥٠٠ ق.م واستقرت في وادي النيل واختلط اهلها بالحاميين فكان منهم

(٢) موجة العقاديين التي وقعت حوالي سنة ٣٥٠٠ ق.م. ايضاً فاستقر اصحابها (وعاصمتهم عقاد) رقبائل من العموريين في وادي الرافدين ، وكان منهم البابليون الذين نبغ منهم حمورابي .

(٣) موجة العموريين التي وقعت حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م. فاستقر اصحابها في سورية والاردن وفلسطين ، ثم هاجرت جماعات منهم إلى العراق.

(٤) موجة الكنعانيين التي وقعت حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م. او قبلها فحملت الكنعانيين (واليبوسيين) إلى فلسطين والفنيقيين إلى لبنان .

وينقل الدكتور نسيب الخازن عن الاب جان استاركي ان الهجرات الكبرى كانت :

الاولى منذ نهاية الالف الرابع – إلى مصر

الثانية منذ الالف الثالث – إلى العراق

الثالثة منذ الالف الثاني – إلى سورية (هجرة الآراميين) (١)

والفروق في التواريخ القديمة ماتزال قائمة بسبب ظروف المكتشفات الاثرية والابحاث يبدو منها في غالب الاحيان زحزحة هذه التواريخ إلى الاقدم كلما اتسعت المكتشفات وتعمقت الأبحاث .

وقد أيد فيليب حتي هذه الهجرات وتواريخها فقال ان المهاجرين من قلب جزيرة العرب سلكوا « طريق الساحل الغربي من الجزيرة نحو الشمال حيث

---

(١) اوغاريت ص ٣٣ .

يتفرع عند شبه جزيرة سيناء إلى وادي النيل الخصيب . وقد سلك هذه الطريق أو طريق افريقية الشرقية مهاجرون ساميون حوالي سنة ٣٥٠٠ ق.م. واستقروا في مصر مع سكانها الحاميين واختلطوا بهم وكان من نتيجة هذا الاختلاط ان ظهر المصريون القدماء . وفي تلك الغضون ، اي في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد ، اندفعت الى الشمال موجة أخرى من المهاجرين سلكت طريقاً شرقياً موازياً للاخر واستقرت في وادي الرافدين » [١] .

ويرى المؤلف المصري سليم حسن ان قبائل آسيوية جاءت إلى مصر من شبه جزيرة العرب ، اما عن طريق البحر الاحمر أو عن طريق سورية وفلسطين ثم سيناء فشرقي الدلتا ثم غربي الدلتا ثم الوجـه القبلي (الجنوب) . ثم اندمجت هذه في السكان الاصليين ، وكانوا من الجنس الحامي الذي نشأ في البلاد . وكان دخول هذه القبائل تدريجياً من غير عنف ، الى أن « توصلوا الى الاستيلاء بنجاح على البلاد شيئاً فشيئاً . وقد أدخل هؤلاء الغزاة الفاتحون معرفة المعادن وبخاصة النحاس ، والعبـادة والديانة والكتابة والفنون والنظم الاجتماعية والسياسية [٢] وبناء المدن » .

ومن حيث اللغة يقول اولبرايت « ان اللغة المصرية (القديمة) تشبه السامية (العربية الأولى) أكثر من غيرها من اللغات الحامية ، لأنهـا (اي المصرية) أقرب إلى السامية تاريخياً وجغرافياً »[٣] .

ويقول برستد : « إن الهجرات السامية من آسيا (إلى مصر) التي حدثت في العصور التاريخية ، وقع مثلها أيضاً في عصر يعتبر تحت آفاقنا التاريخية بزمن

---

(١) تاريخ العرب « المطول » ص ١١ .

(٢) مصر القديمة ، مجلد ١ ص ١٤١ — ١٤٣ .

(٣) W.F, albright , archaeology of palestine p,180,

وهذه القوس القائمة (   ) تعني ان ما فيها هو من وضع المؤلف للتوضيح .

سحيق . ولن يكون في مقدورنا أن نعرف في أي زمن وعن اي طريق وقعت هذه الهجرات علماً بأن الطريق الذي يرجح ان تكون قد سلكته هو الطريق ذاته الذي مرت منه الهجرات التاريخية قادمة من صحارى بلاد العرب ، وهو مضيق السويس . (اما اللغة المصرية القديمة) فمع انها تحمل طابعاً من الاثر الافريقي ، فان تركيبها سامي » [١] . ويعبر اللغويون عن ذلك بأن اللغة المصرية القديمة لغة حامية سامية ، وترجع إلى أكثر من أربعة آلاف سنة ق.م.

ونقل المؤرخ الأستاذ محمد عزة دروزة عن فيليب فان وموريس شهاب مدير الآثار اللبنانية « ان علماء الآثار اكتشفوا ان هجرات كثيرة متتابعة جاءت من جزيرة العرب إلى مصر والعراق وسوريا ولبنان قبل ازمنة التاريخ ، وان من اقدم هذه الهجرات المكتشفة بالنسبة إلى لبنان هجرة فوج كنعاني اول ، قبل مجيء الفوج المعروف يقيناً » [٢] .

ولا ننسى هنا آخر موجة عربية وهي التي وقعت في التاريخ الحديث نسبياً ونقصد بها خروج العرب المسلمين بدعوتهم الدينية إلى سائر أجزاء الجزيرة . ولم تقف هذه الموجة بآثارها عند حدود المعنى الواسع لجزيرة العرب ، اي حدود شرقي مصر وفلسطين وسورية والعراق ، وانما امتدت الى الصين شرقاً والى المحيط الاطلنتي غربا ، كما هو معلوم . وتعتبر هذه الموجة الخامسة والاخيرة في موجات الهجرة الكبرى .

---

(١) Breasted a History of Egypt p. 20.

(٢) تاريخ الجنس العربي ، جـ ٤ ، ص ٣٧

الفصل الثالث

جزيرة العرب والساميون

جزيرة العرب

مهما كان المقصود من مصطلح « جزيرة العرب » في الوقت الحاضر ، فإن المهم هنا أن نعرف معناه القديم ، لأن هذا المعنى هو الذي ينطبق على الصلات والعلاقات الجنسية واللغوية والحضارية التي عُرفت بين القبائل والشعوب التي خرجت قديماً من الجزيرة ، وهو الذي يحيط بمجال التحرك الذي قامت به تلك القبائل والشعوب ، وكذلك تحركات الجماعات العبرية . وهو على كل حال المعنى الواقعي في الفترات التاريخية التي نتحدث عنها في هذا الكتاب .

ان الحدود الجنوبية لجزيرة العرب واضحة ، لأن بحر العرب يبين هذه الحدود بسهولة . ومعظم حدودها من الشرق والغرب واضحة كذلك ، لأن الخليج العربي والبحر الأحمر يبينانها بيانا واضحاً. أما حدودها الشمالية والشمالية الشرقية والشمالية الغربية فلم تكن دائماً واضحة .

كان المعنى القديم للجزيرة يشمل ما بين النهرين وسورية ولبنان وشرقي الأردن وفلسطين بحدودها الحديثة تقريباً ، كما كان يشمل شبه جزيرة سيناء.

بل أكثر من ذلك ، إذ كان يشمل ما يقع شرقي النيل من الأراضي المصرية الحالية ، أي ان النيل نفسه كان يعتبر الحد الفاصل بين جزيرة العرب من الشرق وغيرها ، أي الأراضي التي تقع غربي نهر النيل وليبيا وما وراءها ، من الغرب .

قال اوليري أن الجغرافيين القدماء ادخلوا في « بلاد العرب » (Arabia) بلاداً أكثر بكثير من شبه الجزيرة العربية . ويجب علينا أن نتبع ما اصطلحوا عليه إذا أردنا أن تشتمل « بلاد العرب » على سائر الأراضي التي يقطنها العرب . ولكن شبه الجزيرة تظل « بؤرة » هذه البلاد[١] .

وقال : « إن الصحراء الشرقية لمصر التي تقع بين النيل والبحر الأحمر يجب أيضاً أن تعتبر جزءاً من بلاد العرب[٢] » . ولهذا عند اوليري أسباب جيولوجية قديمة لا مجال للخوض فيها ، منها أن أرض اليمن كانت متصلة بافريقيا ، جاعلة من البحر الأحمر بحيرة داخلية تحيط بها أرض العرب من كل مكان . وهذا يدخل الجهات التي تقع إلى الشرق من النيل (في السودان ومصر) ضمن هذه الأرض .

وقال جرجي زيدان : « أما العرب فكانوا يدخلون في جزيرتهم برية سيناء وفلسطين وسورية » . وبعد أن يذكر حدود الجزيرة النهرية والبحرية ويدور حولها من الشرق والجنوب والغرب على نحو ما ذكرناه حتى يصل إلى بيروت فيرسم خطاً منها إلى قنسرين في الشمال على شاطىء الفرات ، ليبيّن حدودها الشمالية ويقول ان هذه الحدود « أقرب إلى التحديد الطبيعي لأن الأصل في الحدود أن تكون أنهراً أو أبحراً أو جبالاً عالية[٣] » .

ويسترسل زيدان فيقول : « إننا إذا أردنا بجزيرة العرب البلاد التي كان

---

(١) O'Leary , Arabia Before Mohammad, P P. 5, 11.

(٢) Ibid, P. 11.

(٣) العرب قبل الاسلام، ص ٢٩ .

يسكنها العرب على الاطلاق فنرى حدودها في الزمن القديم تمتد من ضفاف الفرات إلى ضفاف النيل ، لأن بعض قبائلهم كانت على عهد الفراعنة تضرب خيامها في البادية بين النيل والبحر الأحمر . وكان المصريون من قديم الزمان يعتبرون كل ما هو شرقي بلادهم إلى حدود بابل بلاداً واحدة يسكنها العرب[١] ».
ويستند زيدان في تعريفه هـذا إلى رأي المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد . وفي رسائل العهد الجديد (الانجيل) ما يشير إلى اشتمال الجزيرة العربية آنئذ على شبه جزيرة سيناء وامتداد حدودها (الجزيرة) إلى دمشق[٢] .

ويمكننا أن نلاحظ أن هذا التعريف القديم لجزيرة العرب قد شمل بلاداً شاسعة ، الجزء الجنوبي منها في الغالب صحراوي والجزء الشمالي أراض خصيبة .

الهلال الخصيب

وقد اطلق بعض المؤرخين ، وفي مقدمتهم برستد ، اسم « الهلال الخصيب » على الأراضي الواقعة شمال الصحارى العربية ابتداء من خليج العرب شرقاً وانتهاء بوادي النيل غرباً[٣] . وعلى هذا يشمل الهلال الاقسام الشمالية الشرقية (الخصيبة) من وادي النيل .

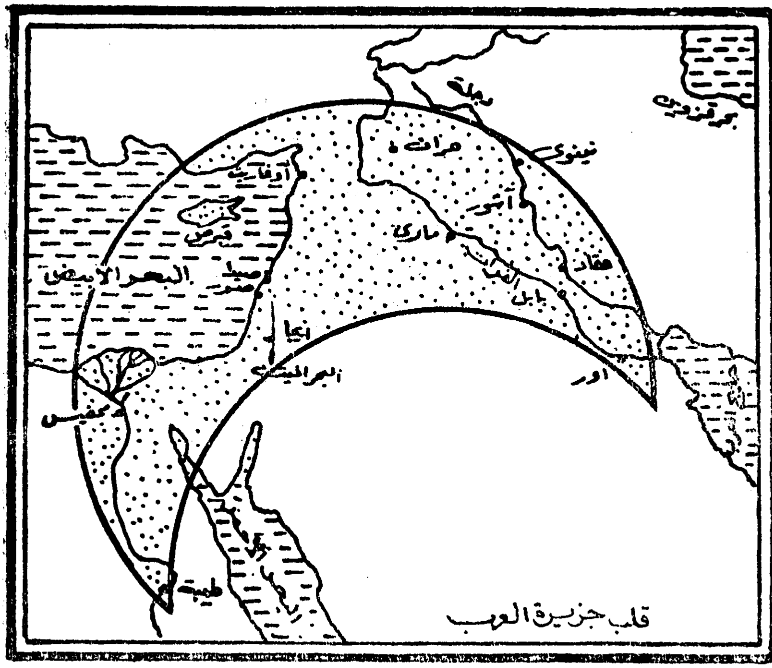
أما المعنى الحديث لجزيرة العرب فيغلب عليه اخراج الهلال الخصيب منها ، بما في ذلك سورية ولبنان والأردن وفلسطين وسيناء وصحراء مصر الشرقية ، ولكنه يشمل الكويت والصحارى العربية الشمالية ، وهذا راجع إلى أثر التقسيمات السياسية التي وقعت بعد الحرب العالمية الأولى وقبلها . ولكي يسهل علينا الإيضاح والوصف عمدنا في استخدام المصطلح القديم إلى تسمية الهلال الخصيب باسمه وتسمية ما عداه من الجزيرة باسم « قلب جزيرة العرب » .

---

(١) : العرب قبل الاسلام ، ص ٢٩ .

(٢) غلاطية (٤/٢٣ — ٢٥) و (١/١٧) .

(٣) . Kengon , Arch . in the Holy Land , P . 23



الهلال الخصيب

نشأ منذ أقدم العصور جزءاً لا يتجزأ من « جزيرة العرب »

كان قلب الجزيرة مهد الشعوب العربية ، وكان الهلال الخصيب مجال تطورها وحضارتها

بلاد العرب

ان استعمال مصطلح « بلاد العرب » الذي أوردناه عن اوليري قديم ، وهو ما يزال سائداً إلى الآن، عند العرب والاجانب على السواء . وقد دَرج الكتاب الغربيون في الآونة الاخيرة على استعمال مصطلح « العالم العربي » ، بعد أن كان قاصراً في الغالب على الكتاب العرب وحدهم، وخاصة في مطلع النهضة الحديثة . ويقـــال أحياناً « الوطن العربي » ، وأحياناً أُخرى « الوطن العربي الكبير » فيشمل ، مع قلب الجزيرة والهلال ، جمهورية مصر العربية ، والسودان وبلاد المغرب العربي ، وأية بلاد يقطنها العرب وأكثرية منهم .

لم يكن لكلمة « فلسطين » مدلول ثابت في التاريخ ، فقد كان هـذا الاسم يطلق أحياناً على القسم الجنوبي من فلسطـين ، كما كان أحياناً يشمل الأراضي الواقعة بين ساحل البحر ونهر الأردن،وأحياناً كانت شرقي الأردن نفسها تدخل ضمن ما كان يسمى « فلسطين » . ويبدو أن حدها في التوراة كان من « دان إلى بير السبع»، أي من تل القاضي على الحدود الشمالية إلى بير السبع جنوب الخليل إلى الغرب . ونلاحظ في تاريخ جزيرة العرب أن تاريخ فلسطين يندمج في الغالب مع تاريخ سورية ، فكأنهما قطر واحد أو قطران متكاملان. ولم ترسم لفلسطين حدود دولية معلومة إلا في بداية الإنتداب البريطاني على فلسطين . وإذا ما دقق المرء النظر في هذه الحدود لاحظ ما فيها من تهيئة للغزو الصهيوني الذي فسح له الإنتداب المجال بعد ذلك .

وكانت فلسطين تدخل ضمن ما كان يدعى في القديم « أرض كنعان » نسبة إلى الكنعانيين الذين استوطنوها . وعلى هـذه التسمية درجت في الغالب التوراة .

وتعود التسمية (فلسطين) إلى « الفلسطينيين الذين قدموا من جزيرة كريت وغيرها من جزر بحر ايجه اليوناني نحو القرن الثاني عشر قبل الميلاد واستقروا في الساحل ما بين يافا وغزة. وقد اطلقت هذه التسمية من قبيل تسمية الكل باسم الجزء . وكان شيوع التسمية ورشوخها غريباً ، لأن الفلسطينيين قـدموا من الخارج ، لا من جزيرة العرب ، ولم يثبتوا طويلا في البلاد ، بل ضعفوا ثم ذابوا في سكانها . ولا يعرف للآن سبب رسوخ التسمية ــ فلسطين .

السامية والساميون(١)

ان تعبير « السامية » و « الساميين » تعبير غامض أدى ببعض الباحثين

(١) من اجل التوسع في هذا البحث راجع الملحق ١ ص ١٣٩ من هذا الكتاب .

مؤخراً إلى العدول عن استعماله .

والتعبير نسبة إلى« سام »،وهو في قصة الطوفان في التوراة أحد أبناء نوح الثلاثة الذين تروي القصة أنهم بقوا في الأرض بعد فناء جميع سكانها . والأبنان الآخران هما حام ويافث . ومن هؤلاء الثلاثة «تشعبت كل الأرض »، أي توالدت وتفرعت . وتذكر التوراة أن الأشوريين(في العراق) والآراميين(في سورية) هم من أبناء سام بن نوح (سفر التكوين، الإصحاح ١٠ العدد ٢١)،ولكنها، أي التوراة ، تستثني الكنعانيين (العرب) من بنوة سام[١] .

وكان العالم الالماني شلوتسر Schlozer أول من أطلق (سنة ١٧٨١) كلمة « السامية » على مختلف اللغات أو اللهجات التي كان يتكلم بها سكان الجزيرة العربية وما بين النهرين وسورية وفلسطين ، وعلى اللغات التي انتشرت بحسب رأيه فيما بعد في الحبشة ثم مصر وشمالي أفريقيا[٢] .

ومما تجدر الإشارة إليه ان شلوتسر يرى أن هذا التعبير لا ينطبق على « شعب » سامي أو « امة » سامية ، وإنما ينصرف إلى اللغات أو الميراث الثقافي .

وأول ما نلاحظه على تسمية شلوتسر هو ما لاحظه الدكتور فيليب حتي من « أن التفسير التقليدي المألوف الذي يذهب إلى أن الساميين قد تحدروا من كبير أبناء نوح لا تؤيده الأبحاث العلمية الحديثة[٣] » .

---

(١) تعتبر التوراة الكنعانيين حاميين . ويرى بر_كلمان « ان بني اسرائيل اقصوا الكنعانيين عن جدول بني سام لاسباب سياسية ودينية » . بل ان التوراة تلعن الكنعانيين وتجعلهم عبيداً فتقول : « ملعون كنعان . عبد العبيد يكون لاخوته . مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبدا لهم » (تكوين ١/١٠ — ٥) . على ان التوراة تشير ايضاً الى ان الكنعانيين كانوا اعظم من العبرانيين (تثنية ٢٨/١) .

(٢) Wolf Leslau, Eneyel. Brit, 1963, Vol. 20 . P. 314.

(٣) تاريخ العرب « المطول » ص ٩ .

ومن المعلوم الآن ان لقصة نوح التوراتيـــة سابقات في الأساطير السومرية والآشورية والبابلية . والسابقـــة البابلية جاءت قبل قصة التوراة بنحو ١٥٠٠ سنة .

ومع أنه من المعلوم أن ليس من الضروري استناد شلوتسر في التصنيف إلى واقع تاريخي فإنه يظل من الأوضح والأوثق الاعتماد على مثل هـــذا الواقع، وخاصة إذا كان هذا ميسوراً . فإذا قيل انه لم يكن ميسوراً في عهد تشلوتسر فهو ميسور الآن .

فلم إذن لا نقول « عرب » و « عروبة » بدل « سامي » و « ساميـــة » ونتحاشى هذا التشويش والخطأ ؟

في هذا الصدد يقول الدكتور جواد علي مؤلف الكتاب الموسوعي « العرب قبل الإسلام » :

« إذا أردنا أن يكون كلامنا علميا أو قريباً من العلم وجب علينا اهمال كلمة « الشعوب السامية » و « ساميين » ، وتبديلها بكلمة « الشعوب العربيـــة » و « عرب » .. لأن هذه التسمية تسمية ملموسة بينما السامية اصطلاح مبهم[1] ».

ويستطرد جواد علي فيقول :

« ولعلي لست مخطئاً ولا مبالغاً إذا قلت ان الوقت قـــد حان لاستبدال مصطلح « سامي » و « سامية » بـ « عربي » و « عربية » ، فقد رأينا أن تلك التسمية تسمية مصطنعة تقوم على أساس التقارب في اللهجات وعلى أساس فكرة الانساب الواردة في التوراة وهي « فكرة لا تستند إلى أسس علمية وإنما قامت على بواعث عاطفية ، عـــلى أساس حب الإسرائيليين أو بغضهم لمن عرفوا من الشعوب . أما مصطلحنا « العرب » الذي يقال الساميـــة فهو أقرب – في نظري – إلى العلم . ولا أقول إنه اصطلاح علمي متفق عليه ، ولكنه على كل

---

(١) جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام، ج ٢ ص ٢٨١ .

حال أدق وأصح وأصدق من اصطلاح شلوتسر الشائع المعروف • وفي وسعه التعبير عن فكرة. ففي « العرب » لهجات ولغات كما أن بين « السامية » لهجات ولغات . وبين اللغات واللهجات العربية على اختلافها وبين اللغات واللهجات التي ادخلها العلماء تحت مصطلح « السامية » تقارب ، وصلة ، ومشاركات . فليس ببعيد ولا بغريب عن العلم والمنطق عدّنا إياها « عربية » لكونها ظهرت في « جزيرة العرب » . وقد علمت أن كثيراً من العلماء يرون أن « جزيرة العرب » هي مهد الساميين[1] » .

ويؤيد محمد عزة دروزة الرأي نفسه ويعلله بأن « موطن الاقوام التي سميت « سامية » أي الكلدانيين والعموريين والآشوريين والعقاديين والآراميين والكنعانيين والمصريين والاثيوبيين والعرب القدماء والمتأخرين هو في جنوب جزيرة العرب وشمالها والاقطار المتاخمة لها[2] ».

ولا يبدي فيليب حتي رأيا كرأي جواد علي ، بطرح الاصطلاح « سامية » و « ساميين » ، ولكنه يقول :

« لا بد من الاستنتاج بأن بعض اسلاف الذين تكلموا البابلية والآشورية والامورية والكنعانية والعبرية والآرامية والعربية والحبشية كانوا غالباً يشكلون جماعة واحدة قبل أن تحصل بينهم هذه الاختلافات ، وان هذه الجماعة كانت تتكلم اللغة نفسها وتعيش في المكان نفسه . وإذا ما تساءلنا عن الموطن الاصلي لهذه الجماعة فإن النظرية المحتملة أكثر من غيرها تجعل ذلك الموطن الجزيرة العربية[3] ».

أما العالمة الاثرية الدكتورة كاثلين كنيون فترى أن الاصطلاح « سامي »

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٧ .

(٢) تاريخ الجنس العربي ، ج ١ ، ص ١٧ .

(٣) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ص ٦٧ .

اشمل ، لان « عربي » لا تشمل العقاديين ولا الأراميين ولا اليهود[1] . ولكن يجاب على ذلك بأن العقاديين والآراميين من أُصول عربية ، لانهم من جزيرة العرب . أما اليهود فأصلهم غير واضح للآن ، وأوضح ما وصلت إليه المعلومات التاريخية والاثرية إنهم خليط فيه أحياناً نزر قليل من الاصول العربية ، كما سيتضح عما قريب .

ومن الناحية الأخرى قال سبرنجر « ان جميع الساميين عرب[2] » ، وليس هناك من يقول ان احداً من الشعوب العربية غير سامي .

وبعد فيظهر من بحثنا السابق ان التقسيمات التي نتجت عن اصطلاح شلوتسر قد ولدت بلبلة في الاذهان . وإنك لترى الطلاب العرب اليوم ، وبالأمس ، يَنشأون وقد تكدست في عقولهم أسماء « السامية » و « البابلية » و « الكنعانية » وغيرها فكوّنت صورة مشوشة . وبذلك لا يعرف العربي من انتمائه اللغوي او الجنسي إلا انه يمت قليلا إلى عرب الجاهلية قبيل الإسلام ، ثم إلى عرب العصور الإسلامية ، في حين ان هذه الشعوب التي يسمونها « سامية » تنتمي في الاصل إلى جنس واحد ولغة واحدة هي الشعوب العربية واللهجات العربية .

وفي صدد هذه البلبلة او التشويش قال فيليب حتي : « لقد اصبحت لفظة « سامي » في اوروبا واميركا ذات مدلول يهودي قبل كل شيء[3] » ولاحظ حتي ان هنالك تعدداً في التسميات التي تطلق على العرب والمسلمين قديماً وحديثاً فعمد إلى اطلاق اسم «العربيين» (Arabians) على سكان شبه الجزيرة ،

---

(١) من كتاب خاص للدكتورة كنيون الى المؤلف ، تاريخ ٢٧/١/٧٠ .

(٢) بلادنا فلسطين ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٣٨١ .

(٣) تاريخ العرب « المطول » جزء ١ ص ٨ .

و « العرب » (Arabs) على كل من يتكلم العربية ، وبخاصة إذا كان مسلما[١]. والتخصيص الاخير عندنا غير وارد . ويتناول الدكتور يوسف شويحات الموضوع ايضاً فيقترح استعمال كلمة « العربيين » للعرب قبل الإسلام ، في سائر ارجاء جزيرة العرب،وذلك بدلا من كلمة « الساميين » ويقترح استعمال كلمة « العرب » للعرب بعد الإسلام ، « وتبقى النسبة الفردية « العربي » منطبقة على القديم والحديث[٢] » .

لهذا كله فإننا سنعمد في هذا الكتاب إلى استعمال « العرب » بدل الساميين و « العروبة » بدل السامية ، وكذلك اللغات او اللهجات التي يتكلم بها العرب والشعوب التي تنتمي إلى أصول عربية ، اي التي خرجت من قلب جزيرة العرب .

إننا ندرك ان قبائل كلدة والعمالقة وحمير مثلا لم تكن تندرج في أيامها تحت اسم « العرب »، لان هذا الاسم لم يطلق على القبائل واللغات التي كانت تسكن وتنتشر في بلاد العرب ، إلا خلال الالف الاول قبل الميلاد . غير انه لا جدال في ان سائر هـذه القبائل قد خرجت من جزيرة العرب . فإذا قلنا مثلا ان الكنعانيين هم من جزيرة العرب ، وانهم لذلك عرب ، فإننا لا نبغي ان ننسخ اسم « كنعان » وإنما نحاول ان نوضح الامر ونبسطه ونقره على قاعدة علمية صحيحة . انك تقرأ كثيراً عن الفنيقيين فلا تجد في معظم الاحيان اشارة إلى أصولهم ومآتيهم . فإذا قلنا انهم كنعانيون وان الكنعانيين عرب ، او ذوو اصول عربية ، او ، على الاقل ، خرجوا من جزيرة العرب ، اتضح الامر وتم الربط اللازم لادراك الاصول والعلاقات .

---

(١) Hist. of the Arabs, 1968, P. 43, No. 3 .

(٢) العرب وتراثهم ، ص ٣٠ .

الفصل الرابع

سكان فلسطين قبل التاريخ

إذا كان « الإنسان العاقل » قد ظهر وتطور في فلسطين أولا ، أو في قلب جزيرة العرب ، فإنه قد ظهر وتطور في أماكن مختلفة من العالم أيضاً . وقد وقعت فترة هذا التطور خلال العصور الحجرية والمعدنية التي تلتها . وكانت مظاهر التطور الذي أدى إلى ظهور الإنسان العاقل انتصاب القامة واختفاء نتوءات الجمجمة وتضخم حجم الدماغ ، وتناسب الأعضاء ، ثم ازدياد قوى التفكير .

ومن المعلوم أن المؤرخين يقسمون العصور التي مرت بها حياة الإنسان على وجه الأرض إلى عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية . والحد الفاصل بينهما هو اختراع الكتابة ، التي بدأ الإنسان بعدها يدوّن وقائع حياته وتاريخه . وكان هذا التدوين يتيح النقل للأجيال اللاحقة .

وقد اخترعت الكتابة في بلاد الرافدين ووادي النيل وساهمت سيناء وفلسطين مساهمة أساسية في هذا الاختراع الحاسم . وجاء ذلك خلال الالف الرابع (٤٠٠٠ – ٣٠٠٠) قبل الميلاد ، أي منذ نيف وخمسة آلاف سنة من وقتنا الحاضر . وقد صادف ذلك أيضاً ظهور الهجرات العربية الكبيرة الصريحة.

وقسم المؤرخون والأثريون عصور ما قبل التاريخ على أساس المادة التي صنع

الإنسان منها أدواته ، فكان العصر الحجري الذي ظهر في بداياته الإنسان العاقل ، ثم العصر المعدني . و ُقسم هذان العصران بدوريهما إلى أجزاء ، فقيل العصر الحجري القديم ، والمتوسط ، والحديث ، وقيل العصر النحاسي والبرونزي والحديدي . ثم ُقسّمت هذه إلى أجزاء أخرى لا حاجة بنا إلى الدخول فيها .

وقد وقعت في الفترة التي تداخل فيها العصر الحجري الحديث بالعصر النحاسي تطورات حضارية مهمة في فلسطين وغيرها . ولذا نلفت النظر إلى هذا العصر لفتا خاصاً ، ونسميه العصر الحجري – النحاسي .

ويعود العصر الحجري القديم إلى حوالي ٥٠٠ ٠٠٠ سنة ، وينتهي حوالي سنة ١٠ ٠٠٠ ق . م .

ويعود العصر الحجري المتوسط إلى نحو ١٠ ٠٠٠ سنة ق . م .

ويعود العصر الحجري الحديث إلى نحو ٦٠٠٠ سنة ق . م .

ثم يعقب ذلك العصران النحاسي والبرونزي ويرجعان إلى نحو ٤٥٠٠ – ٣٥٠٠ ق . م[1] .

ويتلو ذلك العصر الحديدي الذي يرتد إلى نحو ١٢٠٠ ق . م .

وقد دلت الحفريات على أن فلسطين مرّت بهذه العصور جميعاً وعاش فيها الإنسان الذي انتمى إلى كل منها بمختلف أصوله وأشكاله وحضاراته .

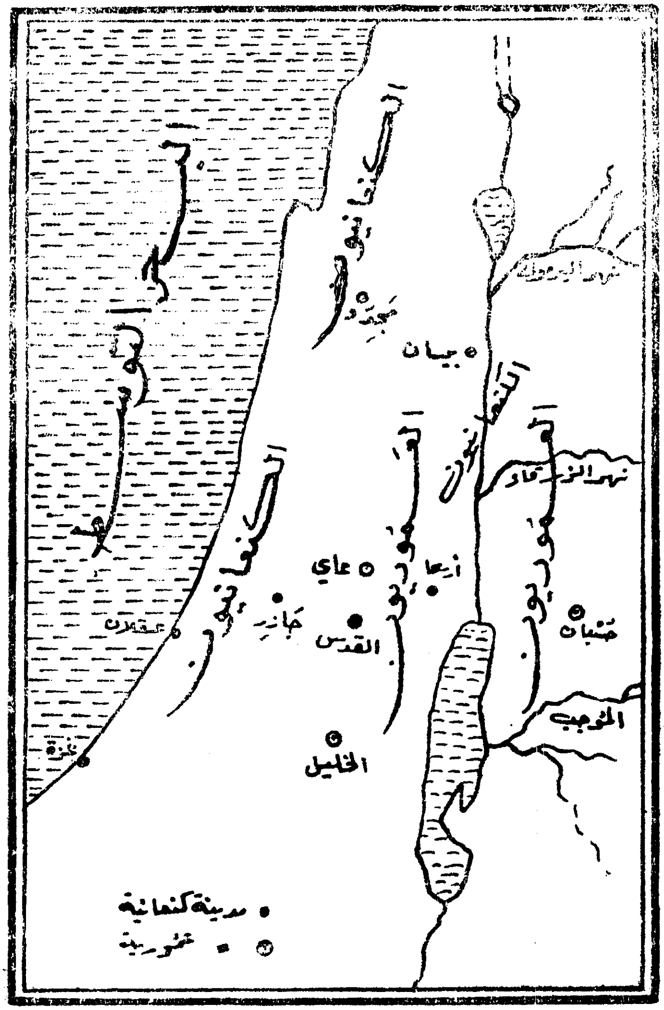
وقد دُعي الإنسان الذي عاش في فلسطين في العصر الحجري القديم « إنسان فلسطين » ، كما دعاه بعضهم « إنسان الكرمل » (انظر ص ٤٦) .

ودعي الإنسان الذي عاش فيها خلال العصر الحجري – النحاسي « إنسان البحر المتوسط » .

وكان الإنسان الذي عاش في العصر البرونزي وما بعده هو الإنسان العربي ، الذى تدعوه أكثر كتب التاريخ الأجنبية « السامي » ، متمثلا بالعموريين

---

(١) Biblical Archaeologist Reader , Vol I , P . 341 .



سكان فلسطين

قبيل الغزو العبراني الذي تم حوالي سنة ١٢٦٠ ق . م .

(عن العالمة الاثرية كاثلين كنيون)

والكنعانيين والآراميين وغيرهم .

وغزا العبرانيون فلسطين في العصر الحديدي وأسسوا فيها ملكاً حوالي سنة ١٠٠٠ ق . م . ثم سُبي منهم إلى بابل اناس وبقي في فلسطين أناس ، على نحو ما

سنوجزه فيما بعد .

وتسهيلا للموضوع نقسم هذه الحقب الطويلة إلى ثلاثة أقسام :

(١) فلسطين في العصر الحجري القديم الذي ساد فيه « إنسان فلسطين » ، منذ ما قبل ١٠٠٠٠ سنة ق . م .

(٢) فلسطين في العصور : الحجري المتوسط والحديث والعصر البرونزي التي ساد فيها «إنسان البحر المتوسط» من سنة ١٠٠٠٠ إلى سنة ٣٠٠٠ ق.م. وتقسم هذه إلى حقبتين : مبكرة فيما بين ١٠٠٠٠ و ٦٠٠٠ ق . م . ومتأخرة فيما بين ٦٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق . م .

(٣) فلسطين في عصر الكتابة – عصر التاريخ وعصر الهجرات العربية – سنة ٣٠٠٠ ق . م . وما حولها .

وما تزال جميع هذه التواريخ تقريبية وتتأكد مع تطور المكتشفات والأدوات الحديثة لقياس الزمن وضبطها .

انسان فلسطين

لقد عُثر في فلسطين أيام العصر الحجري القديم على جماجم بشرية وهياكل عظيمة تمثل نوعاً من الانسان القديم . ومن هذه جمجمة الكرمل وجمجمة الجليل وهياكلها العظمية . والإنسان الذي مثلته هذه الجماجم والهياكل دعي « إنسان فلسطين » . وكان هذا فرعاً من الإنسان النيندرتالي ، أو ما قبله بقليل ، كما كان من نوع « الإنسان العاقل » الذي ظهر في أوروبا وأماكن أخرى من العالم . ويعتقد العالم الأثري هنري فيلد أن فلسطين وما حولها هي المهد الأول للإنسان العاقل ، في حين تعتقد جمهرة من الأثريين والمؤرخين أن جنوبي جزيرة العرب هو المهد الأول لهذا الإنسان. ويرى بعضهم ان شرقي افريقيا هي المهد. وبالمناسبة نلاحظ ان شرقي افريقيا وجنوبي غرب جزيرة العرب كانا متصلين .

وكان إنسان فلسطين في بادىء الأمر قصير القامة ، غليظ العظام ، كثيف

العضلات ، كما كان رأسه مائلَ الجبين إلى الخلف ، ناتيء الحاجبين ، غائر العينين . وكانت ذقنه متراجعة . وهذا كله « يدل على أن دماغه لم يكن تام النمو[1] » .

أما حياته فكانت في المغاور والكهوف والغابات ، والمآوِي الأخرى يصنعها من أغصان الشجر . وكان يعيش على صيد البر والبحر ، وعلى ما يجمعه من طعام النبات . كان يجمع الطعام ولا ينتجه أو يصنعه . وقد اكتشفت الكهوف التي كان يعيش فيها إنسان فلسطين في أماكن مختلفة من البلاد ، مثل الكرمل ومغارة الزّطية شمالي طبريا ومغاور أخرى بجوار الناصرة . ودلّت الآثار على أنه أكل لحم الماعز والغزال وفرس النهر والبقر والخنزير والدب[2] . ووجد في مغارة جبل الكرمل بقايا من الفحم تدل على أنه عرف النار .

وكان يصنع أدواته من الصوّان ، شأن غيره من أناسي العصر الحجري القديم . وتدل الآثار على أنه صنع الفؤوس اليدوية والمقاشط والسواطير والمخارز والأزاميل . وكان يستعمل هذه الأدوات للاحتطاب والحفر وزحزحة الأثقال ، والقتال . وقد استعمل من أجل ذلك أدواتٍ من العظام والقرون أيضاً .

وفي أثناء هذا العصر اهتدى إنسان فلسطين إلى التفاهم باللغة ، ولكن المسافة بينه وبين اختراع الكتابة كانت بعدُ طويلة .

انسان البحر المتوسط

بعد أن انتهى عهد إنسان فلسطين مع نهاية العصر الحجري القديم عاشت جماعات عديدة من الناس في فلسطين بين السنوات ١٠٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق . م . وقد ظهرت في الفترة الأولى منها (١٠٠٠٠ — ٦٠٠٠ ق . م) حضارات

---

(١) متحف الآثار الفلسطيني ص ٥ — ٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠ .

مبكرة وفي الثانية (٦٠٠٠ — ٣٠٠٠ ق.م) حضارات متأخرة جاءت بعدها . وقد قسمت هذه على أساس رقي الإنسان في الزراعة والصناعة وشكل الحياة الاجتماعية . والقسم الأول منها يُطلق عليه اسم العصر الحجري المتوسط والثاني الحجري — النحاسي . وهـــذا المدى في الواقع لا أكثر ، أي عشرة الآلاف سنة ق.م.، هو عند المؤرخين عمر الحضارة البشرية ، مشتملا على عهد الكتابة وما قبله .

ونحن هنا نتبــع الدكتور اولبرايت في تسمية الجماعات العديدة التي عاشت في فلسطين خلال هـــذه الفترات (١٠ — ٣ آلاف سنة ق . م.) والتسمية المصطلح عليها هي « شعب البحر الأبيض المتوسط » . ويعمد اولبرايت ، وعدد قليل ممن سبقه ، إلى هذه التسمية لأنه يرى أن قسما من جماعات هـــذا الشعب وفدت إلى البلاد من الخارج ، من اليونان والجزر التي حولها في البحر المتوسط . وكانت هذه أرقى من إنسان فلسطين فسادته وسيطرت عليه . ولكن هذا لا يعني أن بقايا إنسان فلسطين انقرضت ، وإنما اندمجت في الإنسان الجديد فمضيا معاً في سلم النشوء والارتقاء . على أن كثرة الباحثين ترى ان هجرة السكان من أجزاء الجزيرة ، بما فيها الهلال ، إلى فلسطين أسهل وأقرب احتمالا من هجرتهم إليها من وراء البحار ، وبخاصة في تلك العصور المُغرِقة في القدم ، وان كان هذا الرأي لا ينفي قدوم سكان من وراء الجبال أو اعداد قليلة منهم من وراء البحار .

ولم يكن إنسان البحر المتوسط عرقاً صافياً ، بل كان فيما يبدو جماعات انضم إليها مهاجرون مختلفون من آسيا الوسطى . ولم تقتصر هذه في هجرتها على فلسطين وإنما شملت سورية ولبنان، كما شملت أجزاء أخرى من الهلال الخصيب. وأهم من هذا وذاك بالنسبة للسكان في المستقبل ما وقع في ذلك الوقت المبكر من هجرات عربية قديمة من نجد واليمن وجنوبي الجزيرة ، أي ضمن المدة الواقعة بين ١٠٠٠٠ و ٣٠٠٠ سنة ق . م ، وكانت عنصراً هاماً في تكوين

مجتمعات الإنسان الذي سمي « شعب البحر المتوسط »

ولم يكن شعب البحر المتوسط في تلك الحقب الطويلة يملأ البلاد على النحو الذي نعرفه الآن . بل كان عدد السكان أقل ، وكان يعيش في جماعات صغيرة متباعدة . وقد أقام السكان أيامئذ في نواح موزعة أيضاً في أنحاء البلاد ، مثل الجليل والغور ونواحي بيت لحم وغزة وبئر السبع . وقد اكتشفت بالتنقيب الأثري قرى أقامها السكان في وادي النّطوف بجوار القدس ، وتليلات الغسّول شمالي البحر الميت ، وبيسان ، ومجدو بين العفولة وحيفا ، والخضيرة جنوبي حيفا ، وجازِر جنوبي الرملة .

وقد نشأت القرى صغيرة قليلة العدد بسيطة البناء .

ويختلف شكل إنسان البحر المتوسط عن شكل إنسان فلسطين . كان إنسان المتوسط معتدل القامة نحيف البنية طويل الرأس والساقين ذا ذقن معتدلة (غير متراجعة) وشعر مائل للسواد[١] . وهذا يدل على أنه كان من حيث التركيب أرقى من إنسان فلسطين ولا غرو في ذلك فقد جاء بعده .

وفي عصر شعب البحر المتوسط أو عصوره بدأ الإنسان يستقر فينشيء القرى الكبيرة ثم المدن ، ويزرع ما حولها ويصطاد الحيوان من البر والبحر . والاستقرار أساس الحضارة ، فهو الذي يمكن من انشاء وسائل الريّ والزراعة الثابتة والحصاد والخزن ، بخلاف التنقل الذي تتسم به حياة البداوة . ويتبع الاستقرار تنظيم المجتمع واشتراع القوانين من أجل حماية التنظيم . وهذا الذي تمّ على نطاق محدود في مدن فلسطين المختلفة في هذه الحقبة ، تمّ مثله بعدئذ على نطاق واسع في وادي النيل ووادي الرافدين، وأدى إلى نشوء الحضارات والأمبراطوريات في كلا القطرين[٢] .

---

(١) لبنان في التاريخ ص ٧٤ .

(٢) Kenyon , Arch . in the Holy Lanb , pp . 45 , 58

ولا يعني نشوء القرى والمدن انتهاء حياة البداوة ، بل كان الأمر شبيهاً بما نلاحظه الآن في قرى البادية ، إذ أن مساكن القرية أو البلدة تتبعها مساكن أخرى بعيدة عنها ، ومتباعد بعضها عن بعض ، مسافات لا يستهان بها. وبين هذه وتلك تنتشر بيوت من الشعر تتبع هذه المساكن والقرى .

وفي أثناء نشوء القرى والمدن هذا ، بفعل التطور والتقدم ، نشأت ثقافات متتالية تهدف إلى الارتقاء ، يسميها المؤرخون « حضارات » (Cultures) . ونورد فيما يلي بعض نماذجها الرئيسية لنخلص من ذلك إلى عصر الحضارات الكبرى التي ينال الهلال الخصيب ، ومنه فلسطين ، قسطاً وافراً منها بعد ظهور الهجرات وبلوغ مرحلة الكتابة .

حضارة النطوف

ظهرب هذه في القسم الأول من حياة شعب البحر المتوسط. وقد بدأت بعد نهاية العصر الجليدي ، من حوالي ١٠٠٠٠ — ٦٠٠٠ ق.م . واكتُشفت آثارها في وادي النطوف بجوار القدس . ولم تقتصر هذه الحضارة ومثلها على وادي النطوف وحده ، بل كانت منتشرة في أماكن عديدة من فلسطين وغيرها . وتشير بعض المراجع إلى أن سكان النطوف وأمثالهم هم من الشعوب التي يدعونها السامية — الحامية وإليها تنتمي « الشعوب السامية[١] » . وقد جاءت عظامهم دقيقة وجماجمهم مستطيلة وتقاطيعهم رقيقة . ومع أن طول القامة كان لا يزيد إلا قليلا على خمسة أقدام فقد زاد طول هذه القامة بسرعة فيما بعد . وتعزى الزيادة السريعة في قامات أفراد هذا الشعب إلى تحسن الغذاء الذي يؤثر تأثيراً عاجلا في زيادة الطول . وقد تحسن الغذاء بتحسن الإنتاج الحيواني والزراعي .

ودلت آثار وادي النطوف على أن الإنسان فيها ، شأن إنسان البحر

---

(١) Albright , Arch of Paleatine , p . 61

المتوسط الذي تنتمي إليه حضارة النطوف ، كان يعيش على صيد البر والبحر، ولكنه تقدم خطوة أخرى فدجّن الحيوان واعتنى بالبقر والغنم والماعز، وعرف الغزال والضبع والقنفذ . وعُني بالزراعة كذلك واستعمل المنجل ، وربما كان هذا الانسان أول من اهتدى في التاريخ إلى الزراعة ، فزرع القمح والكرمة وغيرهما. وكلمتا « قمح » (gmhw) و « كرمة » (Karmu) هما بلا ريب مشتقتان من اللغة العربية القديمة ، وبخاصة الكنعانية[1] . وقد يدل هذا على وجود الإنسان الكنعاني في تلك العصور السابقة لهجرته الكبرى من قلب جزيرة العرب .

وقد عاش سكان النطوف أول الأمر في المغاور ، غير أنهم بنوا بعدئذ البيوت من الحجارة واكثروا منها واستقروا فيها . وهم أول من شيد الغرف المقببة على النحو الذي نعرفه في بعض قرى القدس إلى اليوم . وكانوا يبنون قراهم إلى جوار الينابيع .

وكانوا يدفنون موتاهم في مقابر جماعية . يطوون جسم الميت عند دفنه على صورة ما نشأ في بطن أمه ، ويدفنون مع البارزين منهم أدوات للزينة ، مما قد يدل على اعتقادهم باليوم الآخر .

حضارة الغسول

نشأت في فترة ٦٠٠٠ — ٣٠٠٠ ق . م (العصر الحجري — النحاسي) في تليلات الغسول ، الواقعة على بعد عشرة كيلو مترات إلى الشرق الشمالي من البحر الميت . وهي حضارة مستقرة ذات مجتمع زراعي . وكانت البيوت فيها مكتظة ذات أزقة متعرجة . وكان معدل مساحة المدينة ٢٠ — ٣٠ دونما . وكانت هذه الرقعة تتسع لنحو ٢٠٠٠ نسمة . ولم يكن لتليلات الغسول أسوار حول المدينة . وكان أهلها ومَن حولهم يصنعون أدواتهم من الصوان ، وفيها

---

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ص ١٧ « عن اولبرايت » .

بعد من النحاس ، كما كانوا يزرعون ويخزنون مؤنهم ، ويطبخون طعامهم وينشئون الحقول حول منازلهم وقراهم .

وهنالك جماعات أخرى من الناس عاشت في هذه الفترة ، في وادي غزة وتل أبو مطير جنوبي بير السبع ، ومغارة الوادي في الكرمل وفي مرج بن عامر والخضيرة وغيرها ، مما يدل على أن السكان في أنحاء فلسطين أخذوا بأسباب هـذه الحضارة . وظهرت حضارات مماثلة لحضارتي النطوف وتليلات الغسول في جبيل عـلى ساحل لبنان واوغاريت على ساحل سورية وتل الجديدة وغيرها(١) .

ومن هذه الحضارات حضارة جازر المشهورة .

حضارة جازر

عاش سكان جازر في فترة العصر الحجري – النحاسي أيضاً . وتقع آثار جازر التي استُدِل منها على تراث أهلها في قرية أبو شوشة بجوار الرملة ، ودلت الحفريات التي قام بها البروفسور مكاليستر بين سنتي ١٩٠٢ و ١٩٠٦ على أن سكان جازر ومن شابههم استمروا إلى بداية العصر الحديدي (نحو ١٢٠٠ق.م) ثم ذابوا في الشعب الكنعاني .

وقد تبين من العظام البشرية التي وجدت داخل الكهوف في المدينة أن الإنسان الجازري كان قصير القامة (٥ أقدام و٧ بوصات) ، ضخم الجثة عريض العظام قوي العضل . وهذا قد يدل على قصور تطوره بالنسبة إلى الفترة الحجرية النحاسية التي تقع حضارته ضمنها . ولذا فإن حفريات مكاليستر تحتاج إلى نظرة ثانية في ضوء القواعد الحديثة للحفريات الأثرية .

وكانت جازر ، خلافاً لتليلات الغسّول ، مدينة مسورة . وقد بُني سورها

---

(١) يقوم الوصف على أساس الحفريات الاثرية الحديثة التي تمت في كل موقع من هذه المواقع .

من الحجارة والطين . وفي داخل السور بنيت البيوت من الطين المخلوط بالتبن. وقد سكن الجازريون هذه البيوت كما سكنوا المغاور والكهوف داخل المدينة وخارجها .

ودلت الآثار على أن إنسان جازر ، مثل غيره من شعب البحر المتوسط ، عرف الزراعة معرفة جيدة ، فزرع القمح والشعير والبقول والفواكه والزيتون. وعرف تربية الماشية كالبقر والغنم والخنازير ، كما عرف الصناعة البدائية ، فصنع أواني الفخار ونقر الصخر معاصرَ للزيتون والعنب . وقد زاول ، في معظم تاريخه ، أعماله الزراعية والصناعية بأدوات حجرية . وفي النهاية استعمل الحديد .

وكان الجازريون أهل ديانة ، فاتخذوا لانفسهم آلهة ، وبنوا لها بيوتاً على المرتفعات . وكانوا يقدمون لها الضحايا والقرابين . وقد عُثر في وسط المدينة على دائرة من الحجارة فيها نُقرة خاصة جُعلت مذبحاً لتقديم الضحايا . وتخرج من الدائرة قناة كانت تستعمل مجرى للدماء. وكان الخنزير هو الحيوان المفضل للتضحية ، إذ وجدت في المذبح عظام كثيرة تدل عليه . وكان الجازريون يحرقون موتاهم حرقاً[1] .

وقد انتهت حضارة الإنسان الجازري وغيره في فلسطين بقدوم الكنعاني العربي إليها . ويَستنتج مكاليستر أن الكنعانيين حاربوا الجازريين وتغلبوا عليهم بعد حروب طويلة . واستعمل الكنعانيون أسلحة البرونز الذي كانوا قد توصلوا إلى صنعه في هذا العصر (حوالي ٢٥٠٠ ق . م .) ، في حين كان الجازري ما يزال في العصر الحجري — النحاسي . والبرونز أقسى من النحاس كما هو معروف .

---

(١) مخطوط للاستاذ محمود العابدي١٩٦٩ .

بعد هذه المستويات من الحضارة النطوفية والغسولية والجازرية وما شابهها أصبحت الاحوال في فلسطين مهيأة لبزوغ فجر جديد . وكان هذا فجر الكتابة وبداية التاريخ المدوّن الثابت، الذي صادف عصور الهجرات الرئيسية من قلب جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب ، وفيه هاجرت القبائـل العمورية والكنعانية والآرامية وغيرها ، هجراتها الكبرى. وكان ذلك خلال فترة ٤ ـ ٣ آلاف سنة ق . م . ولا ننسى هنا أن الهجرات العربية من قلب الجزيرة وجنوبها ، كانت قد تداخلت مع شعب البحر المتوسط في فلسطين في مختلف حضاراته الناشئة النامية ، فسبقت موجات الهجرة الكبرى بحوالي ٣ ـ ٤ آلاف سنة أخرى .

لم تكن مدينة القدس قد ظهرت بعدُ إلى الوجود ، وإنما تأخر ذلك حقبة اخرى من الزمان. وخلال هذه الحقبة بدأت قبائل الهجرات الكبرى تستقر في الهلال الخصيب وتنشيء حضاراتها الزاهرة في المدن الكبيرة وممالكها ، ومنها القدس .

وكان العموريون من هذه القبائل

الفصل الخامس

العَــمُوريون

العموريون في التوراة والتاريخ

على الرغم من أن التوراة تطلق اسم « أرض كنعان » على ما يشمل جزءاً من فلسطين بحدودها التي نعرفها حديثاً ، فإن التوراة تشير أيضاً إلى وجود « الاموريين » و « العموريين » (بالعين) ، وهم الذين نخصص لهم هذا الفصل القصير .

لم يكن الكنعانيون وحدهم سكانَ البلاد بحسب نص التوراة ، فإن سفر العدد يقول (٢٩/١٣) : « العمالقة ساكنون في أرض الجنوب والحثيون واليبوسيون والأموريون ساكنون في الجبل ، والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن » . على أن جمهرة السكان في الحقيقة كانت تتألف من العموريين والكنعانيين . أما القبائل والجماعات الأخرى فكانت قليلة العدد إذا قيست بها . وهذا يؤيد ما ذكر عن هجرة هذه القبائل من قلب الجزيرة إلى فلسطين وغيرها .

وتجمع المصادر الأجنبية على القول بأن العموريين « ساميون » ، وأنهم

خرجوا من جزيرة العرب[١] ، ومثل ذلك تقول المصادر العربية ، اثرية وغير أثرية[٢].

وقد خرجت قبائل العموريين قبل بداية الألف الثالث قبل الميلاد إلى سورية ولبنان ، ومنها إلى الأردن وفلسطين . وقد هاجر بعض هذه القبائل بعدئذ متجهاً نحو الشرق ، إلى وادي الرافدين ؛ وهناك اطلق عليهم اسم العموريين ، مشتقاً من « عمور » وتعني الغرب ، لأنهم قدموا من الغرب ، وقيل أن اسمهم مشتق من « عَمَر » بمعنى تردد إلى مكان أو جعله آهلا خصباً (اوغاريت ص ٣٧) . و « ذكره سرجون الثاني على الرُّقم التي وجدت في حور سبأ بحرف العين[٣] ».

ومع أن المصادر الأثرية الحديثة تفصل بين العموريين والكنعانيين ، وتقدم وقت خروج العموريين من قلب الجزيرة العربية على وقت خروج الكنعانيين ، فإن العلاقة بين هذه القبائل ما تزال مشوشة بعض الشيء إلى الآن . ويبدو أن تعدد هجرات القبائل العربية القديمة وامتزاج بعضها ببعض أثناء تحركها واستقرارها في أنحاء الهلال الخصيب ، أدى إلى تداخل أسماء بعضها في بعض ، خاصة وان التسميات في الغالب كانت وصفية تشير إلى الأماكن والأعمال ، أطلقتها على تلك القبائل بعد هجرتها جماعات أخرى من المؤرخين والناس. على ان بعض المؤرخين المحدثين يرى ان الكنعانيين انبثقوا من العموريين ، أو كانوا من القبائل التي تألف منها العموريون .

لذلك تجد اسم « الاموريين » في بعض المراجع يستعمل حيث تتوقع أن يستعمل اسم « الكنعانيين » ، وبالعكس . ويظن العالم بينو لاندسبرج أن

---

(١) Kenyon , Amorites and Canaanites , p . 7 and Toybee , p . 466

(٢) Baramki , p . 66 ودروزة ، تاريخ الجنس العربي، ج ٣ ، ص ٥٢.

(٣) من كتاب خاص للمؤلف من الدكتور ديمتري برامكي بتاريخ ١/٦/١٩٧٠.

الاسمين كانا في القدم مترادفين[١] . وعلى كل حال ما إن بدأ التسلل العبري إلى البلاد حتى أصبح التمييز بين العموريين والكنعانيين صعبا .

على أن الواضح هو أن العموريين خلاف الكنعانيين . وتشير الأدلة الأثرية عند الدكتورة كنيون إلى حضارتين مختلفتين ، عمورية في شرقي نهر الأردن عامة ، وكنعانية في غربيه[٢] . على أن هذا لا ينفي سكنى بعض العموريين غربي النهر وبعض الكنعانيين شرقيه . (انظر الخارطة) . لكن يظل الأساس ان العموريين جبليون رعاة والكنعانيين أهل سهول وزراعة . وكان نظام العموريين أكثر عشائرية من نظام الكنعانيين ، إذ كان لكل مكان عند العموريين زعيمان أو أكثر حين كان للكنعانيين زعيم واحد فقط .

وقد بدأ العموريون حياتهم كما خرجوا من قلب الجزيرة ، حياةً شبه بدوية بسيطة ليس فيها شيء يذكر من مظاهر الحضارة . ويَنسب اليهم بعض الباحثين قدراً من التخريب والتدمير لما وجدوه أمامهم أثناء هجرتهم من القرى والدساكر . غير أنهم لم يلبثوا ان استقروا وأقاموا قرى بدائية صغيرة أول الأمر ، لا حصون لها ولا أسوار . ونقدر ان مساحة القرية كانت حوالي ٥ — ٧ دونمات وان سكانها لم يتجاوزوا ال ٢٥٠ — ٣٥٠ نسمة . ثم أخذوا يشيدون المدن الشبيهة بمدن الكنعانيين الكبيرة الزاهرة التي سنصفها فيما بعد . وفي هذا الصدد يقول فيليب حتي : « ان الاموريين كانوا في القرن الثالث عشر (قبل الميلاد) يسيطرون على المواقع الستراتيجية ورؤرس التلال في سورية الجنوبية (فلسطين وشرقي الأردن) ، وانهم أسسوا بعض المراكز التي تطورت فيما بعد فأصبحت تلك المدن الكنعانية الهائلة التي توقف عند أسوارها وأبراجها القادمون الإسرائيليون[٣] » . ويمكن القول اعتماداً على المخلفات الأثرية ان العموريين

---

(١) Amorites , Encye . Brit . 1963 , Vol . I, p . 809

(٢) Amorites and Canaanites , p . 3

(٣) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ص ٨١ .

كانوا أكثر انتشاراً في شرقي الأردن منهم في فلسطين وأن الكنعانيين كانوا على العكس من ذلك .

ويبدو أن العموريين كانوا أصحاء الأجسام ، طوالاً أقوياء . ولعل حياتهم في المرتفعات والجبال كانت سبباً في ذلك . وفي التوراة اشارة إلى هذا إذ يقول الرب عن بني إسرائيل : « أنا قد أبدت من أمامهم الأموري الذي قامته مثل قامة الأرز ، وهو قوي كالبلوط » ، (عاموس ٢/٩) . وروت التوراة أيضاً عن (عوج) أحد ملوك العموريين في ربة عمون (عمّان) أن السرير الحديدي الذي كان ينام عليه طوله « تسع أذرع وعرضه أربع أذرع ، بذراع رجل » ، (تثنية ٣/١١) .

عاصمة العموريين

كان للعموريين في فلسطين مدن كثيرة ، مثل حبرون (الخليل) وعاي (دير دبوان) وحُسبان (في شرقي الأردن[١]) ولخيش . ومن المدن التي أقاموها « تل الحسي » بجوار بيت جبرين ، و « تل النجيلة » بجوار غزة وَشَعَلَبِّيم بجوار اللد[٢] ومنها « عَمْريت » على ساحل سورية الشمالي .

غير أن حاضرتهم الأولى وعاصمتهم القديمة كانت مدينة ماري ، التي تقع على الحدود الشمالية الحالية لسورية بجوار مدينة أبو كال . وتقوم الآن على انقاض ماري مدينة تل الحريري ، التي تقع على بعد كلم ٢٥ من الحدود العراقية (الخارطة ص١٧) .

وسنصف هنا حضارة ماري الزاهية بشيء من التفصيل لانها اكتشفت حديثاً ونقب فيها مراراً ، ولأن آثارها تلخص حضارة العموريين تلخيصاً شاملا وتطلعنا على مصدر من مصادر التوراة والافكار الإسرائيلية .

---

(١) Amorites and Cannaanites, p. 4

(٢) الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ص ٤٠٣ – ٤٠٤ .

لقد تمّ العثور على المدينة سنة ١٩٣٣ ، إذ بدأت فيها حفريات أثرية واسعة تحت اشراف البحاثة الافرنسي طوماس بارّو ، الذي عاود البحث في آثارها ست عشرة مرة ، والذي ما يزال متابعاً بحثه إلى اليوم[١] . وقد عثر في المدينة على الواح كثيرة العدد (خمسة وعشرون ألفاً أو يزيد) كتب عليها بالخط المسماري[٢] ، كما عثر فيها على قصر الملك زيمري ليم . ويذكّرنا هذا القصر بالقصر الملكي في أوغاريت (رأس الشمرا) الكنعانية (ص ٦٠ تاليا) . ويتألف قصر زيمري ليم من ثلاثمائة غرفة ، تحيط بها ساحات مساحتها تزيد مساحتها على ألفي دونم (الدونم ألف متر مربع) . وقد وجدت في غرف القصر لوحات فنية جميلة معلقة على الجدران ، كما وجدت تماثيل مختلفة الاحجام.

ومحفوظات (ارشيف) الدولة تتألف من مخابرات وتشريعات ووثائق اقتصادية ومراسلات دبلوماسية . وجاء في بعضها ذكر لجماعات العبيرو ، وبخاصة قبيلة بنيامين ، التي نتحدث عنها في الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب (ص ١٠٦) .

حضارة العموريين

وعلى الرغم من ان موجات الهجرات العقادية والكلدانية سبقت موجة العموريين إلى العراق، فإنه يبدو أن مدة استقرار العموريين بعد هجرتهم كانت

---

(١) Andréparrot , Archaclogy and old Testament , Study , p . 136

(٢) كان السومريون جنوبي الفرات ، قبـل الالف الثالث قبل الميلاد ، أول من استعمل الكتابة السمارية (الاسفينية) . واجزاء مقاطعها على هيئة مسمار او اسفين . وكانت في الاصل تصويرية ، تم طورها البابليون والاشوريون. وقد سيطرت على اللغات المكتوبة في الهلال الخصيب كله تقريباً ، واستعملها الكنعانيون ايضاً حتى حلت محلها الحروف الكنعانية الفينيقية . ودام استعمال الكتابة السمارية نحو ثلاثة آلاف سنة ، فهي من هذه الناحية من اهم اللغات القديمة .

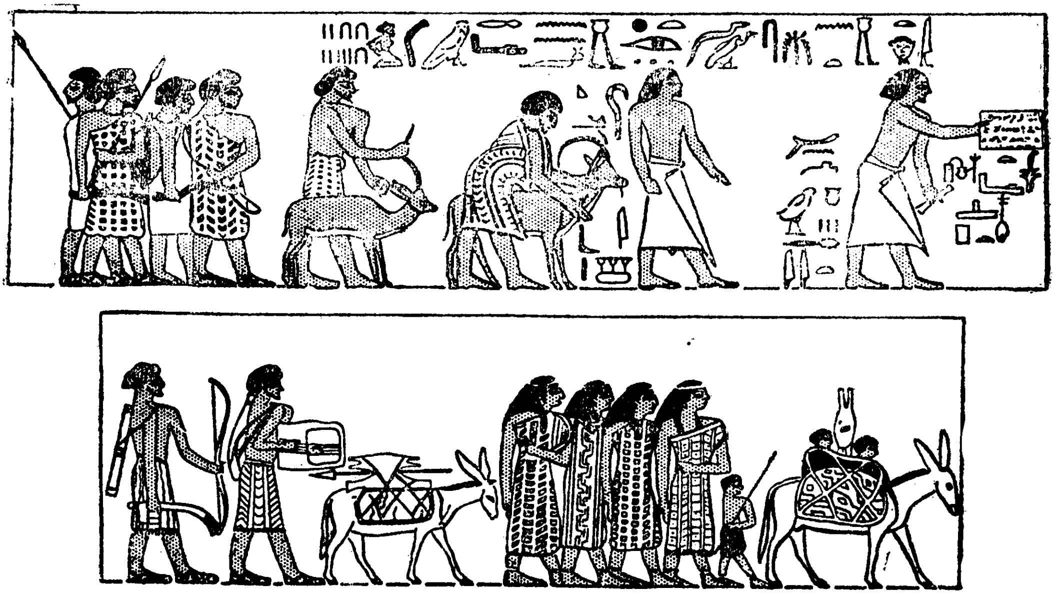
كافية لـكي يَشيدوا حضارة ذات أثر وقيمة . وقد ساهمت هجرات العموريين في إنشاء الحضارات العربية الاولى . ويرى فيليب حتي ان التاريـخ السوري المستمر يبدأ بالعموريين[1] .

وقد اعتمد العموريون في بادىء الأمر على الرعي . ثم استقروا وأخذوا يزاولون الزراعة ، ثم التجارة وشيئاً من الصناعة . وكانوا يستخدمون الحمار في النقل ، كما كانوا يقدمونه ضحية لآلهتهم. ثم عرفوا الحصان فيما بعد واستعملوا المركبات التي تجرها الخيول . وكانوا يصنعون ملابسهم من الصوف ، وربما القطن أيضاً، ولذلك كانت لهم مراكز للغزل والنسج في حلب وجبلة وغيرهما. وفي فلسطين صنعوا الفخار على أشكال تميزوا بها . وقد عثر المنقبون على آثار من هذا الفخار في أماكن متعددة من البلاد ، وتبين انهم استخدموا العجلة (الدولاب) في صنع أجزاء منه .

ويبدو أن من العموريين من كان يتنقل متاجراً في أرجاء الهلال الخصيب. وقد عُثر على لوحة أثرية في مقبرة بني حسن بجوار تل العمارنة في صعيد مصر جنوب القاهرة تشير إلى ذلك . ويرجع تاريخ اللوحة إلى عام ١٨٢٩ ق . م . وتصور هذه رحلة لقبيلة صغيرة شبه بدوية من العموريين الفلسطينيين يقودها شيخها المسمى (أبشا) . وتَعُد القبيلة سبعة وثلاثين شخصاً من العموريين الذين كانوا يتاجرون بالكحل بين شرقي الاردن ومصر الوسطى . ومن النظر إلى الصورة نرى الرجال والنساء يلبسون ثياباً من الصوف خيطت من قطع ذات نسج ملون جميل . وتُلقَى جانب الثوب من هذه الملابس على احدى الكتفين وتظل الكتف الاخرى عارية . ولا فرق بين ملابس النساء والرجال ، سوى ان ملابس النساء أطول ، إذ هي تصل إلى ما دون الركبة ، في حين تصل ملابس الرجال إلى الركبة فقط. ويلبس بعض الرجال ثيابا بيضاً طويلة (لعلها قطنية) ،

---

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ٧٥



لوحة بني حسن في مصر ، وتمثل قبيلة صغيرة من العموريين
وطرقاً من حياتهم «نحو ١٩٠٠ق.م .

وبعضهم يلبس ثيابا تغطي ما بين الخاصرة والركبة . وينتعل الرجال الصنادل الجلدية في حين تنتعل النساء أحذية كاملة . أما أسلحتهم فالقوس والنشاب والسهم والرمح. وكانوا يحملون أمتعتهم على حميرهم ويحملون معها أحيانا آلات موسيقية فيها العود والمزمار. ويبدو ان هذه من القبائل التي كانت تحسن الصناعة البسطية التي كانت معروفة في ذلك الزمان، فتضرب النحاس والحديد. ويقول اولبرايت إن المعاني التي تظهرها هذه اللوحة ومثلها قد سُطرت بتفاصيلها بعدئذ في التوراة (تكوين ١٩/٤ – ٢٢) ، كما يقول انه لا ينتظر ان تكون ملابس هؤلاء العموريين قد تغيرت بعد قرن أو اثنين . على أنها لم تلبث ، هي وملابس الكنعانيين ، أن تغيرت ، إذ اقتبسوا طراز وادي الرافدين وشمالي سورية . ويقول أيضاً ان الإسرائيليين اقتبسوا بعدئذ منهم هذه الملابس(١).

---

(١) Albcight, The Arch. of Palestine, pp. 207-8.

وواضح من آثار العموريين أن عنايتهم بالحياة الآخرة كانت شديدة . تدل على هذا القبور العديدة التي خلفوها والمعابد الكثيرة التي أقاموها . وقد وجدت نماذج من هذه في ماري ومجدو واريحا وغيرها .

وكانت ديانتهم بدائية ، قائمة على عبادة القوى الطبيعية ، كما كانت لهم آلهة رئيسية وأخرى ثانوية . كان « عورو » اله الحرب عندهم ، وكان رئيسياً . وكانت لهذا الآله شريكة تسمى « عاشرة » ، وكانت إ لهة المسرات ، ولعلها ذات صلة بالقمر الذي كان يعبد في جنوبي جزيرة العرب . وكان « حدد » عندهم إله العواصف والأمطار . وقد تحول مع الزمن إلى الإله « بعل » الشهير الذي اتخذه الكنعانيون إلهاً لهم ثم أصبح كبير آلهتهم . وعبد العموريون «دجن» إله الخصب الذي كان من آلهة الكنعانيين كذلك .

وقد بنيت معابد العموريين على شكل بيوتهم ومساكنهم العادية . وهذا يدل على أنهم تصوروا حاجة الإله على صورة حاجة الإنسان . ويشير بارو إلى أن هيكل سليمان الذي بني في القدس بعدئذ سمي « بيت يهوه » . والتسمية والشكل في رأيه مقتبسان من الطقوس العمورية . ونجد في ماري أيضاً نماذج من الشواهد الحجرية والأعمدة الخشبية (السواري) التي تنصب في المعابد والمقابر . ونجد من هذه ساريتين تحت معبد دجن . ويذكرنا هذا ، في رأي بارو ، بما جاء بعدئذ في التوراة من أن الرب أمر جدعون بقطع السارية التي كانت منصوبة فوق المعبد المكرس لبعل (قضاة ٦/٢٥[١]) .

قصة جنة عدن

وقد عثر في قصر الملك بهاري على لوحة كبيرة معلقة على أحد جدران القصر . وسميت تلك اللوحة بـ « التنصيب » ، لأنها تصور تنصيب الملك .

---

(١) parrot, Archaeology and Old Testament Study, p. 138

ويربط بارو العموريين بالكنعانيين « انظر ص ٣٧ تاليا »

واللوحة الآن في متحف اللوفر بباريس . ويقول بارّو أن الصورة في اللوحة تذكر بقصة جنة عدن كما وردت في التوراة (تكوين ١ و ٢) . ومن المعلوم أن قصة التوراة كتبت بعد رسم صورة اللوحة بنحو ألف وخمسمائة سنة[١] . في وسط الصورة يقف ملك ماري ، تحيط بـــه أشجار وحيوانات وآلهة . ومن المعلوم أيضاً أن قصة التوراة تورِد فيما تورد أنه كانت تجري في جنة عدن أربعة أنهار (روافد) (تكوين ٢/١٠) ،وانه كان في الجنة أيضاً شجرتان ، أحداهما « شجرة الخير والشر » (٢/١٧) ، وهي التي أمر الرب آدم بأن لا يأكل منها لئلا يموت ، والثانية « شجرة الحياة » (تكوين ٣/٢٢) ، وهي التي قيل إنه إذا أكل منها عاش مخلداً . وتستطرد التوراة فتذكر ان يهوه أخرج آدم من الجنه واقام حارساً يحمي الطريق إلى شجرة الحياة . ويعجب بارّو للشبه الواقع بين القصة كما أوردتها التوراة والصورة التي احتوتها لوحة ماري ، إذ أن تحت الملك في الصورة آلهتين اثنتين تحمل كل منهما زَهرية يفيض منها الماء في مجار أربعة . وترتفع من جانبي الصورة شجرتان مختلفتان ، أحدهما من النخيل يتسلقها رجال يحاولون الدنوّ من قطوفها ، والاخرى من نوع غير واضح ، ولكنها شجرة منتظمة التكوين ، عليها ثلاثة من الملائكة يحرسون .

ويعلق بارّو على ذلك كله فيقول حرفياً : « لا مناص من القول بأن هذه الحديقة التي زُرعت ورويت وحرست لا تنقصها الأوصاف التي تربط بينها وبين أوصاف جنة عدن كما وردت في التوراة[٢] » .

---

(١) الصورة تعود الى اوائل الألف الثاني قبل الميلاد ، والتوراة كتبت في حوالي القرن السادس قبل الميلاد وبعده .

(٢) Archaelogy and Old Testament Study, P. 139 . واقتباس شعب عن شعب أمر عادي في تطور الحضارة ، ولكن مشكلة الصهيونية أنها تنسب للاسرائيليين القدماء كل ابتكار وثقافة وفن ، في حين ان الواقع خلاف ذلك ، لا شيء الا لأن الزمن لم يمهلهم .

وقد تداخلت هجرة العموريين إلى فلسطين بهجرة الكنعانيين الذين نروي قصتهم في الفصلين الآتيين .

لم تكن الجماعات العبرانية قد تكونت بعد، وإنما احتاج ذلك إلى ألفي سنة على أقل تقدير بعد أية هجرة عربية ثابتة خرجت بالعموريين أو الكنعانيين من جزيرة العرب .

الفصل السادس

أريحا الأولى والكنعانية

أريحا الأولى

تعتبر أريحا الآن أقدم مدن العالم اطلاقاً[١] . ويقدر عمرها حسب أحدث الابحاث بنحو ٨٠٠٠ سنة ق . م . وتقع أريحا الحالية في غور الأردن بجوار أريحا التاريخية التي يتناولها بحثنا في هذا الفصل .

ومن أجل سهولة البحث والمطابقة مع الفترات التاريخية للحضارات القديمة تعتبر أريحا القديمة ، التي اصطلح على تسميتها « أريحا الأولى »، هي التي سبقت تاريخ ٦٠٠٠ ق . م . وأريحا الكنعانية هي التي ظهرت بعد ذلك وبخاصة بعد سنة ٣٠٠٠ ق . م .

وتصنف أريحا ما قبل ٦٠٠٠ ق . م . مع مدن الحضارة النطوفيـــة[٢] المبكرة ، أو مـــدن إنسان البحر المتوسط (١٠٠٠٠ — ٣٠٠٠) التي نشأت

---

(١) Kenyon , Digging up Jericho , p 23

(٢) ص ٣١ سابقاً و Albright , Arch . of Palestine p. 61

وازدهرت خلال الفترة التي عاش فيها هذا الإنسان . وتصنف في فترة ما بعد ٣٠٠٠ ق . م . مع مدن الحضارة الكنعانية[١] . ولذلك فأدوار تطور أريحا يمكن ان تعتبر نماذج لحضارات فلسطين في تطورها وتقدمها من إنسان البحر المتوسط بماله من حضارات النطوف والغسّول وجازر وما بعدها .

ان الدكتورة كاثلين كنيون التي تولت القيام بآخر حفريات أريحا (١٩٥٢ – ١٩٥٨) والتي تعتبر الحجة الأولى في هذا الموضوع هي التي قدّرت عمر المدينة . وهذا يقرّب بداية السكن فيها من العصر الحجري المتوسط ويجعلها أقدم مدن العالم المعروفة بلا نزاع وعلى هذا لا تكون أقدم حضارات العالم قد ظهرت في وادي النيل أو وادي الرافدين ، وإنما في وادي الأردن .

وقد اطلقت الدكتورة كنيون اسم « أريحا الاولى » على أقدم بناء للمدينة . واندثرت المدينة أو تهدمت نتيجة الغزوات والزلازل والحرائق مرة بعد مرة . وكانت أريحا الجديدة تقوم على انقاض أريحا الغابرة . واستطاعت كينيون ، ومن سبقها من علماء الحفريات ، أن تميز بين عهود المدينة المتوالية .

وتعتبر أريحا التي تلت أريحا الاولى مدينة كنعانية ، والاسم نفسه كنعاني بمعنى القمر . ويقود تاريخها إلى ٣٠٠٠ ق م . أما « أريحا الاولى » فتعود إلى نحو ٨٠٠٠ سنة ق.م. ، كما أشرنا . على أن السكن في المكان الذي اقيمت فيه المدينة بدأ حوالي ٩٠٠٠ سنة ق.م[٢].

أما الشعب الذي سكن المدينة أول مرة فلا تقرر الدكتورة كينيون نسَبه أو عرقه أو شكله ، وتنتظر نتيجة دراسة الهياكل العظمية التي يجري فحصها الآن ، وتقول اننا لا نعرف شيئاً عن لغة السكان في ذلك الوقت ، لأن الآثار لم تخلّف لنا شيئاً يفيد في معرفتها[٣] . ولعل هؤلاء السكان من أصحاب

---

(١) kenyon , Amorites and Kanaanites , p . 3

(٢) knyon Areh . in the Holy Land , p . 316

(٣) من رسالة خاصة من الدكتوره كينيون للمؤلف مؤرخة في ٢٧/١/١٩٧٠

للهجرات العربية القديمة التي أشارت إليها بعض المراجع التاريخية .

وكانت مساحة أريحا الاولى نحو ٣ - ٤٠ دونما . ويقدر أن هــذه المساحة كانت تتسع لما يقرب من ٣٠٠٠ نسمة . وقد يبدو هذا العدد كبيراً إزاء المساحة ، ولكن اكتظاظ الناس وضيق الشوارع وصغر المنــازل يجعل التقدير مقبولاً .

ولم يكن سكان أريحا الأولى يصنعون الفخار ، ولكنهم بدأوا بصنعه حوالي سنة ٥٠٠٠ ق . م . وتحدد هذه التواريخ نطريقة الكربون — ١٤ التي يعرف بها عمر مادة عضوية مما بقي فيها من فعالية الاشعاع . وعلى هذا الأساس قُدّر عمر أريحا ، وانحسار الجليد والعصور الحجرية وغيرها من الظاهرات الكبرى . وعلى الرغم من قدم أريحا هذا فإن آثارها المستخرجة تدل عــلى درجة عالية من التطور .

لقد كان بناء المساكن في أريحا الأولى ممتازاً والغرف واسعــة ، نحو ٦,٥ × ٤ أمتار أو ٧ × ٣ أمتار . وكانت الغرف عادة مستطيلة الشكل ، كما كانت تبنى حول ساحة سماوية ، ابعادها نحو سبعة أمتار طولا وعرضاً . وكانت الساحات تستعمل للطبخ . وكان سمك الجدار نحو نصف متر ، وكانوا يستعملون الحجارة في البناء ، وبخاصة الأساس والمداميك الاولى . أما البقية فكانت من الطوب المصنوع من الطين . وكان الطوب يُشكّل باليد ويجفف تحت أشعة الشمس . وكانت أرضية البيت من طبقة طينية تعلوها طبقة من الجير ، ثم طبقة من الجير الناعم المصبوغ باللون الاحمر أو الاصفر الخفيف الصفرة . ثم كان هذا يُصقل صقلا شديداً حتى يكتسب لمعانا جميلا ، وكان الجير الناتج قاسياً يُمسح وينظف بالماء فلا يتشقق أو يتقشر .

وكانت المساكن ذات طبقة واحدة . ولم يعرف من الآثار مبلغ ارتفاعها ، ولكن يظهر أن بعضهــا كان ذا طبقتين . وكانت السقُف تصنع مــن القصب والطين .

وخلاصة القول بلغة كنيون مكتشفة أريحا الأولى أن البيوت فيها كانت حسنة ، متينة ، ذات تخطيط جيد . بل أن هنالك دلائل تشير إلى درجة من الدعة والترف ، فقد فرشت أرضيات بعض البيوت بالحصير، وهذا أمر يستدعي العجب بالنسبة لقدم الزمن .

وقد استعمل اهل اريحا الاولون الصحون والجفان (البواطي) من الحجر، لانهم لم يكونوا قد صنعوا الفخار بعد . ومن المقدر انهم استعملوا اواني من الخشب والجلد ، ولكن هذه تبلى ولا تظهر في الآثار .

وكانت اسلحتهم من الصوان ، واحيانا من الحجر البركاني القاسي الذي يشبه الزجاج وقد استعملوا انواعاً مختلفة من السكاكين والانصال (الشفرات)، ورؤوس الرماح ، والمناجل . وكانت هذه مسننة بدقة تدل على مهارة فائقة . وتشير كثرة المناجل إلى ان الحبوب كانت اساس طعامهم وقد وُجدت في الآثار مطاحن بسيطة من الحجارة لطحن الحبوب .

ولم تدل الآثار عـــلى نوع اللباس الذي كانوا يلبسون ، ولكن وجد من الادوات ما يشبه المغازل ، كما وجدت حبات من المالكايت (اليَشَب[1]) واصداف مثقوبة لا بد وانها استعملت للزينة .

وهنالك بناء يدل على انه كان معبداً لاهل المدينة ، كما ان هنالك تماثيل صغيرة يظن ان لها مغازيَ دينية .

وكان اهل اريحا الاولى يدفنون موتاهم دفنا َجماعيا في أقبية خاصة داخل المدينة ، كما كانوا يعتنون ببعض الجماجم ، يفصلونها عن اجسادها ويحفظونها وحدها . وقد تكون هذه جماجم رجالٍ بارزين . ولعلّ الاحتفاظ بها على تلك الصورة كان تعبيراً عن الرعاية والتقدير . وقد ُقدّر معدل اعمار كثيرين

(١) حجر أخضر بسبب ما فيه من مركبات النحاس .

عند وفاتهم في اريحا الاولى بـ ٣٥ سنة ، وقليل منهم من بلغ الخمسين من عمره[١] .

وكان للمدينة سور ضخم يحميها ، وقلعة وليس من المؤكد ان السور كان قد احاط بها من كل جانب ، وربما احاط بالقلعة وحدها. وكان بناء السور من الحجارة الكبيرة.وهنالك ادلة على انه كان ينهار فيقام سور آخر على انقاضه. وكان ارتفاع السور يتراوح بين سته امتار وخمسة عشر متراً . وكانت القلعة ضخمة قطرها تسعة امتار . وكانت متانة البناء عظيمة إلى درجة يندهش لها الناظر ، وهو يتخيل ان عمره ثمانية آلاف سنة او اكثر .

وتدل الحفريات على أن مرّ الزمن كان يُودي بالأبنية والمساكن، فيبني الناس على أنقاضها . وبهذا تكوّن مع الأيام تلّ مرتفع من آثار أريحا القديمة . وعندما يُقطع التل من أعلى إلى أسفل تبدو بقايا هذه الأبنية بعضُها فوق بعض . وبما أن أريحا كانت بكل معنى وقياس مدينة لا قرية ، فإن آثارها وحياة أهلها وحضارتهم تعتبر ثورة في تاريخ المدن العالمية .

ولا يمكن لمدنيّة أن ترقى مثل هذا الرقي إلا إذا كانت لها قوانين وتشاريع تنظم حياة مجتمعها ، كما لا يمكن الاعتقاد بأن أريحا كانت المدينة الوحيدة في البلاد ، وإلا ما احتاجت إلى وسائل الدفاع التي أشرنا إليها . ولذا فمن المرجح أن تكون مدن أخرى قديمة مثلها قد أقيمت في غور الأردن ونواحيه .

ان قِدم أريحا الأولى هذا يقربنا أيضاً من العصر الجليدي الأخير الذي انحسر عن شمالي الهلال الخصيب فتركه ماطراً مخصبا (ص ٩). وعلى هذا فإننا ننظر إلى أريحا قبل عهد الفخار ، وبصورتها المتطورة التي تبدّت لنا الآن من تحت الانقاض ، نظرتنا إلى تراث اشتمل على مظاهر الحضارة كلها ، إلا اللغة المكتوبة . ولقد بلغت المدينة حداً يقربها كثيراً من المدن الحديثة ، أو على

---

(٢) kenyon , Arch . in the Holy Land , p . 194 علما بأن معدل العمر في الاردن الآن يقدر بـ ٥٢ سنة ، وكان سنة ١٩٤٠ ، ٣٩ سنة في قرى الرملة في فلسطين .

قل الأمن طراز مدن القرون الوسطى في مظهرها . وكان لا بد لها من الاراضي الخصبة لتقيم حياتها . ونستطيع أن نفترض أنه كانت إلى جوارها مدن مشابهة، وانها أقامت معها مختلف العلاقات وزاولت أنواع التجارة .

وهكذا طوت أريحا الأولى فترة نشوئها الذي بدأ قبل عشرة آلاف سنة وتعاقبت عليها الحضارات البدائية خلال حضارات إنسان فلسطين والبحر المتوسط ، وفيها حضارات النطوف وما شابهها ، إلى أن اطلت عليها عصور الهجرات العربية الكبيرة في سنوات ٣٠٠٠ ق . م . وما حولها ، فجعلتها زاهرة زاهية . ثم ادركتها غزوة العبرانيين حوالي سنة ١٢٠٠ ق . م .

أريحا الكنعانية

وأصاب أريحا ركود وانحطاط بعد سنة ٣٠٠٠ سنة ق . م . امتد نحو ألف سنة ويعزو بعضهم ذلك إلى غزوات بدوية من الصحراء عادت بمعالم المدينة إلى الوراء .

أما فيما بين سنتي ٢٠٠٠ و ١٢٠٠ ق . م . فقد عادت المدينة إلى مظاهر الازدهار والتقدم. وقد ظهرت بوادر هذا في سائر السواحل السورية والفلسطينية، وساعد عليه استقرار الحكم في مصر وتأثير ذلك على سورية وفلسطين .

وأبرز مظاهر التقدم التي عرفت في أريحا وغيرها هو صنع الفخار بالدولاب السريع. ومع أن الدولاب (العجلة الذي طوّر صناعة الفخار كان قد استعمل من قبل في سورية والعراق ومصر ، فإن فلسطين تأخرت عنها فاقتصر استعمالها على الدولاب بطيء الحركة. فلما استعملت أريحا الدولاب السريع قفزت صناعة الفخار قفزة واسعة إلى الأمام .

وتطورت صناعة المعادن كذلك فاستُعمل البرونز في صنع الأدوات المنزلية والأسلحة وغيرهما .

وهنا نرى أيضاً المدن المزدهرة والأبنية الحسنة . وفي هذه الفترة (العصر البرونزي المتوسط) نجد فلسطين قد بلغت أوج ازدهارها وثروتها.

على ان بعض الأثريين يلاحظون أن أهل أريحا هذه المرة ، وكانوا بلا مراء عربا كنعانيين ، لا يعمرون سائر أرجاء المدينة ، ولذا فالأرجح ان سكانها أصبحوا أقل عدداً .

وكانت أريحا في هذه الفترة مسوّرة كذلك ، ولكننا لا نعلم التاريخ الذي أقيم فيه السور . وتدل آثاره على تكرار البناء في مراحل زمنية متعاقبة . وفي النهاية أصبح السور ضخماً قويا تدعمه مصطبة من تحته ، ينحدر منها مستوى أرضي مائل جداً ومطلي بالحوّر ويعضده جدار استنادي من خارج السور .

ولم تمر فترة الازدهار والاستقرار في أريحا والمدن الفلسطينية الأخرى دون أن تقطعها فترات من الاضطراب نتجت عن غزو الهكسوس للبلاد وغزو الفلسطينيين ، وامتداد نفوذ الحوريين ، مما أقلق راحة البلاد في سائر أرجاء الهلال الخصيب .

وكما ازعج الهكسوس والحوريون هدوء البلاد وأمنها ، فقد ازعجها كذلك تحركات جماعات العبيرو (العبرانيين) التي سنشرحها عما قريب . وقد استمر ازعاج هذه الجماعات منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد إلى ما بعد انتهائه .

وعلى نحو ما درج الكنعانيون على تحسين مدنهم في كل مكان فقد حصنوا مدينة أريحا تحصينات قوية . وتستعرض الدكتورة كنيون هذه التحصينات التي نقّبت عنها بنفسها فتقول :

« إن هذه الكلمة الطويلة عن تحصينات أريحا تساعد على اظهار صورة من فلسطين كما رآها إبراهيم . فقد كانت بلاداً ذات مدن محصنة وسكان امتازوا بتراث ناتج عن انتشار حضارة الكنعانيين والفينيقيين حوالي سنة ١٩٠٠ ق . م . إن هذا التراث الحضاري يستمر دون انقطاع حتى حوالي سنة ١٢٠٠ ق . م . والتراث مدني (نابع من المدن) ، سامي ، والسكان ساميون ... هكذا كانت فلسطين التي كان إبراهيم وانساله يتجولون فيها . ولا بد وأن يكونوا قد عرفوا وسائل الدفاع الضخمة ، من الخارج على الأقل . والأرجح أن يكونوا قد دخلوا المدن

من أبوابها ليبادلوا نتاج قطعانهم بالفخار والقماش والأدوات ، وغيرها ، مما كان يصنعه أهل تلك المدن[١] » .

ولو كان إبراهيم ومَن جاء بعده قد دخلوا المدينة من السور لما شق عليهم أن يروا المنازل ، فهذه كانت غالبيةُ أبوابها تطل على الشارع مباشرة . أجل كانت الشوارع ضيقة والبيوت متراصة ، ولكن البيوت من الداخل كانت مريحة بالنسبة للناس في ذلك الزمان . وبعض غرف المنازل أصبحت ذات مصاطب عالية من الداخل أو ذات مستويين المرتفع للمعيشة والمنخفض للخزن.

وتدل آثار أريحا الكنعانية في هذه الفترة ، وهي الفترة التي هاجمها في أواخرها العبرانيون ، على وجود أنوال النسيج وتوافر الملابس والفراش والحصير والطاولات والكراسي والسلال والدبابيس المعدنية لربط الثياب ، وللتجميل . وهنا تكون صناعة الفخار قد تطورت فنجد الطباق والجفان والأباريق والزيران والخوابي وطوابين (أفران) الخبز التي تشبه طوابين القرى الحالية .

وقد كشفت الحفريات عن مدافن عائلية كثيرة تدل على غزارة في عدد السكان يومئذ . وفي المدافن مع بقايا الأجساد وجد الطعام ، من لحم الضأن المطبوخ أو المشوي ، وبقايا الحبوب والرمان والزبيب .

ومن الواضح أن العقيدة الدينية أصبحت الآن أوضح وأرفع من ذي قبل .

ان الصورة المقابلة التي ركبتها الباحثة الدكتورة كنيون تعبر عن شيء من حضارة أريحا التي بلغها الكنعانيون في ذلك الزمن .

ولم تكن أريحا وحدها على هذا المستوى من الحضارة، ولكن القدس وغيرها من مئات المدن الكنعانية كانت كمثل أريحا رقيا وعمرانا وقوة . وقد وصفت التوراة ذلك حين قال العبرانيون عن الكنعانيين: « شعب أعظم وأطول منا.

---

١ Digging up Jericho , p.p . 228 — 9



الاسرة الكنعانية العربية في أريحا ـ فلسطين عن الدكتوره كاثلين كنيون
كانوا قد بلغوا هذا المستوى الرفيع من الحضارة سنة ٢٠٠٠ ق . م . في حين لم تتكون الجماعات العبرانية إلا حوالي سنة ١٣٠٠ ق . م . او بعد ذلك .

مدن عظيمة محصنة إلى السماء ... فقلت لهم لا ترهبوا ولا تخافوا منهم . الرب الهكم السائر أمامكم يحارب عنكم».

ووقع الغزو العبراني بعدئذ فاجتاح كثيراً من المعالم الحضارية التي وصفنا لانه ، بحسب نصوص التوراة، جاء يحمل امراً من إله إسرائيل بالقتل والحرب والإفناء . وسنطّلع على صور هذا الغزو في الفصل الحادي عشر حين نتكلم عن دخول العبرانيين إلى فلسطين .

الفصل السابع

الكنعانيون

الكنعانيون أكبر موجة عربية خرجت من جزيرة العرب . وقد انتشرت هذه في سائر ارجاء الهلال الخصيب ، وبخاصة سواحل لبنان وفلسطين وسيناء ، كما انحدر جزء منها إلى مصر .

وقد عمر الكنعانيون أجزاء كثيرة من فلسطين وسورية ولبنان فعرفت هذه كلها باسم « ارض كنعان » وحَصر هذا الاسم بفلسطين ، او بجزء منها قل او كثر ، يولد الغموض ، لاسباب منها ان التسميات القديمة لم تكن في الغالب ذات حدود واضحة . وعلى كل حال كانت هجرة الكنعانيين الى فلسطين واسعة الى حد اصبحوا معه السكان الاساسيين للبلاد [١] . واسم « ارض كنعان » هو اقدم اسم معلوم اطلق على البلاد .

وكانت القبائل الكنعانية قد هاجرت الى فلسطين والقدس وغيرهما من شرقي جزيرة العرب ، من المناطق المجاورة للخليج العربي . ومما يدل على ذلك اسماء اماكن وجزر ومدن وقرى في الخليج والساحل الشرقي للجزيرة تشابه اسماء مدن وقرى اقامها الكنعانيون في لبنان وفلسطين وغيرهما ، مثل منطقة (كنعان)

---

(١) Noth , The Hist . of Israel p 24

التي تقع على الساحل الشرقي من جزيرة العرب ، وجزيرة (ارواد) وتسمى الآن المحرّق وهي من جزر البحرين على الساحل الغربي لخليج العرب ، وجزيرة (صور) على ساحل عُمان وجزيرة (صيدا) على الساحل الشرقي للجزيرة و (جبيل) على ساحل الإحساء وغيرها . يضاف إلى ذلك تشابه في المقابر والهياكل والمساكن [1] .

وكانت هجرتهم هذه إلى فلسطين قبل الميلاد بـ ٤ – ٣ آلاف سنة [2] . ويردّ آخرون بداية تاريخهم في الهلال الخصيب إلى ٤٥٠٠ ق.م. وقد « تفاخروا بامتلاكهم شواطىء المتوسط ، وتلقب بعض ملوكهم بـ (ملوك العالم) و (ملوك الأقطار الأربعة) » [3] .

وكانت القبائل الكنعانية بطوناو افخاذاً كثيرة ، تشمل اليبوسيين الذين بنو االقدس وهؤلاء ينتمون إلى (يبوس) وهو جدهم الأعلى ، واليه نسبوا اسم المدينة المقدسة كما تشمل الفنيقيين المشهورين الذين سكنوا سواحل لبنان والساحل الشمالي لفلسطين وسكن العدد الأكبر من الكنعانيين أراضي فلسطين السهلة الواطئة (قيل الكانعة أو الخانعة) والأغوار ، علماً بأن جماعات منهم سكنت الأراضي المرتفعة كذلك ومهما يكن الأمر فقد كان الكنعانيون العنصر الغالب في سكان فلسطين نفسها اما الفنيقيون منهم الكنعانيون الذين سكنوا ساحل لبنان بصورة عامة . وقد أطلق اليونانيون عليهم هذا الاسم لأن الفنيقيين كانوا يزودون اليونان بصبغ الارجوان فينيكس phoenix) .

ويطلق بعض المؤرخين اسماء العموريين والكنعانيين واليبوسيين والفنيقيين ، واحيانا الآراميين ، بعضها على بعض ، مما يسبب بعض الاختلاط والغموض

---

(١) فيليب حتي ، لبنان في التاريخ ص ٨٣ « نقلا عن المؤرخ هيرودوتس والجغرافي سترابو» ، وبلادنا فلسطين ص ٣٨٩ وتاريخ الجنس العربي جـ ٤ ، ص ٤٥ – ٤٦ .

(٢) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ٨٧ .

(٣) اوغاريت ص ٢٩

فيقولون « العموريين » مثلا حيث يجب ان يقولوا « الكنعانيين » وبالعكس . وقد أشرنا إلى هذا فيما سبق (ص ٣٧) ، وإلى سببه . ويقع أيضاً التباس بين الآراميين والكنعانيين احيانا ، مع ان الهجرة الآرامية الأساسية جاءت متأخرة عن هجرة الكنعانيين . وتضم القبائل الكنعأنية العمالقة والفرزيين وغيرهم ممن ذكرتهم التوراة . وقد استوطن العموريون في الغالب شمالي سورية ، وكانت ماري كما قلنا حاضرتهم الرئيسية ، ومالوا إلى سكنى الجبال في فلسطين وشرقي الأردن ، في حين تركز اكثر الكنعانيين في السهول والسواحل والأغوار . وفي ساحل سورية الشمالي كانت اوغاريت (رأس الشمرا اليوم) حاضرتهم الرئيسية. وقد هاجر الآراميون إلى وادي الرافدين وسورية فأقاموا في حران ودمشق وغيرهما ، وذلك خلال الألف الثاني قبل الميلاد . ويبدو أن تسميتهم بالآراميين (كالفنيقيين مثلا) جاءت بعد هجرتهم ، إذ استوطنوا بعض المرتفعات في سورية وفلسطين (والآرام هي المرتفعات) .

مواطن الكنعانيين ومعايشهم

لا يتفق المؤرخون على حدود الأراضي التي نزلت فيها القبائل الكنعانية . وبالنظر إلى تشعب هذه القبائل فان الأراضي التي سكنوها تمتد من الخليج العربي فتشمل اجزاء من العراق وسورية ولبنان وفلسطين وسيناء . ولسنا بحاجة إلى الدخول في التفاصيل ، لكن المؤكد المهم هنا ان القبائل الكنعانية (والعمورية) استوطنت ارض فلسطين كلها ، بما فيها صحراء النقب وغور الأردن . وبقي الكنعانيون فيها حاكمين ومحكومين يشكلون سواد السكان منذ دخولهم اليها حتى يومنا هذا (بعد اندماجهم مع العرب المسلمين) ، وإن كان اسمهم قد غاب في التاريخ . وقد قال اوليري إن « في حالة فلسطين ما يحمل على الاعتقاد بأن اكثرية الفلاحين الحاليين هم احفاد مَن جاء قبل الإسرائيليين » (١) . ونقل

(١) O , Leary p . 5

مصطفى الدباغ عن السير جيمس فريزر قوله : « إن الناطقين بالعربية من فلاحي فلسطين ما زالوا متصلين بالأرض ، لم ينفكوا عنها ولا اقتلعوا منها ، ولئن طغت عليهم موجات من الفتوح فانهم ثبتوا واقاموا »[١] . وقـال اولبرايت « ان العنصر السامي (العربي) قد بقي العُنصر الأساسي في التركيب العرقي لفلسطين منذ ذلك الوقت (١٠٠٠٠ – ٣٠٠٠ ق.م.) إلى الآن »[٢] .

وكانت مساكن الكنعانيين تشبه إلى حد بعيد مساكن المواطنين العرب في مدن فلسطين وقراها اليوم . وقد دلت على هـذا حفريات مكاليستر التي اشرنا اليها (ص٣٣) وغيرها . وكانت المساكن والقرى والمدن على العموم مسوّرة ، تبنى من الطين في البقاع الساحلية ومن الحجارة في الجبال ، عـلى حسب مواد البناء المتوافرة محلياً . وكانوا في بناء البيوت الطينية يخلطون الطين بالتبن لكي يتماسك ، شأن بيوت القرى الفلسطينية العربية إلى اليوم ، وبخـاصة في سهول البلاد وجنوبيها . وكان بيت الميسور منهم يتألف من ساحـة سماوية وغرف تحيط بها ، كما كان فيه زرائب للماشية ومخازن للحبوب وافران ، واحيانا آبار خاصة . وكانت اغلبية البيوت صغيرة مكتظة متقاربة ، غير ان بعض الكنعانيين الرعاة كان يعيش في بيوت من الشعر ، ويتنقل سعياً وراء الكلأ والماء ، كما يفعل الرعاة اليوم في جهات بئر السبع والاغوار . وكانوا يبنون القرى موزعة هنـا وهناك على مسافات يقررها حشد السكان والماء واسباب الدفاع . أما المـدن الكبرى حيث يستقر الملوك والشيوخ فكانت جيدة التسوير ، تبنى على اماكن مرتفعة لأسباب دفاعية ودينية . ولم يكن الملك في الغالب ليحكم اكثر من مدينة

---

(١) بلادنا فلسطين ض ٥٠٢ .

(٢) Albright the Arch . of palestine , p 180 « وانظر ص ١٠٥ تالياً » . والحقيقة ان هذا الاستمرار في بقاء العنصر العربي قد صدق على سورية بكاملها « حتي ، تاريخ سوريـة ولبنان وفلسطين ص ٧٠ » .

وما حولها من الاراضي والقرى والعشائر البدوية . على هذا الطراز بنوا مدن الساحل والغور والسهول مثل غزه وعسقلان واريحا ومجدو وعلى هذا الطراز ايضاً بنوا مدن الجبال مثل يبوس (القدس) وشكيم (بلاطة ، نابلس) . وكانت كل مدينة مستقلة عن الأخرى . وقد اصطلح المؤرخون المحدثون على تسمية حكومتها « مملكة المدينة » .

وكان من الطبيعي أن يبدأ الكنعانيون حياتهم على الطراز البدوي الذي عرفوه عند ارتحالهم من الجزيرة وانتشارهم في فلسطين . وقد اقتبسوا من شعوب المتوسط ، ما كان هؤلاء قد بلغوه من مظاهر الحضارة والرقي . ومع الزمن انتقلوا إلى حياة الحضارة ، فبنوا البيوت الجميلة والأسوار المنيعة ومارسوا الزراعة والصناعة ، ثم الكتابة والفنون إلى ان بلغوا مستوى بارزاً من الحضارة بما يتضمنه ذلك من تنظيم وقانون وهندسة وجمال .

حضارة الكنعانيين

يبدو ان عدد مدن الكنعانيين في فلسطين ، كما نعرف حدودها اليوم ، لم يكن يقل عن مائتي مدينة . وذلك خلال الألف الثاني قبل الميلاد ، وقبل غزو العبرانيين لها . وقد ذكر احد كبار الباحثين ان المدن في القسم الجنوبي الغربي من فلسطين كانت آنئذ غزيرة العدد (١) . وقد اشرنا إلى ان مساحة اريحا ، بناء على حساب الاثريين قدرت بنحو ٣٠ — ٤٠ دونما ، وبلغت مساحة القدس مثل ذلك . وبعض المدن كان اقل مساحة وبعضها اكثر ولعل عدد سكان المدينة الواحدة كان يتراوح بين ١٠٠٠ و ٣٠٠٠ نسمة . وكان عدد سكان فلسطين كلها نحو ربع مليون نسمة .

وإضافة إلى مظاهر الاستقرار التي صاحبت حضارة الكنعانيين ، من بناء المدن وتشييد الاسوار ، فقد مارسوا هم والقبائل المنتمية اليهم زراعة القمح والشعير والزيتون والعنب ومختلف انواع الفواكه والخضار ، كما دجنوا الماشية

(١) Noth , the Hist . of Israel p 31

والطيور . وقد دأبوا على ذلك إلى حد دعا الناس في ذلك الوقت إلى ان يصفوا البلاد بأنها « تفيض لبناً وعسلا » . والحقيقة ان البلاد لم تكن غنية ، شأنها الآن ، وخاصة في الجبال . ولكن نشاط الكنعانيين في العمل وانتاجهم بهرا الوافدين اليها من البادية القاحلة فصاروا يصفونها بهذه الصفة وقد اقتبس العبرانيون هذا الوصف فشاع عنهم و نسب اليهم .

ومارس الكنعانيون الصناعة على نطاق واسع نسبياً ، اذ جاءوا ابان العصر البرونزي ، وهو العصر الذي جاء في اعقاب العصر الحجري الحديث والعصر النحاسي . وقد صنعوا اسلحتهم من البرونز والحديد فتمكنوا بذلك من التغلب على اعدائهم . وصنعوا الفخار واستعملوا لصنعه الدولاب الذي لا يزال نموذجه في بعض القرى قائماً الى الآن ، كما بدأوا ينسجون الصوف ليصنعوا منه ملابسهم .

واستعملوا الخشب في الأبنية والاثاث . واستوردوه من اشقائهم الفنيقيين في لبنان .

وكان الكنعانيون اصحاب ديانة معروفة ، فكان اله الشمس « بعل » هو الههم الاكبر في كل من مدنهم الكبرى ، وكان بعل عندهم اله الخصب والانتاج ولا غرو في ذلك لقوم تتوقف حياتهم على الزرع والضرع والماء والكلأ . وكان بعل يسيطر على الرياح والغيوم والأمطار ، كما كان يسيطر على الآلهة الاخرى والناس . وقد كشفت الآثار في اوغاريت عن هيكل لبعل يرتد تاريخه الى ٢٦٠٠ ق.م. وشكله اقدم نموذج بني هيكل سليمان على طرازه . وفكرة « بيت يهوه » مقتبسة من فكرة « بيت بعل » عند الكنعانيين [١] (والعموريين) ، الذين سموا هذا البيت ايضاً « الهيكل » و « القصر » . وكانوا يقدمون القرابين لبعل وغيره من الآلهة . وكانت القرابين تتألف من الانسان والحيوان والنبات، ويحرقون عند التضحية الزيت والدهن والبخور . وكانوا ، كالمصريين ، اذ

---

(١) Parrot , Arch . and Old Test . Study p, 147

يدفنون موتاهم يضعون مع الميت المأكولات والملابس والاسلحه واللعب وسائر لوازم المعيشة . وكان « ايل » الهاً اكبر ، بل كان ابا الآلهة عند الكنعانيين وكان بعل ابنه وقد اقتبس العبرانيون عنهم عبادة هذا الاله (ايل) وذكر انهم جعلوا « يهوه » ابناً له وهم يبدأون بابراهيم فينسبون اليه في التوراة انه بنى مذبحاً لهذا الآله [١] .

وقد تكلم الكنعانيون لهجة او لغة خاصة بهم ، مشتقة من العربية الاولى . وبعد مدة طويلة من توطنهم وحكمهم في فلسطين حلت اللغة الآرامية ، وهي لهجة عربية اخرى ، محل الكنعانية ، وتوارى بالتدريج اسم « الكنعانيين » . وقدظلت الآرامية لغة الاهالي في فلسطين كافة، قرابة الف سنة ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد ، حتى حلت محلها اللغة العربية الحديثة ، وبخاصة بانتشار القرآن والدعوة الإسلامية .

وقد وجد ضمن حفريات مملكة اوغاريت نماذج من الأبجدية المسمارية الخاصة التي كان الكنعانيون يستخدمونها محلياً . وهي اقدم ابجدية في تاريخ البشرية . وقد كتبت بها محفوظات تلك المملكة العجيبة . وكانت سراي الملك منظمة، ضخمة ، مساحتها نحو عشرة دونمات . وقد حفظت في السراي (او القصر) وثائق الاعمال الادارية منسقة تنسيقاً يساعد على الرجوع اليها ، لكل دائرة حكومية وثائقها ، بما في ذلك وثائق الشؤون المالية للمقاطعات التابعة للعاصمة اوغاريت ووثائق الشؤون التجارية وقسم خاص للمخابرات الخارجية ، وخاصة مع الحثيين، ووثائق نقل الملكية ومنح الرتب الإقطاعية . وكان القصر يتضمن مساكن العائلة المالكة ومساكن الدبلوماسيين الاجانب والتجار الاغنياء [٢] .

وقد شارك الكنعانيون في اواخر ايامهم في تطوير الكتابة فخطوا بها (ما

---

(١) اوغاريت ض ٣٠

Gray , Arch . and Old Testament Study p, 151(٢)

بين ١٦٠٠ – ١٢٠ ق .م.) خطوة ادت الى الانتقال من الحروف القديمة الدالة على المقاطع الى الحروف الهجائية التي ابتدعها الفنيقيون . وقد وجدت في فلسطين جرة تحمل الحروف التي ادت الى هذا الانتقال الهام [1] . ودلت الحفريات على ان الابجدية تضم ثلاثين حرفاً ، واللغة لهجة كنعانية . واغلب المواد المكتوبه دينية تتصل بطقوس العَبادة [2] .

الادب الكنعاني والعبري

ودلت الحفريات ايضاً على ان « هنالك مقارنات ومشابهات من حيث اللغة والأفكار بين ادب اوغاريت (الكنعاني) وسفر ايوب (التوراتي) .وتوجد موازنات في شعر اوغاريت كما في الشعر العبري . ومما يستلفت النظر التشابه في المفردات والافكار والاوزان الشعرية والتركيب الأدبي بين الأدب الاوغاريتي والمزامير العبرانية . ونجد في الوثائق الاوغاريتية ان بعل يوصف بـ« راكب الغيوم » ، وكذلك يصفون الله في العبرية (المزمور ٦٨/٤). وفي احد نصوص اوغاريت نجد ان الرعد هو صوت بعل ، وفي سفر ايوب (٣٧/٢)- ٥ والمزمور «٢٩/٣-٥» نجد انه صوت يهوه. وهذا المزمور بكامله من اصل كنعاني ظاهر » [3] .

ويقول العالم ج جراي عن وثائق اوغاريت الاثرية جملة : **« ان الدراسة التفصيلية لهذه الوثائق تكشف عن نقاط اتصال غزيرة بينها وبين التوراة . وفوائدها في دراسة التوراة جمة ، فهي تسجل بصورة وثائقية عبادة الخصب عند الكنعانيين التي تأثر بها العبرانيون ... كما تسجل العادات الاجتماعية والعلاقات العائلية والفضائل المتبعة عند الاسرائيليين المقتسبة من الكنعانيين »** [4] .

---

(١) متحف الاثار الفلسطيني ص ١٣٢

(٢) حتي تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ص ١٢٤

«٣» المصدر نفسه ص ١٢٤

«٤» Gray ,A rch and old Test study p 160

وفي هذا المعنى يقول حتي :

« ان الكثير من خير ما تركه التراث الأدبي الكنعاني اقتبسه العبرانيون ودخل في كتاباتهم المقدسة . وينطبق هذا خاصة على القطع الغنائية والحكم التي استعارها سفر الأمثال والمزامير ونشيد الانشاد ، وعلى الاخبار الخرافية التي دخلت في سفر التكوين وفي قصص الأنبياء . ولم يكن هذا الامر معروفاً إلى ان اكتشفت مدينة اوغاريت »[1] .

ويتناول الدكتور نسيب وهيبة الخازن موضوع الاقتباس العبري عن التراث الكنعاني بشيء من التفصيل في كتابه الرائد « اوغاريت » ، وهو كتاب يقوم تأليفه على نتائج الحفريات الأثرية . وفي هذا يقول :

« إن التسميات الإلهية الواردة في سفر التكوين في الفصول ١٤ — ١٥ هي بلا شك سابقة لعهد الإسرائيليين ، ويكفي ان نحيل إلى بعض الأسماء لنجد ثلاثة أرباع التسميات كنعانية .

بيت ايل — بيت ايل   عولام — الأبدي

« يشمع ايل — ليسمع ايل (اسماعيل)   رؤى — الذي يرى

« عليون — العالي — العلي   يضحك ايل — ليبتسم ايل »[2]

ويورد الدكتور الخازن امثلة عديدة في كتابه ، **نأتي فيما يلي على اقل القليل منها :**

نصوص اوغاريت	**نصوص التوراة**
طبُخْ جد بحلب (كنعاني) (اطبخ جديا بالحليب)	ولا تطبخ جديا بحليب امه (تثنية ٢١/١٤)
شمم شمن تمطرن (السموات سمنا تمطر)	يسيل الحليب والعسل

١— تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ١٢٣

— اوغاريت ، ص ٤٥

نحلم تلك بنتم (عسلاالينابيع تسيل)

وفي ذلك اليوم تقطر الجبال
سلافا وتفيض الآكام لبنا
(مزامير ٦/٧)

ان اعداءك يا بعل
ان اعداءك ستضربهم

ان اعداءك يا يهوه
ان اعداءك يبيدون [١]
(مزامير ٩٢/١٠)

ويقول الخازن أيضاً : « من النصوص الدينية التي تشكل جزءاً مما احتوته مكتبة اوغاريت اتضح ان الأدب الكنعاني الذي كان مزدهراً لما دخل العبريون أرض كنعان قد أثر لا على الأمثال والحكم الموجودة في سفر الأمثال وسفري المزامير ونشيد الانشاد فحسب ،بل أيضاً على سفر التكوين واخبار الأنبياء»[٢]

وليس هذا فحسب ، بل ان نصوص اوغاريت قد ألقت ضوءاً على شيء من مصادر الأدب اليوناني . وفي ذلك يقول الدكتور الخازن نقلا عن الأب دي لانج « إن كثيرين من كبار العلماء يرون الآن ان آداب اليونان وآداب إسرائيل تعود إلى مصدر واحد هو الأدب الكنعاني » [٣] .

---

١ – اوغاريت ، ص ٨٧ – ٨٨

٢ – المصدر نفسه ، ص ٧٩

٣ - المصدر نفسه ، ص ٧٩ ايضاً « نقلا عن ص ٦٥ – ٨٧ من كتاب الاب دي لانج L,ancien Testament et L,Orient سنه ١٩٥٧ .

الفصل الثامن

اليبوسيون

بناة القدس الاولون

اليبوسيون بطن من الكنعانيين ، كما ذكرنا .ويبدو ان اسمهم مشتق من اسم جدهم الأعلى « يبوس » . وقد سكن اليبوسيون المرتفعات التي تقع عليها مدينة القدس وما جاورها من السهول والأودية .

وكانت القدس اليبوسية التاريخية «مملكة مدينة» ، كمدن الكنعانيين الاخرى ذوات القواعد الملكية . وقد تعاقب عليها ملوك وحكام ، منهم أدوني صادق وملكي صادق وسالم اليبوسي . وهي اسماء كما ترى عربية قديمة . و « القدس التاريخية » هي غير « القدس القديمة » التي تقع ضمن الأسوار الحالية (١) .

بناء القدس وحياتها

وكانت القدس اشهر مدن العالم القديم إطلاقاً . وربما كان من قبيل الشعور بذلك ان ظهرت المدينة في خريطة كنيسة الروم الارثوذكس بمأدبا ، الأردن ، على انها مركز العالم . وقد رسمت هذه الخريطة في القرن السادس للميلاد .

---

١ – « القدس التاريخية » في مصطلح هذا الكتاب هي مدينة اليبوسيين الاثرية على مرتفع الضهور (اوفل) الوارد ذكره فيما بعد ، ويقع خارج السور ، وإلى جنوبه الشرقي ، و القدس القديمة » ما يقع داخل السور و « القدس الحديثة » تشمل جميع ما يقع خارج السور .

أما القدس الحديثة ، فانها ، عدا شهرتها وقدسيتها لدى الأديان الكبرى ، تعتبر من اجمل مدن العالم،وذلك بسبب موقعها الجميل ومناخها الصحي وسحرها الجذاب الخفي . وتقسم في حالها الحاضر إلى أقسام ثلاثة رئيسية : القدس القديمة ، وهي داخل الأسوار ، والقدس الجديدة ، ويقع قسم منهـا في الشمال وقسم إلى الغرب من هذه الأسوار . وأغلب أبنيتها واراضيها في سائر اقسامها خـارج السور وداخله املاك عربية ، على الرغم من احتلال الصهيونيين للقسم الغربي منها سنة ١٩٤٨ وللباقي منها سنة ١٩٦٧ .

وقد ظلت فلسطين بعد الفتح الاسلامي (سنة ٦٣٨ م) عربية خالصة ،وان احتلها الصليبيون واسسوا فيها مملكة عاصمتها القدس وامـارات في الساحل والداخل . وقـد دام الاحتلال الصليبي نحو ٢٠٠ سنة (١١٠٠ – ١٣٠٠ م) تقريباً .

وهذه الحقائق معروفة ، غير ان الذي يلتبس على غير العرب احياناً هو ان القدس كانت عربية قبل الإسلام ايضاً ، بأزمنة اطول من الأزمنة التي مرت بعد الاسلام ، إذان اليبوسيين اسسوها منذ حوالي ٦٠٠٠ سنة مـن اليوم . وتدل الحفريات الحديثة على ان موقع القدس قبل بنائها كان مأهولا قبل ذلك ايضاً . على ان الحفريات التي قامت بها مختلف البعثات الأثرية الأجنبية لا تنسب المدينة إلى ما قبل اليبوسيين ويعتبرونهم بناتها الأولين . وفي ذلك الوقت المعرق في القدم كان قد مضى على إنشاء اريحا نحو ٣٠٠٠ سنة ، اي انهـا سُكنت قبل ٩٠٠٠ سنة من اليوم (١) .

ويعلق ونتون طوماس على قدم المدينة فيقول : « ان استيطان موقع القدس في الالف الثالث قبل الميلاد على اقل تقدير يضفي على آثار المدينة حرمة زائدة ، اذ انها لذلك تعتبر قديمة حتى عندما مر بها ابراهيم فزاره ملكي صادق ، ملكها

---

(١) kenyon , Arch in the holy land p 316

وكاهنها الاعلى يومئذ ، فدعا لابراهيم وباركه ، فأعطاه ابراهيم جزية العشر من كل ما يملك »[١] (تكوين ١٤/١٨ — ٢٠) .

وقد عُثر في القدس وما حولها ، قبل بداية التاريخ بزمان طويل ، على آثار تدل على حياة بشرية ، وذلك بدلالة ما وجد من رؤوس السهام والمقاشط الصوانية ، وكذلك ما وجد من اواني الطبخ في كهف تحت جبل صهيون[٢] .

وقد وجدت ايضاً آثار عمورية وكنعانية ويبوسية ، وهذه كلها عربية الأصول ، تدل على ان موقع المدينة كان مسكونا في الألف الرابع قبل الميلاد ، اي قبل نيف والفي سنة من مجيء الإسرائيليين اليها . وهنالك آثار تدل على ذلك ، ولكنها جزئية[٣] .

وتؤيد ذلك بشكل عام نتائج حفريات عالمة الآثار كنيون في كتابها «القدس» (١٩٦٧)[٤].

وقد اكتشفت وثائق في سجلات الحفريات المصرية والأشورية تشير إلى الحياة في القدس اليبوسية في القسم الأول من الالف الثاني قبل الميلاد .

وكان ملكي صادق احد ملوك القدس ، وهو الذي ، فيما يبدو ، وسع بناء المدينة ، وأطلق عليها اسم « يبوس » . وقد ورد هذا الاسم العربي في التوراة في اكثر من آية . ففي الآية ١٠ من الإصحاح ١٩ من سفر القضاة : « جاء (رجل) إلى مقابل يبوس . هي اورشليم » . وجاء مثل ذلك في ٤/١١ من سفر اخبار الايام الاولى ، وغيره .

وقالت التوراة ايضاً ان اصحاب يبوس هم « اليبوسيون » الذين قاوموا

---

(١) A. P. Thomas , Arch and old Test . Study p 282

(٢) Ibid, p, 282

٣— kenyon , Arch , in the Holy Land p , 317

٤— Jerusalem , pp, 50 — 55

غزوة الاسرائيين ، إذ جاء في سفر يشوع ٦٣/١٦ : « اما اليبوسيون الساكنون في اورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم ، فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في اورشليم إلى هذا اليوم » .

واليبوسيون ايضاً هم الذين اطلقوا على المدينة التاريخية اسم « اورسالم » ، اي مدينة السلام . وورد في التوراة « ارشالم » او « شالم » فقط ، اي مدينة الاله شالم او قاعدته . وشالم إله من آلهة اليبوسيين . وقد اختفى الاسم «يبوس» عندما احتل داود المدينة وسماها باسمه، « مدينة داود » . والاسم الذي يستعمله اليهود اليوم ، وهو « اورشليم » ، اسم عربي الاصل ايضاً ، ورد في نقش مصري قديم يرجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد »[١] . وقد ورد الاسم « اورسالم » في لوحة من الواح تل العمارنة ، موجودة في المتحف المصري بالقاهرة[٢] ويرجع تاريخ هذه الالواح إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، اي قبل دخول العبرانيين إلى فلسطين .

وفي التوراة اشارة إلى ان الاسرائيليين لم تكن لهم علاقة بنشوء القدس ، وانهم كانوا يرون انفسهم غرباء عنها . ففي نحو سنة ١١٥٠ ق.م. ، حين كان بعض الاسرائيليين قد دخلوا إلى فلسطين بقيادة يشوع ، ولكنهم لم يكونوا بعد قد دخلوا إلى القدس ، كان رجل اسرائيلي وامرأته وغلامه الاسرائيلي ايضاً مسافرين ذات يوم ، فأدركهم الليل . وهنا تقول التوراة بالحرف : « وفيما هم عند يبوس (القدس) والنهار قد انحدر جداً قال الغلام لسيده **تعال نميل الى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها ، فقال له سيده لا نميل إلى مدينة غريبة لا احد فيها من بني اسرائيل** » .

وكان قد مضي على وجود المدينة اليبوسية ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة

---

(١) بلادنا فلسطين ، ص ٣٩٦

٢ – القدس ، الدكتور حسن ظاظا ، ص ٧ .

قبل هذه القصة ، وهذا اذا استثنينا امكان وجود العرب في نواحي القدس قبل ذلك بآلاف اخرى من السنين .

ومع ذلك فلليهود دعوى في تسمية المدينة ، إذ هم يقولون « ان سالم بن نوح قد سماها « شلم » اي السلام وان ابراهيم قد سماها « يرأه » بمعنى الخوف، فقرر الله ان يسميها بالاسمين جميعاً « يرأه – شلم » اي « اورشليم » بمعنى الخوف والسلام »[1] . والدعوى اسطورية كما ترى .

اما قدسية المدينة فكانت قد اصبحت عقيدة راسخة مئات السنين قبل دخول العبرانيين اليها . فقد كان فيها بيت لاله اليبوسيين الاعلى قبل ان يمر بها ابراهيم بمئات اخرى من السنين وفي التوراة اشارة إلى هذه القدسية التي وجدوها عند مجيئهم ام إلى قدسية « بيت يهوه » الذي بني على مثال « بيت بعل » فالامر متشابه ، لكن الحقيقة تبقى ، وهي ان هذه القدسية كانت قائمة عند اليبوسيين العرب قبل دخول العبرانيين .

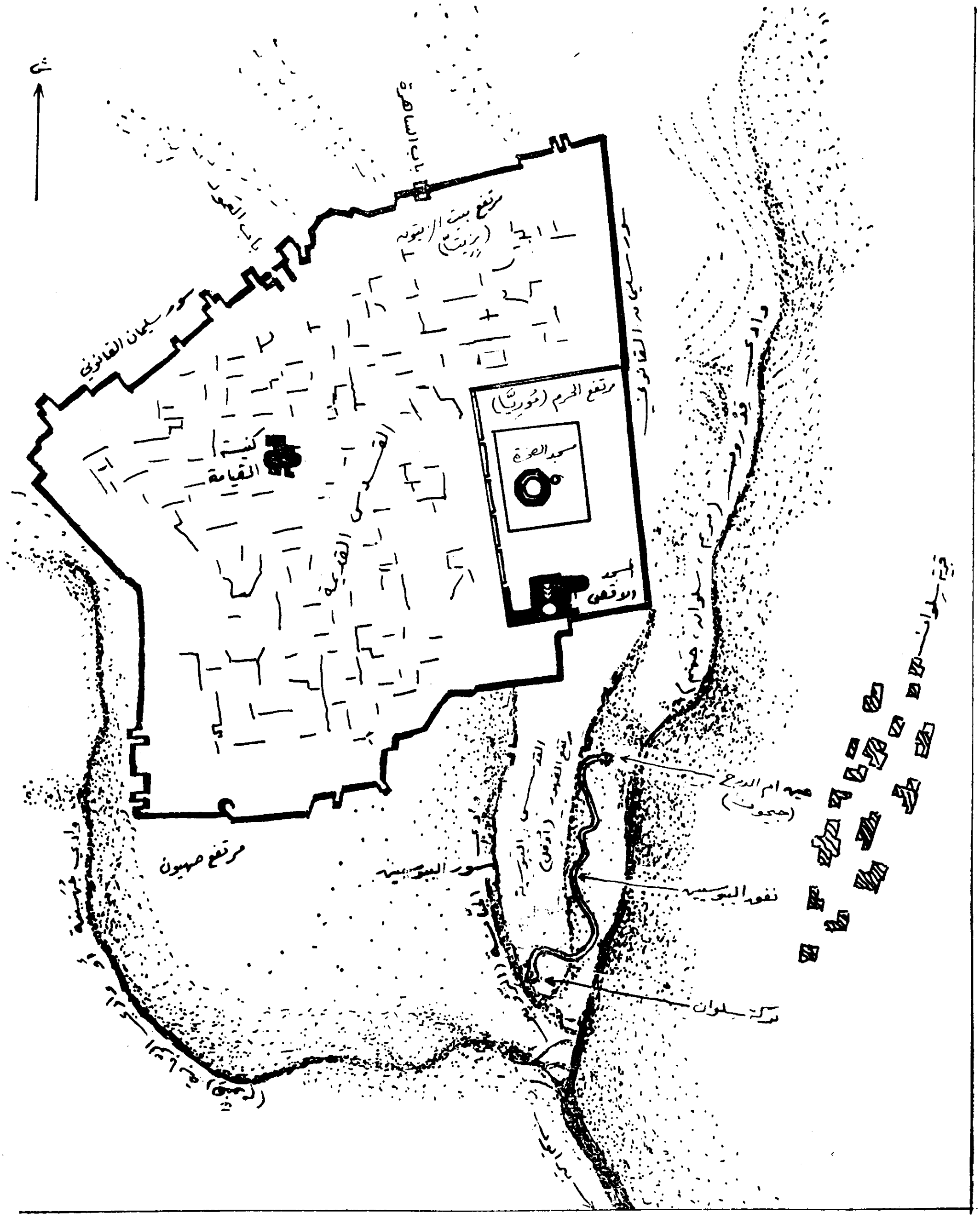
معالم القدس التاريخية

وتقع القدس على مرتفعات اربعة هي مرتفع ساحة الحرم (موريا) من الشمال الشرقي ومرتفع بيت الزيتون (بزيتا) بين باب الساهرة وباب حطة من الشمال ، ومرتفع الضهور (اوفِل) جنوب ساحة الحرم ، ومرتفع (صهيون)[2] من الجنوب الغربي .

---

(١) حسن ظاظا ،القدس ، ص ٩.

(٢) تنتسب « الصهيونية » إلى « صهيون » ومن المفارقات المحزنة أن هذا الاسم كنعاني سابق لوجود الاسرائيليين ، وهو اسم للمرتفع (انظر ما كتبه الاستاذ ماكنزي في دائرة المعارف البريطانية لسنة ١٩٦٣ ، في مادة zion ، وصهيون ليس وقفاً على القدس ، بل كل مرتفع كنعاني مقدس كان يدعى صهيون . ويحمل جبل حرمون (الشيخ) تسمية صهيون ، كما ورد في التثنية (٤/٤٨) كما هناك قلعة مرتفع صهيون في شرقي اللاذقية (انظر ما كتبه الاستاذ يوسف الحوراني في ملحق النهار ١٠/١٠/١٩٧١ ، ص ٧).



القدس التاريخية ، اليبوسية ،

والقدس القديمة

بنى اليبوسيون العرب مدينة القدس التاريخية على مرتفع الضهور ، اوفل ، في نحو ٤٠٠٠ ق.م. وفي سنة ١٠٠٠ ق.م. افتتح داود هذه المدينة فدخلها بذلك اليهود لاول مرة في التاريخ وبعد سنة من ملك داود وسليمان تجزأت مملكة القدس .

وتشير نتائج الحفريات إلى ان القدس اليبوسية أسست على مرتفع الضهور (انظر شكل ص – ١) ، ويبتعد نحو ٢٠٠ متر جنوب سور الحرم الحالي .

وكانت القدس مسوّرة محصنة ، منذ ايام اليبوسيين . وتحيط بها الأودية من سائر جهاتها ، إلا الجهة الشمالية ، وهذه يمكن الدفاع عنها بسهولة . فموقع المدينة استراتيجي دفاعي بعيد الى الغرب قليلا عن الطريق الرئيسي الذي يصل فلسطين بمصر ، ولكن المدينة تقع على كل حال تقريباً على مفترق طرق التجارة القديمة بين الخليل ونابلس ، وبين غربي فلسطين وشرقيها ، عند اريحا . وقد امتدت المدينة ومملكتها ايام اليبوسيين إلى حدود رام الله الحديثة من الشمال وانحدرت إلى بعض الاماكن السهلية من الجهات الاخرى .

وكانت القدس تستقي من عين ام الدرج (جيحون او مريم) ، وتقع هذه في الوادي شرقي جنوب القدس . وقد حفر اليبوسيون نفقاً منها إلى المدينة ليتمكنوا من الاستقاء في حالات الحصار . ويقال إن داود فتح المدينة بالعبور من هذا النفق ، وذلك بعد أن أعياه حصارها .

ولم نجد ما يشير إلى عدد سكان القدس زمن اليبوسيين ، ولكن يمكن القول من مساحتها وعادة السكان آنئذ في بناء البيوت متلاصقة ، بأن عدد السكان بلغ خلال الالف الثاني قبل الميلاد ، نحو ثلاثة آلاف نسمة . وكانت مساحتها آنذاك نحو ٤٠ دونماً [١] . على ان هذه المساحة قد اتسعت كثيراً فيما بعد [٢] .

الآثار الاسرائيلية

وعلى الرغم من ان حفريات اثرية عديدة قد تمت في القدس خلال مائة السنة الماضية ، فانه لم توجد فيها آثار اسرائيلية تذكر . والارجح ان سبب ذلك هو ان المملكة اليهودية فيها لم تعمر طويلا . يضاف اليه ان العبرانيين عندما أقاموا

---

١ – kenyon, jerusalem, p.30.

٢ – من اجل مزيد من التفصيل عن القدس ، راجع كتابنا ، القدس العربية .

ملكهم كانوا بدائيين لا حضارة لهم ولا عمران ، ولذا فان ما وجد لهم من آثار لا يزيد على ترميم السور اليبوسي نفسه وعلى درج حجري يرجح انه هو الذي كان يدعى « درج داود » ، (وليس من الضروري ان يكون داود قد بناه) . وقد ورد ذكر « درج مدينة داود » هذا في التوراة (نَحَميا ١٢/٣٧) وموقعه في القسم الجنوبي الشرقي من المدينة ، على مرتفع اوفل ، وعلى مكان « حصن داود » الذي يشير الناس الآن إلى انه قائم عند الزاوية الغربية الجنوبية من القدس ، في حين انه كان في الحقيقة قائماً على مرتفع اوفل ، في الجهة الجنوبية من ساحة الحرم ، اي في مدينة القدس اليبوسية القديمة . والواقع ان داود عندما احتل الموقع (حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م.) اقام في يبوس نفسها ، اي على مرتفع اوفل ، ولم يتوسع في بناء المدينة او السور بعدئذ . وإذا كان حقاً قد بنى لنفسه قصراً كما تشير التوراة فيكون قد بناه في الجهة الجنوبية من اوفل. اما «البيت الاعلى » الخاص بالملك والمشار اليه في سفر نحميا (٣/٢٥) فيجب ان يكون قد بني على الجهة العليا ، وهي الشمالية . على ان بعضهم يرجح ان داود لم يبن قصراً على الجهة العليا وان المقصود هو مجمع ابنية يمكن ان يكون الملك سليمان قد اقامه هناك ، اي شمالي مرتفع اوفل ، وذلك استنباطاً من وجود حجارة نظيفة وعوارض قوية متساقطة ومتناثرة عند اسفل المرتفع من الشرق عند عين ام الدرج وليس من مشاهدة اي اثر حقيقي لذلك « المجمَّع » .

اما الدكتورة كنيون فتقول في معرض الكلام عن حفرياتها الحديثة في القدس (١٩٦١ وما بعدها) انه لا اثر لأية ابنية يمكن ان يقال انها بقية مما سمي مدينة داود[١] .

وبلغة كنيون حرفياً :

---

١ – jerusalem, p 51

« ان الأدلة الاثرية والأدبية التي توافرت لدينا إلى الآن تشير إلى ان داود استولى على المدينة اليبوسية ثم اتخذها عاصمة له ، ولكنه لم يضف اليـــها شيئاً » [١] .

وتستمر كنيون بلغة حانية كأنها اعتذار عن ان الحفريات لم تلب شيئاً من المطلوب ، وهو العثور على آثار إسرائيلية فتقول :

« قد يبدو مخيباً للآمال ان لاتكشف الحفريات عن اي اثر لابنية من مدينة داود » [٢] .

ثم تؤكد ايضاً بأنه لم يبق اي اثر لاي بناء من عهـد سليمان ، وتوضح ان هيرودوس الكبير اقام ساحة واسعة شمالي مرتفع اوفل وان هيكل سليمان ربما كان موقعه تحت هذه الساحة ، اي على القسم الشمالي من مرتفع اوفل ، وان الهيكل كان جزءاً من ابنية متراصة . وهي تؤكد على كل حال ان هيكل سليمان قد دمر تدميراً تاماًواندثر ببناءهيكل هيرودوس ولم يبق له اي اثر[٣] . وتعلل ذلك بأن الابنية القديمة المبنية من الطين كانت اذا طمرت تتحول الى تراب فلا يبقى لها اثر ، والمبنية من الحجارة كانت تضيع لان حجارتها تتساقط ويستعمل اكثرها في ابنية جديدة .

والحائط الغربي لهيكل هيرودوس ، الذي يسميه اليهود حائط المبكى ، شأنه شأن هيكل سليمان كله ، اي لم يعثر له على اثر بطبيعة الحـال . وبحسب نظرية الدكتورة كنيون عن خراب الهيكل ، وعن الابنية اذ ذاك وما يقع لها، فانه لا يؤمل ان يعثر للهيكل على اثر ، مطلقاً ، وان كانت تشير الى ان اصل مكانه كان يقع تحت مسجد الصخرة .

و « حائط المبكى »، الذي يدعي اليهود بأنه جزء من الحائط الغربي الحالي للحرم الشريف ، اي حرم المسجــد الاقصى ، ومسجد الصخرة ، نظرت في

---

١ – Ibid p 50 ، ٢ – Ibid, p51 ٣ – Ibid, p55

موضوعه كله كما هو معلوم لجنة دولية مشهورة سنة ١٩٣٠ واصدرت قرارها الذي وافقت عليه آنذاك الحكومة البريطانية وعصبة الامم ، والذي نص على ان « للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي » ، وان « حائط المبكى بالذات اثر اسلامي مقدس ، وانه بكل حجر ومدماك فيه طولا وعرضاً ، بما فيه الرصيف المقابل والمنطقة الملاصقة له داخل أسوار المدينة القديمة ، ملك عربي ووقف اسلامي خالد وان لا حق اطلاقاً لليهودية في ملكية اية ذرة من ذراته وان كل ما لليهودية هو « حق » الزيارة إلى الحائط ليس الا »[1] .

وقد نشر الاستاذ رفيق وفا الدجاني المساعد الفني لمدير الآثار الاردنية تحت عنوان « لماذا تحفر إسرائيل حول سور الحرم ؟ » ما يلي :

« ما ان استولت اسرائيل على القدس في حرب حزيران ١٩٦٧ حتى سارعت الى عمل حفريات حول حائط الحرم الغربي والجنوب الغربي — لماذا ؟ لأن الحفريات الاثرية التي قامت بها المدارس الاثرية والتبشيرية في القدس منذ سنة ١٨٦٤ وحتى ١٩٦٨ قد عجزت عن العثور على أي برهان اثري من آثار الهيكل داخل اسوار مدينة القدس القديمة .

« وقد يسأل البعض ، وهل عثرت إسرائيل على آثار من عهد الهيكل في حفرياتها هذه ؟ والجواب كلا ، واقول بتأكيد لن تعثر على آثار من عهد الهيكل أو زمن سليمان أو داود داخل المدينة القديمة لانه قد سبق وحفر قبلها في نفس المكان الذي يحفر فيه الآن كل من السير شارل وارن وروبنسون وولسون وباركلي المبشر الامريكي والمدرسة البريطانية الاثرية في القدس ودائرة الآثار الاردنية ومدرسة اللاهوت الفرنسسكانية . وقد وصل الحفر مع بعضهم للصخر وكشفوا عن مداميك حائط البراق وباب مسجد البراق وقوس روبنسون

---

١ — وليد الخالدي ، الحق العربي في حائط المبكى في القدس ، منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٨ .

ولسون والعقود والاقواس التي كان السير شارل ولسون قد كشف عنها تحت المحكمة الشرعية القديمة قرب باب السلسلة والتي ارجع تاريخها السير شارل ولسون وفيرغسون إلى القرن الخامس والسادس اي العصر البيزنطي »[1] . (انتهى حديث مساعد مدير الآثار الاردنية)

... وعاشت القدس حياة المدن الكبرى ذوات القواعد الملكية على النحو الذي مر معنا في مدن الكنعانيين ولم يكن رعايا القدس جميعاً من الحضر ، بل كان يتبعها ايضاً جماعات من القرى الصغيرة وبيوت الشعر . ويروي المؤرخ برستد كيف كان المرء يرى هؤلاء التابعين من الرعاة ومواشيهم على التلال المرئية من مرتفعات المدينة .

وكانت مملكة يبوس في العهد الاخير من ايامها تابعة للفراعنة الذين مدوا سلطانهم إلى نواحي واسعة من فلسطين وسورية ، منذ بداية عهد السلالات (٣٢٠٠ ق.م.) الى عهد داود وسليمان (١٠٠٠ ق م.) وما بعده . لقد كانت يبوس للمصريين القلعة الامامية لحماية طرق التجارة ، ولذا كانوا يهتمون بها ويحاولون باستمرار بسط نفوذهم عليها .

وقد بلغت القدس في حضارتها ما بلغته المدن الكنعانية الاخرى في فلسطين. يضاف الى ذلك درجة خاصة من التطور الديني .

ويبدو ان ملك اليبوسيين في القدس وما حولها قد دام نحو ١٥٠٠ سنة ، على اقل تقدير .

وفي أواخر عهد اليبوسيين هاجم العبرانيون بعض نواحي فلسطين، وكانت جزءاً من ارض كنعان آنئذ ، فبعث عبدحيبا حاكم القدس (في نحو ١٣٥٠ق م.) إلى فرعون مصر برسائل كتبت بالخط المسماري وباللغة البابلية على ألواح من الطين . وقد ارسلت هذه إلى امنحوتب الثالث ثم الرابع (آخناتون) . وكان

---

١ – جريدة الدستور عمان ٢٦/٧/١٩٧٠

وكان عدد الرسائل ثماني هي من جملة الواح « تل العمارنـــة » المشهورة التي اكتشفت في صعيد مصر سنة ١٨٨٧ ، فاستخلصت منها حقائق هامة عن تاريخ فلسطين في ذلك العهد .

وقد صمدت القدس اكثر من مائتي سنة في وجـــه الغزاة العبرانيين الذين اجتازوا نهر الاردن من الضفة الشرقية واحتلوا اريحا حوالي سنة ١٢٦٠ ق.م. ولم يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة إلا في عهد داود حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م. وعلى الرغم من الاحتلال الاسرائيلي فان اهل البلاد الاصليين من يبوسيين وكنعانيين وغيرهم ظلوا قائمين في الارض يستوطنونها ويعمرونها ، ويقاومون المحتلين كلما سنحت لهم فرصة ، حتى زالت المملكة التي اقامها الغزو العبراني لفلسطين .

الفصل التاسع

ابراهيم وقدومه إلى القدس وفلسطين

يَعتبر اليهود ابراهيم أباهم الأول . وتذكر التوراة انه كان « عبرانيـــاً » . وهو جد يعقوب (إسرائيل) الذي يعتبره اليهود أباً للأسباط (القبـــائل) الاثني عشر الذين تحدروا منه ، بمـن فيهم يوسف الذي عمل وزيراً لفرعون مصر . وهذه الأسباط هي التي يذكر اليهود ان سائر شعبهم تناسل منها وتفرع.

وتذكر التوراة أيضاً أن الرب « وعد » ابراهيم ان تكون « أرض كنعان » ملكاً له ولذريته . وقد وقعت أجزاء من فلسطين بحدودها الدولية الحديثة ، وبخاصة الشمالية ، ضمن هذه الأرض .

لهذا تكون حياة ابراهيم وموضوع الوعد الإلهي ، وبيان علاقـــة ابراهيم بفلسطين وسكانها ، ذات أهمية خاصة في موضوع كتابنا هذا .

وقد وردت قصة ابراهيم في مراجع دينية وتاريخية عديدة ، ولكن أقدمها وأكثرها تفصيلا هو التوراة . وقد جاء أول ذكر لابراهيم في القسم الاخير من الاصحاح الحادي عشر من سفر التكوين . فابراهيم في هذا السفر خرج من اور الكلدانيين في جنوبي العراق . واسم أبيه تارَح . وتارح من أولاد سام . وسام أحد أبناء نوح الثلاثة ، سام وحام ويافث . وهؤلاء هم الذين نجوا في الفلك مع

أبيهم وعائلته والحيوانات التي احتملها معه يوم وقع الطوفان فأغرق الأرض ومن عليها (تكوين ٧–٦) .

وتستطرد رواية التوراة فتقول: « وأخذ تارح ابراهيم (ابرام) ابنه ، ولوطاً ابن ابنه ، وساراي (سارة) امرأة ابراهيم ، فخرجوا معاً من اور الكلدانيين ليذهبوا إلى ارض كنعان . وكانت أيام تارح مئتين وخمس سنين ، ومات تارح في حاران » . (تكوين ١١/٣٠) .

وحاران هذه هي حُران (الرّها) التي تقع شمالي سورية ، وتعرف بهذا الاسم إلى اليوم . وتنقل ابرهيم ومن معه من أهله وجماعته ومواشيه يطلب لها الرزق والمرعى في سورية ، ثم انتقل إلى أرض كنعان (فلسطين) . وكان ذلك حوالي سنة ١٩٠٠ ق.م. ، وهو تاريخ لا يتفق عليه المؤرخون .

ومر ابراهيم أثناء ترحاله هذا بالمنطقة الوسطى من فلسطين ونزل في (شكيم) ، وهي بلاطة المجاورة لنابلس الآن . وكان الكنعانيون يومئذ قد مضى على وجودهم في البلاد ما ينيف على الف سنة إذا نظرنا إلى موجتهم الكبرى (ص١١) ، وأكثر من ذلك بآلاف السنين إذا نظرنا إلى موجات الهجرة السابقة . وفي التوراة نفسها أن ابراهيم « اجتاز في الارض إلى مكان شكيم وكان الكنعانيون حينئذ في الارض » (تكوين ١٢ – ٧) .

ومن نابلس انتقل ابراهيم إلى جهات رام الله والقدس . وتستمر الرواية في القول بأنه مر بالخليل أيضاً ثم ببئر السبع التي استقر حولها زمناً . ثم ارتحل إلى مصر هو وعائلته على أثر قحط أصاب البلاد . وكانت سارة امرأة ابراهيم في رواية التوراة « جميلة جدا » ، فحُملت إلى قصر فرعون مصر آنذاك ، فتنازل له ابراهيم عنها ، ذاكراً انها اخته لا زوجته . وأجزل فرعون العطاء لابراهيم بسبب سارة « وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال » (تكوين ١٦/١٢) .

وتقول الرواية إن فرعون اصيب بمرض عجيب بسبب وجود سارة عنده ،

فقال لابراهيم : « لماذا لم تخبرني انها امرأتك » ، وأعـــاد له زوجته وأمره بالخروج من البلاد مع امرأته وسائر امواله . فخرج هو وامرأته وجمع محدود من الناس ، وحمل معه جميع ما يملك ، واصطحب معه جارية اسمها « هاجر» وفي رواية انها ابنة الفرعون او احدى بنات الامراء .

وعاد ابراهيم بعد غيبة قصيرة إلى ارض كنعان ، فمر بجوار غزة«وتحالف» مع اميرها (أبي مالك) . وتستطرد رواية التوراة فتقول إن أبا مالك هذا طمع ايضاً بسارة فبقيت عنده مدة من الزمن ، ثم ردها لابراهيم بعد أن «أخذ أبو مالك غنما وبقراً وعبيداً وإماء واعطاها لابراهيم » ، (تكوين ٢٠–١٤)، كما أعطى اخا سارة « الفاً مــن الفضة » ، ثم تجول ابراهيم في جنوبي فلسطين بين بئر السبع والخليل ، ثم صعد الى القدس (اورشليم) اليبوسية .

وضاقت الارض بابراهيم ، وابن اخيه لوط ، لجدبها وقلة زرعها ، او ، بحسب رواية التوراه ، لانهما لم يقدرا عـــلى السكن معاً ، بسبب ان الارض ضاقت بأملاكهما ، او لأن رعاتهما اختصموا ، فاقتسما مراعي البلاد ، فهبط لوط الى جنوب البحر الميت وبقي ابراهيم في جبال القدس والخليل .

اسماعيل واسحق

وتستطرد رواية التوراة بأن ابراهيم ظل بلا اولاد،لأن ساره كانتعاقراً. فدخل إبراهيم بجاريته هاجر المصرية « باذن من سارة ، فولدت له اسماعيل . وثارت الغيرة بين سارة وهاجر فأخذت هذه تتيه على سارة، لأنها عقيم،وتزري بها متفاخرة بأنها (أي هاجر) أميرة وانها ليست عقيما مثلها . فحملت سارة إبراهيم على إبعاد اسماعيل وامه . وبحسب نص التوراة قطع الرب عهـــداً مع إبراهيم ، فاختتن وغير اسمه من ابرام إلى إبراهيم ، كما غير اسم ساراي إلى سارة (أي أميرة) ، كما أراد الرب أن لا تبقى عقيما ، فحملت وولدت لهاسحق وكان ذلك بعد ثلاث عشرة سنة من مولد اسماعيل واختتانه .

ومع ذكر إرادة الرب هذه بأن لا تبقى سارة عقيما تورد التوراة رواية حمل

سارة وسط قصة عن زيارة قام بها ثلاثة رجال لابراهيم « عند بلوطات ممرا » ، فسألوا عن سارة فقال لهم إبراهيم « ها هي في الخيمة ». فقال أحدهم لابراهيم « اني أرجع اليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن . وكانت سارة سامعة في باب الخيمة ... فضحكت ... في باطنها » ، (تكوين ١٨/٩–١٢) .

وتقول التوراة : « وكان إبراهيم ابن مئة سنة حين ولد له اسحق ابنه ... ورأت سارة ان ابن هاجر المصرية الذي ولدته لابراهيم يمزح ، فقالت لابراهيم أطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني اسحق ... فقال الرب لابراهيم... ابن الجارية أيضاً سأجعله امة لأنه نسلك » . « تكوين ٢١/٥–١٣» .

وتوفيت سارة ، فتزوج إبراهيم بعدها بامرأتين من بني كنعان . ثم توفي . وقد نصت التوراة على أنه عاش ١٧٥ سنة ، ودفن في مغارة المكفيلة بجوار مدينة الخليل ، في أرض كان إبراهيم نفسه قد اشتراها من رجل حثي «تكوين ٢٥ – ١٩ » .

ومن هنا نرى ان إقامة إبراهيم في البلاد لم تكن طويلة ، لتكسبه أي حق في بلاد معمورة ، وبخاصة ازاء « غربته » في البلاد ، كما تعبر عنها التوراة ، وازاء حقوق أهل البلاد المقيمين فيها .

والاسلام يعتبر إبراهيم أبا الأنبياء ، وانه دعا إلى وحدانية الله كالوحدانية الإسلامية . أما التوراة فيبدو منها وكأن إله إبراهيم إله خاص بـه وبقومه وحدهم ، وإن كانت بعض التفاسير المسيحية تنسب له التوحيد . والقرآن يعتبره « حنيفاً مسلماً » .

المؤرخون الافرنج وقصة ابراهيم

وفي التعليق العام على حياة إبراهيم يقول المؤرخ ثوردارسون في دائرة المعارف البريطانية : « من المتعذر تكوين صورة واضحة عن حياة إبراهيم أو عن تفاصيل هذه الحياة ... لقد تحدرت الينا قصص التوراة عن إبراهيم من

روايات شفوية ذات صبغة شعرية حماسية . وقد تناقلت الأجيال المتعاقبة هذه القصص وأخضعتها لحاجاتها القبلية وأغراضها الاجتماعية الخاصة . والأرجح ان تكون بعض القصص قد رويت لدعم الروابط الدموية بين القبائل . يضاف إلى ذلك ان ما يروى عن إبراهيم متشابك بقصص اسحق ويعقوب في صورة بسيطة تجمع الروايات كلها في قصة واحدة متكاملة . وتختفي خلف هذه البساطة ولا شك صورة معقدة جداً عن أصول العبرانيين قبل عهد موسى . فما مقدار ما يمكن أن يقال عن ابراهيم كشخصية تاريخية ؟ » [1] .

ومع ذلك فان ثور دارسون لا يشايع الذين يعتقدون أن قصة إبراهيم اسطورة خرافية ، ولكنه يذكر كما ذكر غيره أن إبراهيم كان من طبقة « العبيرو » [2] ، وهي طبقة « العبرانيين » الذين تقول التوراه إن إبراهيم كان منها ، « تكوين ١٤ – ١٣ » .

ويبدو لنا أنه قد يكون في محاولة دعم الروابط الدموية أو خلقها سر كبير من أسرار ربط العبرانيين نسبهم بابراهيم . كذلك يعتبر إبراهيم وعائلته طليعة لظاهرة العبيرو التي أشرنا اليها ، والتي استمرت قروناً طويلة في الهلال الخصيب فربطت بين ابراهيم وموسى ويشوع والجماعات التي تسللت إلى فلسطين كما ربطت التوراة فيما بينها على صورة أوضحت اصول الجماعات العبرية .

ويلفت النظر فيما أوردناه من نصوص التوراة اعمار إبراهيم وابنه تارح وغيرهما كما وردت في التوراة . في هذا الصدد تقول الباحثة الدكتوره كنيون :

« من المحقق أن المرء لا يتمكن من تأليف تاريخ للحوادث على أساس الاعمار المعزوة إلى الآباء « ابراهيم واسحق ويعقوب » ، ولا يستطيع أن يؤمن حقيقة بما قيل من أن عمر إبراهيم كان خمساً وسبعين سنة عندما غادر حران ، ومائة

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، مجلد ١ ، ص ٤٤ مادة Abraham

(٢) انظر ص ٩٩ تالياً .

سنة عندما ولد له اسحق وان إسحق هذا كان عمره ستين سنة عندماولد يعقوب وان عمر يعقوب كان مائة وثلاثين سنة عندما رحل إلى مصر . ذلك لأن الهيا كل العظمية في قبور أريحا تدل على أن معدل العمر في هذه الفترة كان قصيراً . ويبدو أن أشخاصاً كثيرين مـاتوا قبل أن يبلغوا سن الخامسة والثلاثين . وقليل منهم من بلغ الخمسين . إن الارقام الواردة في التوراة إنما تدل على الاحترام الذي كان يشعر به الخلف لاسلافهم من رجال القبـائل الذين عزت اليهم الروايات سنوات زاهرة بالحكمة البالغة »[١] .

أما هـ . ج . ويلز فيقول وهو يلخص قصة التوراه : « يتلو ذلك تاريخ آباء اليهود ومؤسسي أمتهم ، إبراهيم وإسحاق ويعقوب . انهم يصوّرون لنا كشيوخ بدو يحيون حياة الرعاة في البلاد الواقعة بين مصر وبابل . ان دارسي التوراة التوراة يقولون إن نصوصها الحالية جمعت من روايات وترجمات سابقة ... وما يدعى « فلسطين » الآن كان في ذلك الوقت « أرض كنعان » ، يسكنها شعب سامي يدعى الكنعانيين . وهم شديدو القرابـة بالفنيقيين الذين أسسوا صيدا وصور ، وبالعموريين الذين استولوا على بابل وأسسوا الامبراطورية البابلية زمن حمورابي » .

ويستطرد ويلز فيقول :

« وكان الكنعانيون مستقرين في أرضهم أثناء تلك الازمنة ، عندما مرت قطعان إبراهيم ومواشيه في الارض . وتقول قصة التوراة أن إله إبراهيم وعد أن تكون هذه الارض الباسمة ذات المدن الزاهرة ، ملكاً له ولأولاده . وإلى سفر التكوين يجب أن يرجع القاريء ليقرأ هناك كيف أن ابراهيم شك في هذا الوعد ، بشكل صبياني ، كما شك في تبشيره بولادة اسماعيل واسحق . وفي سفر التكوين أيضاً يجد القاريء ، حياة اسحق ويعقوب ، الذي تغير اسمه الى اسرائيل وحياة أسباط بني اسرائيل الاثني عشر »[٢] .

---

(١) Arch . in the Holy Land , P . 194

(٢) H, G Wells, the Outline of Histoy, pp 254—5

ونحن لا نستطيع أن نغفل عن القول بأننا لا نرى في تنقلات ابراهيم اكثر من رحلة عادية قام بها رئيس عائلة كما كان يقوم غيره . رحلة بدأت من مكان في الهلال الخصيب ، ومرت بالاراضي الخضراء من قوسه المستدير ، طلباً للماء والمرعى . ولا تمنحه رحلته العابرة تلك أي حق في أرض فلسطين وهو عنها غريب . **والواقع انه عندما قضى نحبه بجوار الخليل لم تدع هو أو غيره ملكية في أرض منحها له الرب ، وانما اشترى بماله الخاص الرقعة الضيقة التي ووري فيها .**

وعد الرب لابراهيم

ولا نترك الحديث عن ابراهيم قبل أن نلفت النظر بصورة خاصة الى هذا « الوعد » الذي تكرر في التوراة لاسحق ويعقوب (تكوين ١٢–٧و١٧–١٨) والصهيونيون كما نعلم يستغلون هذا الوعد استغلالا واسعاً ، ولذا سنفرد له بحثاً خاصاً في فصل قادم هذا الكتاب .

الفصل العاشر

الشعوب الأجنبية في فلسطين والقدس

مقدمة

تاريخ الحضارة القديم حتى ما يقرب من سنة الألفين قبل الميلاد كان يشغله في غربي آسيا الشعوب العربية الاصول، وحدها تقريباً ، وذلك في قلب الجزيرة العربية والهلال الخصيب ووادي النيل وأطراف من البلاد التي امتدت اليها تجارة العرب وحضارتهم في افريقيا الشمالية ، ما عدا بقايا « انسان فلسطين » القديم و « انسان البحر المتوسط » التي ذابت في خضم السكان العرب في هذه البلاد وفيمن أضيف اليهم من قلب الجزيرة .

فالكلدانيون والاشوريون والبابليون في العراق ، والعموريون في العراق وسورية وفلسطين ، والكنعانيون في سورية وفلسطين ، وغيرهم ممن تأثروا بهم في شرق البحر المتوسط وشمالي افريقيا وجنوب اسبانيا ، ألفوا « جبهة حضارية » ترفدها مصادر الثروة الجنوبية في شمالي بلاد العرب .

هذه الجبهة الحضارية ناهضتها جبهة حضارية مقابلة ، وهي جبهة الشعوب الهندية الاوروبيه « الآرية » . وقد كتب على هذه الجبهة في التاريخ ان تنافس الجبهة العربية منافسة مستمره لا تهدأ ولا تلين .

وكما أن طلب الماء والمرعى، والاقامة في المدن والقرى ، بغية الحياة الحضرية والاستقرار ، دفعت الشعوب العربية للهجرة من قلب الجزيرة الى أجزاء الهلال الخصيب ومصر ، فإن المطلب نفسه دفع الشعوب الهندية الاوروبية من مواطنها الاصلية الى آسيا الصغرى والهند وفارس في الشرق ، والى اليونان وايطاليا وفرنسا في الغرب. وكانت المواطن الاصلية للشعوب الهندية الاوروبية أرمينيا وشرق بحر قزوين وجنوبي روسيا وآسيا الصغرى .

وتلاقت شعوب هاتين الجبهتين في صفين متقابلين ، صف الشعب العربي ممتداً من العراق والخليج العربي الى المحيط الاطلسي ، وصف الشعوب الهندية الاوروبية من الهند وفارس الى فرنسة . ولما كانت الشعوب العربية قد سبقت غيرها في في سلم الحضارة القديمة وازدهرت بلادها بالعمران والخيرات ، فقد طمعت فيها الشعوب الهندية الاوروبية وناوأتها العداء . وبتعبير برستد : يصبح معظم التاريخ القديم « عبارة عن أنباء نزاع مستمر بين الشعب السامي الجنوبي، الذي جاء أولا من مراعي الجنوب ، وبين الشعب الاوروبي الهندي الشمالي الذي جاء من مراعي الشمال ليتصدى للمدنيات التي يمثلها الشعب الجنوبي »[١] .

في هذه المجابهة تخطت حدود الهلال الخصيب ، بما فيه فلسطين ، من وراء الجبال في الشمال ومن وراء البحر في الغرب ، شعوب غازية منها الهكسوس[٢] والحثيون والحوريون والفلسطينيون .

---

(١) برستد ، ص ١٣٢ وهنالك مجابهات عدة في التاريخ تؤيد نظرة برستد هذه ، منها غزوات الافرنج الصليبيين من اوروبا ، وغزوات التتر من آسيا ، والاتراك من الاناضول ، والافرنسيين والبريطان من اوروبا ، واخيراً الصهيونيين من الغرب . وما تزال هذه المجابهات قائمة ، طمعاً في الثروة ، ولكن بصورة مستترة — امبريالية .

(٢) فضلنا تصنيف الهكسوس مع الشعوب الاجنبية ، على الرغم من ان كثرة المصادر ، وبخاصة القديمة منها ، تنص على ان اغلبيتهم من القبائل العربية الاصول ، لكنه يتبدى اكثر فأكثر ان تكويهنم خليط من اجناس عديدة .

ثم غزاها العبرانيون ، أو العبيرو .

وقد وقعت أحداث هذا الغزو المتتالي ما بين الألف الثـــاني والألف الأول ق.م. ، وإن كانت هنالك أمثلة قليلة تشير إلى مثل هذا الغزو في عهود أقدم من الألف الثاني ق.م. ولكنها غير محققة .

لذلك يقتضينا سياق البحث أن نقدم موجزاً عن تواجد هذه الشعوب القديمة في فلسطين ، ثم زوالها عنها ، لنتابع السير بعدئذ مع العبرانيين الذين غزوا البلاد ثم انتهى امرهم فيها بسرعة ، ومع ذلك فقد كان لغزوتهم تلك نتيجة في التاريخ الحديث لم تكن لمثيلاتها من الغزوات .

الهكسوس .

ويسمونهم عادة « الملوك الرعاة » ، ولكن يبدو الآن ان الاصح تسميتهم باسمهم الآخر وهو « حكام الأراضي الاجنبية ». وهم قوم غامضو الاصول ،ومع ذلك فقد اشتهروا شهرة واسعة في تاريخ مصر خاصة والهلال الخصيب عامة ، ومن ذلك فلسطين نفسها .

ومع أن الهكسوس حكموا مصر والهلال الخصيب وأسسوا في فترة محدودة امبراطورية مترامية الاطراف ، « من النيل إلى الفرات » ، فان هذا الحكم لم يستمر اكثر من حوالي مائة وخمسين سنة ، من ١٧٣٠ — ١٥٨٠ ق.م. تقريباً . أما تواجد الهكسوس في نواحي هذه البلادمتفرقين — ودون حكم — فقداستغرق مدة أطول ، نحو ٦٠٠ عام .

ويوصفون عادة بالبطش والوحشية ، ومع ذلك فقد كانت لحكمهم مظاهر من الحضارة والتمدن .

ويبدو انهم كانوا مزيجاً من قبائل وجماعات عربية وآسيوية من القوقاس وما جاورها ، مثل الحثيين والحوريين وغيرهم من الآريين ، ومن جماعات العبيرو ، الذين تواجدوا في الهلال الخصيب [١] .

---

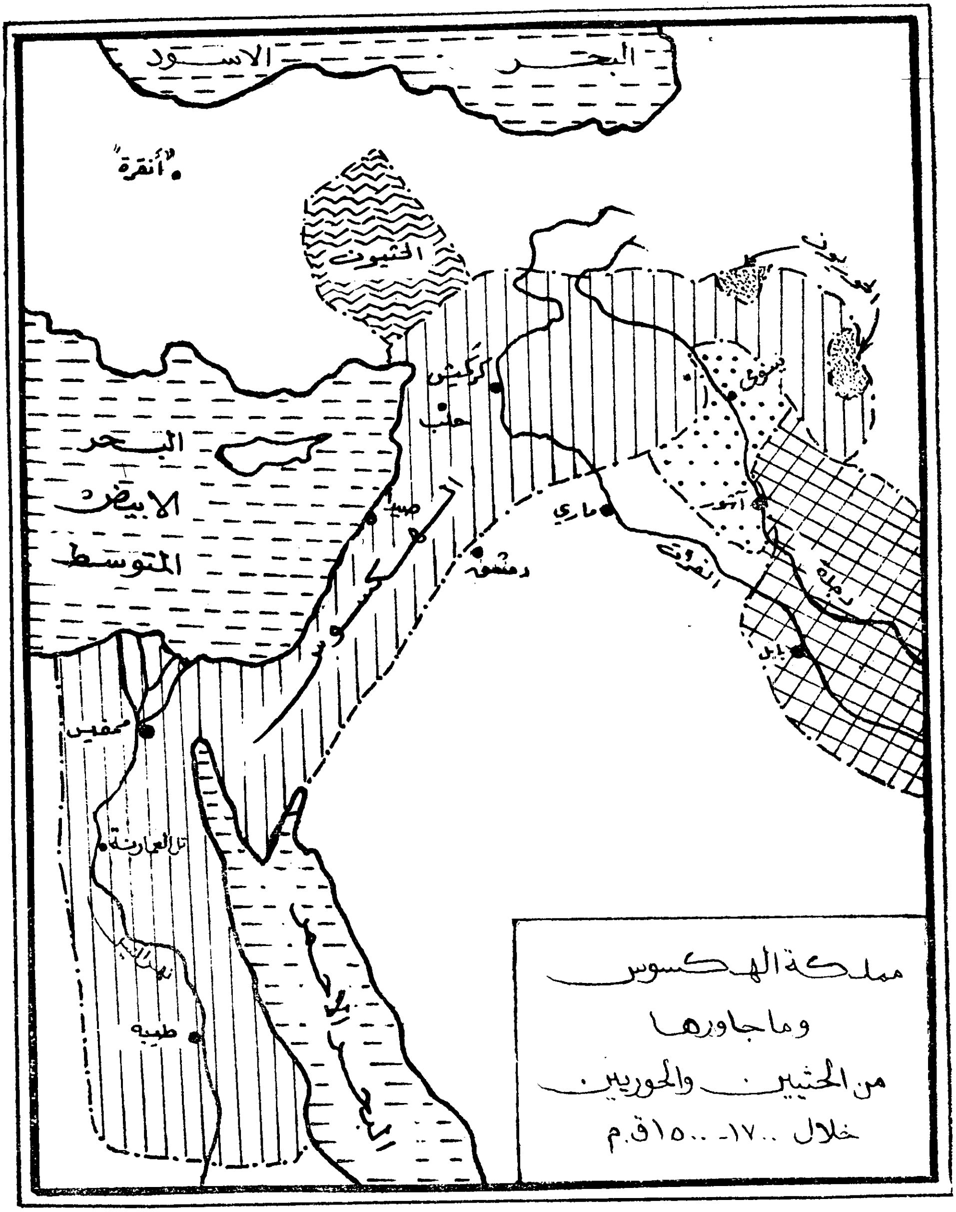
(١) Mitchel, Arch, and old test, study pp, 407—8 ولبنان في التاريخ، ص ٩٠.

والارجح ان الهكسوس تحركوا في غزواتهم جماعات متفرقة ، مبتدئين بالجانب الشمالي الشرقي من الهلال الخصيب ، مارين بسورية وفلسطين ، مستقرين بمصر عن طريق سيناء . ثم انحسرت غزواتهم في اتجاه معاكس ، حتى انتهى أمرهم وذابت جماعاتهم في سكان البلاد التي تواجدوا فيها . ومع ان تحركاتهم الأولى في الهلال الخصيب بدأت في القرن التاسع عشر ق.م.، شاملة مصر كذلك فان دخولهم الكثيف إلى مصر كان في نحو ١٧٥٠ ق.م. وبعد أن سيطروا هناك وحكموا طردوا حوالي سنة ١٥٨٠ ق.م.

ولا تعرف مدة حكم الهكسوس في فلسطين . وقد احتلوا أثناء وجودهم فيها بعض المدن الفلسطينية ، ومنها تل العجول وتل الفارعة جنوب غزة ، وتل جريشة شمال يافا . وعثر في هذه المدن وغيرها على آثار لهم من الفخار وأدوات للحروب والتحصينات ، وادخلوا معهم إلى البلاد عربة القتال التي تجرها الخيول والمنجنيق ، والدروع والرماح وأدوات الحرب الاخرى المصنوعة من البرونز الذي برعوا في صناعته واحتكروها .

وقد اقتبس الكنعانيون في فلسطين عن الهكسوس بعض أدوات الحرب وأساليب التحصين ، فورثوا عربة القتال وأدوات حربية اخرى ، وتمرسوا بها فأدخلوا بذلك الرهبة في نفوس العبرانيين حين حاول هؤلاء غزو فلسطين ، كما ان الهكسوس من ناحيتهم اقتبسوا قدراً لا يستهان به من حضارة الكنعانيين وديانتهم .

ويبدو ان عنصر العبيرو — العبرانيين — هو الذي الف معظم العناصر التي خرجت مع موسى من مصر ، والتي حاربت مع يشوع حين غزا فلسطين ، ثم حاربت مع داود في بادىء أمره. ولقد صادف خروج العبرانيين من مصر وتحرك جماعات من العبيرو في شرقي الاردن ، وهجومها على اريحا والقدس ، صادف ذلك الفترة التي حدثتنا فيها ألواح تل العمارنة عن هذه الجماعات الغازية الفتاكة ، وذلك حوالي ١٤٠٠ - ١٣٠٠ ق.م. ، وهذا يقارب التاريخ الذي خرج فيه جماعة من



العبيرو ضمن جماعات الهكسوس من مصر مطرودين ، والتاريخ الذي هاجم فيه العبرانيون فلسطين فاستجار منهم حاكم القدس آنئذ بمصر (ص ٩٣) .

وبعد ان انتهت سيطرة الهكسوس على مصر عاد الحكم المصري إلى القدس وفلسطين . ولما انحسر هذا بدورة فيما بعد ظل الكنعانيون العرب في الارض .

لأن المصريين كان لهم ممثلون قليلون ، إذ كانوا في الأعم الأغلب يعتمدون حكام البلاد نفسها ممثلين لهم ، كما كان الحال في حالة عبد حيبا حاكم القدس في فترة العمارنة . وظل بعض حكام الهكسوس مع ذلك يمثلون سلطة مصر مدة من الزمن ، حتى بعد إخراجهم من مصر . اما جماعات الهكسوس نفسها فقد توزعت في البلاد وذابت في السكان .

الحثيون

اصول الحثيين الآن أكثر وضوحاً من أصول الهكسوس ، فهم من سكان آسيا الصغرى القدماء . وكانت عاصمتهم إلى الشرق من أنقرة . وقد بدأوا بتأسيس مملكة دامت من سنة ١٧٥٠ إلى ١٤٥٠ ق.م. على وجه التقريب ، ثم توسعت في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، فأصبحت امبراطورية مترامية الاطراف امتدت إلى دمشق في الجنوب وإلى بابل في الشرق الجنوبي . وقد زال حكمهم حوالي سنة ١٢٠٠ ق.م.

ولقد دلت الحفريات الجديدة (١٩٣١) على ان الحثيين هنديون اوروبيون ، يرتدون إلى الألف الثالث قبل الميلاد ، ولغتهم هندية اوروبية التركيب ،لكنهم في الكتابة استعملوا حروف ما بين النهرين المسمارية . وقد عثر في مواطن الحثيين على آثار لتجار آشوريين أسسوا مستعمرة هناك قبل حكم الحثيين انفسهم .

ويبدو ان الحثيين تقدموا من الشمال لغزو سورية تدريجياً ، فاحتلوا حلب ثم قاموا بزحوف وحملات اخرى وصلوا بها إلى جنوب دمشق . وفي سورية اصطدموا بالحكم المصري فناوأوه وتغلبوا عليه . وقد عاونهم على ذلك جماعات من العبيرو فاضطر رعمسيس الثاني (فرعون موسى) إلى مهادنتهم ، وكان ذلك حوالي سنة ١٣٠٠ ق.م.

ولم يمتد حكم الحثيين إلى فلسطين ،ولكن يظهر أن جماعات قليلة منهم سكنت البلاد ، ولكنها ظلت دائماً قلة ضئيلة بالنسبة إلى سكان فلسطين الكنعانيين[١].

---

(١) Gurney, Arch, and old Testament study, p, 114

ويقول الاستاذ الدباغ ان الحثيين نزلوا في الخليل وبيتين ، بجوار رام الله ، وان فلسطين لم تدخل في امبراطوريتهم [١] . ويؤيد غيرني ذلك فيقول « ان كنعان » (فلسطين) كانت دائماً خارج حدود الامبراطورية الحثية [٢] ، ولذا فليس من المحتمل ان يكون اليهود قد اتصلوا بالحثيين في فلسطين . ويعزو بعضهم الانف الاقنى البارز الذي يمتاز به اليهود إلى التزاوج مع الحثيين .

وقد ورد ذكر افراد من الحثيين والحثيات في التوراة ، ومن ذلك « حثا » الذي اعتبرته ابناً لكنعان (تكوين ١٠–١٥) ، وهذا يؤخذ بتحفظ شديد لأن الكنعانيين عرب بينما الحثيون هنديون اوروبيون ، وبينهما بون شاسع في الزمان. وهناك ذكر للحثي « عفرون » الذي اشترى إبراهيم منه حقـــلا ومغارة في الخليل (تكوين ٢٥–٩) ، كما ذكر اسم « اوريا الحثي » الذي اغتصب داود امرأته (صموئيل الثاني ، الاصحاح١) . وجاء ايضاً في سفر الملوك الأول من التوراة (اصحاح ١١ عدد ١) : « وأحب سليمان نساء غريـــبة كثيرة ... مؤابيات وعمونيات وادوميات وصيدونيات وحثيات من الامم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لا تدخلون اليهم وهم لا يدخلون اليكم » .

وتعتبر حضارة الحثيين حضارة متطورة إذا قيست بالمستوى العام الذي ساد ازمنتهم . وكانوا على الغالب زراعيين ، وإن كانوا قد استخرجوا المعادن . وكان اساس مجتمعهم أبوياً (السلطة فيه للاب لا للام) ، وإن ظهرت فيه آثار للامومة ، كما كان مجتمعاً اقطاعياً . وكانوا يدينون بوثنية معقدة ، فعبدوا آلهة متعددة اشهرها إله العاصفة ، وهذا طبيعي لقوم جبليين ، وتذكرنا عقيدتهم في الخطيئة بما ورد في شكوى ابراهيم لربه من ان المصائب قد تحل بالناس من جراء افعال اراذلهم . « أفتهلك البار مع الاثيم » . (تكوين ٢٣/١٨) ، كما تذكر بما قال موسى لربه ايضاً : « اتهلكنا بما فعل السفهاء منا » (سورة الاعراف ١٥٤) .

---

(١) بلادنا فلسطين ، ص ٤١١ .

(٢) Gurney, Arch, and Old Testament study, p. 113

وفي حوالي ١٢٠٠ ق.م. هاجم الفلسطينيون القادمون من البحر جزءاً من ارض كنعان فقضوا على اي اثر للحثيين.



الحوريون

من الشعوب التي انحدرت إلى الهلال الخصيب من الجبهة الشمالية غازية للجبهة الجنوبية (العربية) . وقد زحف الحوريون من مواطنهم الاصلية حول البحر الأسود وارمينيا (انظر الخارطه اعــلاه) نحو الغرب والجنوب إلى ان توقف زحفهم شمالي سورية . وهم على الارجح شعب هندي اوروبي او آسيوي اوسطي، وان كانت اصولهم غير محققة للان .

وقد قاموا بدور لا يستهان به في تاريخ الهلال الخصيب ، وذلك مـا بين ٢٣٠٠ و ١٢٠٠ ق.م. ومع انهم عرفوا قبل بداية الالف الثالث قبل الملاد ،

فانهم لم يتمكنوا من تأسيس مملكة إلا في نحو ١٥٠٠ ق.م. وقد سميت مملكتهم ميتاني ، وامتدت هذه إلى الشرق من حلب و كركميش ، وبمحاذاة نهر الفرات، متجهة إلى الجنوب ، ومشتملة علىجزء كبير من نهر دجلة ، بما فيه مدينتنا أشور ونينوى . و كانت مملكة الحثيين آنئذ تحاذي مملكة الحوريين من الغرب ، في حين كانت ممـــالك الكنعانيين (والفنيقيين) تحدها من الجنوب والجنوب الغربي .

وبالنظر إلى احتواء مملكتهم على جزء كبير من شمالي ما بين النهرين فقـد اطلقت مصر إذ ذاك على مملكتهم اسم « نهارين » .

وبحكم الجوار كان اثرهم في شمالي سورية وما بين النهرين اقوى من اثرهم في فلسطين ، وإن امتد نفوذهم احياناً إلى البحر المتوسط وقد اشتهر من مدنهم نوزي التي تقع جنوب شرقي كركوك بنحو ١٥ كلم . و كانت هذه (نوزي)من حواضرهم الرئيسية .

والحوريون هم الحويون الذين يتردد اسمهم في التوراة كشعب مـن شعوب فلسطين [١] . و كانت جماعات منهم تقيم في نابلس « تكوين ٢/٣٤ » وشمالي فلسطين « صموئيل الثاني ٧/٢٤» ، عـلى ان عددهم ظل محدوداً ازاء عـدد الكنعانيين الذين كانوا دائماً يؤلفون اكثرية السكان ؛ على الرغم من ان المصريين اطلقوا اسم «حور» على المنطقة الفلسطينيةالتي كان للحوريين فيها نفوذ وسكن جماعات من الحوريين في الشراة التي تقع في الجزء الجنوبي من الأردن ، بين وادي الحسا والعقبة . وتذكر التوراة عدداً من بلدانهم ومنها بصيرة الحالية الواقعة بجوار الطفيلة [٢] .

و كان الحوريون كشعب مستديري الرؤوس كالأرمن ، لا مستطيليها كالعرب واسماؤهم هندية اوروبية ، ولا علاقة للغتهم بالعربية أو اصولها ، بل كانت لهم

---

(١) Albright , p 184.

(٢) لانكستر هاردنج ، آثار الاردن ، ص ٢٦ .

لغة خاصة تشبه السومرية او التركية ، ومع ذلك كانوا يستعملون اللغة العقادية التي كانت اللغة المنتشرة آنئذ .

وقد اكتشفت مؤخراً « ١٩٣٠ وما بعدها » ، آثار في نوزي يرتد اصلهاإلى ما قبل ٣٠٠٠ سنة ق.م. ، فوجدت ٤٠٠٠ لوحة اثرية بالخط المسماري يعود تاريخها إلى ١٥٠٠ — ١٤٠٠ ق.م. وتشير هذه إلى جماعات العبيرو كما اشارت رسائل تل العمارنة وغيرها . وتدل الواح نوزي على تأثير الحوريين في العبرانيين بانتقال كثير من عادات الحوريين وشرائعهم الدينية إلى الاسرائيليين الاولين ، ولو بطريق غير مباشر ، وبخاصة إلى طبقة الآباء ، ابتداء بابراهيم .

وفي الاشارة إلى « العبيرو » تذكر الواح نوزي أنهم « غرباء » ، من عقادأو أشور ، أو غيرهما ، وانهم مرتزقة يتعاطون اعمال الخدمة والشغل لدى الدولة او الافراد . ويستخلص من الألواح ان كلمة « عبيرو » مرادفة لـ «مهاجربائس» ويقول مولو وير ان هذا يذكر بكلمة « العبرانيين » في مصر « خروج ٣٠ / ١ — ٦ » و « تثنية ١٥/١٢—١٨ » و « إرميا ٣٤/٩ و ١٤» ، وان التوراة تستعمل هذه الكلمة لتدل على الاسرائيليين ، وعلى أنهم غرباء « تكوين ١٤/١٣— و ٣٩ /١٤ » و « خروج ١/١٥» . وكان العبرانيون أنفسهم يحدثون الآخرين على اعتبار انهم « اي العبرانيين » غرباء .

وفي موضوع التأثير الحضاري يرد العالم مولووير هذا التأثير إلى ان الحوريين عامة وأهالي نوزي خاصة كانت لهم صلات بالشعوب العربية وبخاصة العموريين . وكان قسم من سكان نوزي من العبيرو الذين ارتحل جماعات منهم إلى فلسطين . كما ان غزوة الهكسوس صاحبها زحف من قبائل العموريين إلى فلسطين فاحتملت بذلك عادات وشرائع أثرت بها على الاسرائيليين بصورة غير مباشرة [١] .

ومن الشرائع التي اقتبسها العبرانيون عن الحوريين تعدد الزوجات (تكوين

---

(١) Molioweir arch , and Old Test, Study p . 82

٢٣/٤) ، واتخاذ السراري (قضاة ٩/١٩) و (صموئيل الثاني ٧/٣) ، وسماح الزوجة العاقر لزوجها بأن يستولد جارية له من أجل الحفاظ على النسل (تكوين ٢/١٦) وتوريث الابن الأكبر حصة مضاعفة (تثنية ١٧/٢٧) .

ويقول مولووير وهو يحلل وثائق نوزي الأثرية : « **ان العادات الاجتماعية وكثيرا من التعابير والاسماء الشخصية الواردة في الاسفار الخمسة الأولى وبعض من غيرها في التوراة كانت متداولة في الشرق الادنى خلال الألف الثاني ق.م.** »[١] .

وفي القسم الأخير من الألف الثاني قضى الحثيون على ملك احوريين ، فأفل نجم المملكة الحوريـــة ، وذاب الحوريون في الشعب الآرامي العربي في العراق وسورية ، كما ان من استقر منهم في فلسطين ذاب في الكنعانيين .

الفلسطينيون

نذكر القارىء هنا بما ورد عن الجبهتين المتقابلتين (ص٧٩) ، جبهة الشعوب الشمالية ، وهي الهندية الأوروبية ، وجبهة الشعوب الجنوبية وهي العربية .

فقد زحفت جماعات عديدة من الهنديين الاوروبيين حوالي ١٢٢٥ق.م. من الشمال إلى الجنوب على اليونان ، وجزر بحر ايجه ، الواقعة بين اليونان وآسيا الصغرى ، بما في ذلك جزيرة كريت . وقد أدى هذا الزحف إلى هروب جزء من سكان بحر ايجه بسفنهم في البحر والاتجاه جنوبا بشرق . وقد حاولوا غزو مصر فصدهم المصريون عن غايتهم وحاربوهم في البحر وانتصروا عليهم ، وذلك حوالي سنة ١١٩٠ ق.م. زمن رمسيس الثالث ، فاندفع هؤلاء بعد هزيمتهم إلى السواحل الكنعانية ما بين يافا وغزة .

وكانت جماعات اخرى من الشعوب الهندية الاوروبية نفسها قد غزت ساحل كنعان الجنوبي مباشرة ما بين يافا وغزة أيضاً ، ونزلت هنـــاك ، حوالي سنة

---

(١) Ditto, p 83

١١٨٥ ق.م. فدعي الساحل باسم « فلسطين » ، ودعيت القبائل باسم « الفلسطينيين » . والاسم مشتق من بيليست pelest ، وهو اسم هذه القبائل الاصلي ، التي قيل انها قدمت عن بالستا palaesta او من pelasgian في اليونان . وكان المؤرخ هيرودوت أول من اطلق اسم « فلسطين » بقوله « ذلك الجزء من سورية المعروف بفلسطين » « الكتاب الأول الفصل ١٠٥ » [١] .

وتوسع الفلسطينيون بعد غزوهم الساحل فحاربوا من والاهم من الكنعانيين، واستمروا في حربهم حتى استولوا على معظم الأراضي السهلية الواقعة بين الساحل الذي نزلوا فيه والجبل . وتم ذلك خلال مائة سنة تقريباً . وقد انتصروا على الكنعانيين المتمدنين الأقوياء بسبب استعمالهم أسلحة جديدة من العربات والحديد والخوذ والدروع والرماح ، وبسبب ان غزوتهم جاءت بعد قليل من الوقت الذي غزت فيه القبائل العبرانية فلسطين من الشرق ، فلم يستطع الكنعانيون مقاومة الغزوتين متتابعتين ، وبخاصة ان الحكم عندهم كان في الغالب موزعاً بين المدن المستقلة ، التي كانت كل مدينة منها أو جهة تخضع لحاكم أو ملك ، في حين كانت المدن والقرى الفلسطينية تتحد في وجه الخطر الذي يداهمها ، وكان هذا يكسبها قوة إلى قوتها الناتجة من استخدام الأسلحة الحديثة .

وكان في الساحل الذي اقام فيه الفلسطينيون خمس مدن رئيسية هي اسدود وعسقلان وغزة وعاقر وجات « عراق المنشية » ، وهي بلدان ما تزال قائمة إلى يومنا هذا . ويظهر ان اسدود كانت الحاضرة الرئيسية ، وتقع على افضل الطرق

---

(١) حتى لبنان في التاريخ ، ص ١٠٩ ، وكثير من المظاهر والتسميات واللهجات في تاريخ الشرق العربي القديم ما كان يدل على التقارب والوحدة اكثر من وقتنا الحاضر .

التجارية التي تصل ما بين مصر وسورية والعراق . وكانت سائر هذه المدن داخلية ما عدا عسقلان التي تقع على الساحل .

وقد دلت الحفريات التي تمت في بعض مدن الفلسطينيين على ان الساحل الفلسطيني كان مأهولا بالسكان في الألف الرابع ق.م. ومن ذلك تل العريني وتل ابي هريرة جنوبي غزة . ولا نعلم إلى الآن ما إذا كان هذان الاسمان وما شابههما قد اطلقا في ذلك التاريخ او فيما بعد. ولكن هنالك مايدل على ان بعض السكان تكلموا لهجة عربية اولى منذ ذلك الزمن ، ولكن من غير المؤكد انهم كانوا كنعانيين . على انه لا شك في ان سكان تلك الجهات في الألف الثاني قبل الميلاد كانوا عرباً ، وان اسماء المدن والاشخاص التي ابرزتها الحفريات لتشير إلى ذلك [١] . وتدل رسائل تل العمارنة على ان اسماء معظم الحكام في مدن الفلسطينيين كانت عربية . ويعلل متشيل ذلك بأنه نتيجة الهجرات السامية « العربية » السابقة [٢] .

وكان الفلسطينيون يتاجرون مع مصر وكريت ، وغيرها من جزر اليونان ، وكذلك مع قبرص في الشمال . وكان النفوذ المصري قائماً في البلاد الفلسطينية ، بحيث كان للمصريين مركز اداري رئيسي في غزة وآخر أقل اهمية في يافا ، كما كان لهم حاميات مختلفة في البلاد .

ونسي الفلسطينيون لغتهم الكريتية وتكلموا اللغة الكنعانية ، وعاشوا واقتبسوا طراز حياة الكنعانيين ، كما اتخذوا ديانتهم ، فصاروا يعبدون بعلا وعاشرة ودجن ، وغيرها .

وكانوا مهرة في الصناعة ، واستعملوا الحديد الذي شهدوا الانتقال إلى عصره

---

(١) Mitchel , Arch and Old Testament Study, p, 406—7

(٢) Ibid, p, 409

من العصر البرونزي ، واحتكروا صنعه مدة كما احتكر ذلك الحثيون [١].

وفي القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد بلغت شهرة الفلسطينيين اوجها . وقد حاربوا العبرانيين في منتصف القرن الحادي عشر فهزموهم ، غير ان داود بعدئذ قهر جالوت « طالوت » الفلسطيني ، واستمرت الحروب سجالا بين العبرانيين والفلسطينيين إلى ان دخلت فلسطين كلها بعدئذ في حكم الاشوريين فلم يبق للفلسطينيين سلطان يذكر ، وذابوا في سكان البلاد الكنعانيين والعموريين وغيرهم ، بعد ان طبعوا اسمهم على فلسطين كلها .

---

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ص ٢٠٠.

الفصل الحادي عشر

دخول العبرانيين إلى فلسطين

جاء في التوراة ان ابراهيم عاد من مصر إلى القسم الجنوبي من فلسطين « حوالي سنة ١٨٥٠ق.م. » تاركاً فيها عدداً من جماعته تكاثروا هناك وتناسلوا وعملوا لدى المصريين في الاشغال اليدوية الشاقة عمالا وعبيداً ، حتى ظهر فيهم ، بعد نحو ٥٠٠ سنة ، موسى واخوه هرون ، فطالب موسى قومه بالهجرة إلى فلسطين تخلصاً من المعيشة الضنكة الحقيرة التي كانوا يعيشونها تحت حكم الفراعنة .

ولكن بني اسرائيل كرهوا الخروج من مصر إلى فلسطين « ارض الميعاد » ، واعتبروه عقوبة لهم ، فقالوا لموسى ان « الرب بسبب بغضته لنا قد اخرجنا من ارض مصر ليدفعنا إلى ايدي الاموريين لكي يهلكنا » ، « تثنية ٢٧/١» .

ولما هم موسى بالخروج اوصاه يهوه يومئذ ان لا يخرج هو وقومه منها خالي الوفاض ، بل « تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها امتعة فضة وامتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين » ، « خروج٢٢/٣».

وخرج موسى واخوه من مصر ، حوالي سنة ١٣٠٠ ق.م. ، يقود هجرة الاسرائيليين الذين قيل ان عددهم آنذاك بلغ نحو ستة آلاف نسمة .وكان

معهم خليط من غير الاسرائيليين من الفقراء ، والعبيد [١] . وقد ذكرت التوراة « خروج ١٢/٣٧ » ان عدد من خرج مع موسى كان « ستمائة الف ماش من الرجال عدا الأولاد . مع غنم وبقر ومواش وافره جداً » . وذكرت مراجع اخرى اقل من هذا العدد بقليل ، مما لا يمكن قبوله جميعاً . والأرجح ان يكون العدد الذي اورده بن غوريون في الكنيست « البرلمان الاسرائيلي» جديا ، فقد ذكر ان العدد كان ٦٠٠ « ستمائة » او اقل[٢] لأن مثل هذا العدد هو الذي كان يمكن قيادته وتدبير شؤونه في مثل ذلك الزمان .

وقد رفض جون برايت العدد كما اوردته التوراة ، وبين بالحساب اننا لو قبلنا ذلك العدد « الـ ٦٠٠ الف من ذوي الاعمار العسكرية » لبلغ عددالخارجين ٢ – ٣ ملايين نسمة ، ولما امكن ان تعتني بنساء هذا العدد قابلتان فقط «خروج ١/١٥ – ٢٢ » . ووصف برايت الجماعات التي تألف منها هؤلاء الخارجون بأنها من العبيرو وانها « اشتملت على عبيدمن سائر الاصناف ، تمسك بعضهمبالتقاليد الأبوية « تقاليد ابراهيم واسحق ويعقوب » ولم يهتم بها الآخرون . وقد الفت هذه الجماعات التي خرجت بقياده موسى نواة اسرائيل » [٣] .

واجتاز موسى البحر الاحمر ، وواجه صحراء سيناء القاحلة الواسعة ، فبقي فيها مع قومه اربعين سنة قبل ان يدخل إلى فلسطين . وكان سبب تأخرهمهذا الزمن الطويل في رأي المؤلف اليهودي ايزادور ابشتين: « ان الاسرائيليين كانوا متفرقين بلا رابط ولا ضابط ، وقد انحطت معنوياتهم وضعفت همتهم ولم تكن لهم قدرة على الشعور المشترك والعمل الموحد حتى في الشؤون التي تفيدهم» [٤] .

---

(١) Judaism, p. 16

(٢) The Decadence of Judism, p. 4 (عن النيويورك تايمس ، ١٨ مايس ١٩٦٠)

(٣) Bright, A Hist. of Israel, pp. 120-5

(٤) Judaism, p. 32

ومن المؤكد انه لم تكن لهم دربة عسكرية لمحاربة القبائل والشعوب التي وقفت في وجههم وعارضت مطامعهم في امتلاك البلاد على اساس انهم وعدوها ، وقاومت تقدمهم واحتلالهم . يضاف إلى ذلك انه كان لسكان فلسطين آنئذ في نفوس اليهود رهبة ، فلم ينهضوا لدخول البلاد حين دعاهم موسى الى ذلك ، بل قالوا: « ان فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فانا داخلون » ، « سورة المائدة ، الآية ٢٢ » .

وقد ذكرت التوراة نفسها ان الاسرائيليين خافوا حرب سكان فلسطين من العموريين والعمالقة ، فقالوا لموسى « إلى أين نحن صاعدون ، وقد أذاب اخوتنا قلوبنا قائلين شعب اعظم واطول منا ، مدن عظيمة محصنة إلى السماء . وايضاً قد رأينا بني عناق هناك » ، « تثنية ٢٨/١ » . وكان الكنعانيون في الحقيقة هم سواد سكان البلاد ، كما كانوا يوم مرور إبراهيم بها . وبنو عناق هم عرب العمالقة .

ويبدو ان استعداد السكان للمقاومة من جهة وخوف الاسرائيليين من جهة اخرى ، حمل موسى على الاتجاه شرقاً ، فدخل فلسطين من الجنوب ، واتجه من هناك إلى شرق الاردن ، التي قاوم سكانها من الأدوميين والعموريين عبورهم ، فاضطر موسى ومن معه الى سلوك طريق طويلة إلى خليج العقبة ثم إلى جهات معان ثم إلى مأدبا مارين دائماً بتخوم الصحراء [1] ، وقيل ان موسى توفي في جهات مأدبا ، فقاد يشوع بن نون العبرانيين لدخول فلسطين من حدودها الشرقية ، من اريحا . ويبدو انه أرسل الى المدينة من يتجسس فيعرّفه بحقيقة الوضع فيها قبل مهاجمتها .

أما السياسة التي تروي التوراة أن موسى رسمها لغزو فلسطين واتبعها يشوع حين باشر الغزو فهي :

---

(١) لانكستر هاردنج ، آثار الاردن ، ص ٢٨ .

« اذا أدخلك الرب الهك الأرض التي انت صائر اليها لترثها واستأصل امماً كثيرة من أمـــام وجهك : الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين ، سبع امم أعظم وأكثر منك ، واسلمهم الرب إلهك وضربتهم فأبسلهم إبسالا [1] ، ولا تقطع معهم عهداً، ولا تأخذك بهم رأفة ولا تصاهرهم . ابنتك لا تعطيها لابنه ، وابنته لا تأخذها لابنك لأنهـــا تغوي ابنك عـــن اتباعي فيعبد آ لهـــة اخرى ، فيشتد غضب الرب عليكم ويبيدكم سريعاً ، بل تنقضون مذابحهم وتكسرون أصنامهم وتقطعون غاباتهم وتحرقون تماثيلهم بالنار ، ولأنك شعب مقدس للرب إلهك وإياك اصطفى أن تكون له امة خاصة من جميع الأمم التي على وجه الأرض » (تثنية ٧/١–٧) [2] .

بهذه الروح عبر يشوع نهر الأردن نحو سنة ١١٩٠ ق.م. وبدأ بأريحا فحاصرها ، وما زال بها حتى اقتحم حصونها ودك أسوارها . وتدل الآثار على ان أريحا قد دمرت في تلك الفترة ، والمفروض ان يشوع هو الذي دمرها. وعلى كل حال فان التوراة تنسب اليه ذلك ، وان الرب قال له : « احرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها ، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد اجعلوها في خزانة بيت الرب». ومن الطريف ان يشوع قتل أهل المدينة ، « من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ » كما تقول التوراة ، إلا انه مع استبقاء الفضة والذهب « استحيى راحاب الزانية وبيت أبيها وكل مالها ، وسكنت في وسط إسرائيل إلى اليوم ، لأنهـــا خبأت المرسلين اللذين أرسلهما يشوع لكي يتجسسا أريحا » ، (يشوع ٦/٢١و٢٤–٢٥) .

أما الذين فتح يشوع أريحا بهم فعصابة من « العبيرو » أو العبرانيين ، ويبدو

---

(١) أي أفنهم افناء .

(٢) يلاحظ ان الاسرائيليين ما زالوا حتى هذه المرحلة ، بعد ابراهيم وموسى ، وبعـــد البداية بكتابة التوراة ، (حوالي القرن السادس ق.م) ، مقيمين على ان لهم إلهاً خاصاًبهم، وان لهذا الاله شعباً خاصاً به وظاهر من الوصف ان الههم كان اله حرب .

أن الغزو كان باعداد محدودة مسلحة ، وعلى فترات . ومن المؤرخين من يشك في أمر الغزو ويظن ان الدخول كان تسللا خلال زمن طويل ، ولكن يظل لنصوص التوراة ، وهي دينية ، اثرها في التفكير اليهودي .

قالت الدكتورة كنيون في كتابها حفريات أريحا عن غزوة يشوع وجماعته ما يلي :

« لم يشمل دخول العبرانيين إلى مصر وخروجهم منهـا سائر أسلافهم ... ولقد شكلت أسلاف بعض القبائل على الأرجح جزءاً مـن عصابات العبيرو التي ذكرناها ... ولذلك ليس من الضروري ان نعتقد أن جميع قبائل بني إسرائيل اشتركت مع يشوع في الدخول إلى الأرض الموعودة » .

وبعد أن تناقش كنيون تاريخ غزوة العبرانيين ومـا إذا كانت حوالي سنة ١٤٠٠ ق.م. أو حوالي ١٢٦٠ تقول :

« وعلى أي حال فقـد مرت فترة طويلة (على الغزوة) قبل تأسيس أول مملكة عبرانية ، وهي مملكة داود ، سنة ١٠٠٠ ق.م. ، وهذا يؤكد ان الدخول لم يكن بقوة كبيرة ، وإنما بعصابة (band) صغيرة استولت على الأرض تدريجياً ، ثم جمعت تحت سيطرتها ، تدريجياً أيضاً ، القبائل الحليفة ، أي العبيرو الآخرين ، وذلك على الأرجح بتأثير المعتقدات الدينية . لذلك يجب أن لا نفاجأ حين لا نجد سجلا أثرياً يدل على غزو ضخم عندما تم تدمير أريحا » (١) .

ومن حيث فعالية الهجوم تقول :

« المفروض هو ان العصابات الغازية المحاربة جاءت بأسلوب جديد مـن الهجوم ، اسلوب له من القوة ما يكفي لتمكينها من غزو الأرض ... وذلك على الرغم من قلة عددها » (٢) . وتفترض الباحثة الاثرية ان العصابات كانت تتألف

---

(١) Digging up Jericho, pp 258—9.

(٢) Digging up Jericho, p. 226

من فرسان راكبين أو انها استعملت القذائف أو رمت بالرماح عن الأقواس أو استخدمت المنجنيق .

ومن حيث الدفاع الجديد ضد السلاح الجديد ، تقول كنيون ان المدن سوّرت نفسها بسور حديث يتركب من رصيف يعلوه جدار ، ويسندهما (من الخارج) منحدر زلق يحتاج الزحف عليه صعداً إلى وقت ومشقة قبل بلوغ السور نفسه .

غزو عاي

وأثر التعاليم التوراتية في الأجيال اليهودية

وبعد أن غزا يشوع أريحا تقدم إلى غزو عاي (التل) بجوار رام الله . وهنا قال الرب يهوه ليشوع مباشرة :

« ... تفعل بعاي وملكها كما فعلت بأريحا وملكها ... غنيمتها وبهائمها تنهبونها لنفوسكم ... ويكون عند أخذكم المدينة انكم تضرمون المدينة بالنار ... ودخلوا المدينة واخذوها واسرعوا وأحرقوا المدينة بالنار ... فالتفت رجال عاي ... فلم يكن لهم مكان للهرب ... ولما رأى يشوع وجميع إسرائيل ان الكمين قد أخذ المدينة ... انثنوا وضربوا رجال عاي ... ضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت ... فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر الفاً . جميع أهل عاي ... لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبها إسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذي أمر به يشوع . واحرق يشوع عاي وجعلها تلا أبديا خراباً إلى هذا اليوم » (يشوع ٨/٢-٢٨) .

ومن المعلوم ان الأجيال الاسرائيلية تتعلم التوراة ، جيلا بعد جيل . فلا مانع إذن ، وهذه هي التعاليم ، من اغتصاب الأوطان وإخراج أهلها منها ، بأمر من الرب . وفي سفر يشوع يقول يهوه ليشوع عن السكان . «أنا أطردهم من أمام بني إسرائيل » ، وعن الأرض : « اقسمها بالقرعة لاسرائيل ملكاً » يشوع ٦/١٣) . ثم تمضي التوراة فتقسم أراضي الكنعانيين وغيرهم بين أسباط

اليهود . ومع ذلك يذكر يشوع الاسرائيليين بفضل ربهم الذي قال: «... أعطيتكم أرضاً لم تتعبوا عليها ومدنا لم تبنوها ، وتسكنوا بها . ومن كروم وزيتون لم تغرسوها تأكلون »[١] . (يشوع ٢٤/١٣) .

وقد كانت هذه التعاليم مرجعاً للزعماء الصهيونيين في دفع الشعب اليهودي للقيام بمثل هذه الأعمال ، في وسط القرن العشرين[٢] .

غزو القدس

وبعد أن غزا يشوع وعصابته عاي وجهات رام الله توجـــه إلى القدس (يبوس آنئذ) ، وحاصرها ثم حاول فتحها ولكنه فشل .

وكان حاكم القدس (عبد حيبا) حين بدأ العبرانيون بمهاجمة فلسطين قــد أوجس خيفة ، فاستنجد بفرعوني مصر آنئذ وبعث اليهما برسائل ، كما اشرنا من قبل قائلا :

« ان المنطقة كلها مهددة بالضياع ، فان « العبيرو » ينهبون أراضي الملك كلها ، ويقتحمون سائر المدن... ولو أرسل الملك إلي خمسين جنديا فقط لأمكن كسب الموقف حول القدس »[٣] . لم ينجده امنحوتب الثالث ، ولا الرابـــع (اخناتون) . ويظن بعض المؤرخين أن اخناتون كان منشغلا بمشكلة ديانـــة التوحيد التي نفذ اليها . وان وزيره آنذاك كان ضالعاً مع العبرانيـــين في مصر والخارج ، لأن اخناتون عرف بالحزم داخل مصر ، فـــلم يظهر التراخي خارجها ؟

---

(١) من الغريب ان يقع هذا الان نتيجة (وعد) لليهود أيضاً ، لكنه غير الهي هذه المرة ، فقد وعد بلفور وطناً لا يخصه قوماً لا يخصهم ، وقد رفض الفلسطينيون العرب وعد بلفور ، كما رفض الكنعانيون العرب ، وعد يهوه ، قبل اربعة آلاف سنة .

(٢) انظر الملحق الوارد في آخر هذا الكتاب.

(٣) Bruce, Arch. and Old Test Study, p .6 ، وانظر ص ٩٤ سابقاً.

وقد قاومت القدس الغزاة مقاومة عنيدة . بل وردت في التوراة نصوص تشير إلى مقاومة اليبوسيين والكنعانيين وسائر فئات السكان الآخرين للغزوة العبرية كلها . ان سفر يشوع مثلا يقول : « ثم عبرتم الاردن إلى أريحا فحاربكم اصحاب اريحا الاموريون والفرزيون والكنعانيون والحثيون والجرجاشيون والحويون واليبوسيون » (٢٤/١٠ – ١١) . والمعلوم ان سائر هذه الشعوب عربية الأصول ، ما عدا الحثيين والحويين .

واستعصت القدس على الغازين مرتين [١] . وقد ساعد على ذلك ان اتفق ملكها مع بعض الملوك المجاورين فألقوا جبهة أمام الغزاة وصدوهم ، فكرّ العبرانيون بعد الحصار الاول على أعقابهم خاسرين ، على الرغم من شدة الحصار وشراسته .

ووصف برستد ذلك الخسران بقوله : « **وحين دخل العبرانيون فلسطين وجدوا فيها الكنعانيين يقيمون في مدن زاهرة تطوقها الاسوار الضخمة ، فلم يستطيعوا ان يفتحوا منها إلا المدن الضعيفة ... حتى اورشليم (القدس) هزئت بحملات مهاجميها العبرانيين بضعة قرون** » [٢] .

على ان بني يهوذا ، احد اسباط اسرائيل ، اضطلعوا بعد يشوع بمهمة فتح القدس . والظاهر ان المدينة المقدسة ، حتى في هذا الهجوم الثاني ، لم تفتح كلها مرة واحدة ، وانما احتلت « المدينة السفلى » اولا ، وحالت أسوار « المدينة العليا » دون الغزاة ودون هذا القسم من المدينة [٣] فتجاوزوه إلى الخليل .

وتنص التوراة على هذا الهجوم الذي قام به بنو يهوذا هؤلاء ، وعلى انهم قتلوا « عشرة آلاف رجل » ، وحملوا ملكها اليبوسي (الكنعاني) على الهرب . وقالت انهم اخذوا القدس « وضربوها بحد السيف واشعلوا المدينة بالنار . وبعد

---

(١) Kenyon, Arch. in the Holy Land. p.207

(٢) برستد ص ١٥٥ . Kenyon , Arch . in The Holy Land , P. 207

(٣) Excavations at Jerusalem, Bliss and Dickie P. 286

ذلك نزل بنو يهوذا لمحاربة الكنعانيين سكان الجبل والجنوب والسهل ، وسار يهوذا على الكنعانيين الساكنين في حبرون » . (قضاة ١/٨-٩) .

ويبدو من نص التوراة شيء آخر كذلك ، وهو ان بني بنيامين [1] وكانوا من اليهود الذين سكن قسم منهم في القدس ، « لم يطردوا اليبوسيين سكان اورشليم فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في اورشليم إلى هذا اليوم » (الذي كتبت فيه تلك الأعداد من التوراة) ، (قضاة ١/٢١) .

وبهذه المناسبة فان الأعداد التالية من سفر القضاة تشير إلى بقاء الكنعانيين في الأرض ، على الرغم من استيلاء العبرانيين على بعض الأراضي قوة وعنوة (قضاء ١/٢٨ ، ٢٩ ، ٣١-٣٣) .

وقبل أن نتوسع في بحث غزوة العبرانيين للقدس ولفلسطين نرى ان الوقت قد حان لتقديم لمحة موجزة عن اصل اليهود وعن « العبيرو » المار ذكرهم ، فانه يخيل الينا انهم السر في نجاح غزوة اليهود لفلسطين ، وفي طبيعة الحرب الغريبة التي أضرموها لاحتلال البلاد آنئذ . وما لم نشرح هذه الناحية فان صفات الغزوة اليهودية ، بما لازمها من تقتيل وتشريد واستهتار تظل لغزاً يحير الألباب . ومع أننا نلاحظ ان الحروب القديمة كانت تتسم بالعنف والتدمير ، إلا ان ذلك كان يقتصر في الغالب على المواقع الحربية الأولى ، لضمان الانتصار على العدو وبث شعور الهيبة فيه والهزيمة . أما الغزو العبري فقد كان كله متسما بالعنف ، كما كان متسما بالسلب والنهب ، ثم انه عزي إلى إرادة ربانية لا تصدق .

ومن الواضح ان هنالك توازياً كبيراً بين ما وقع أمس واليوم ، فان الخلط الصهيوني الآبق الغريب ، الذي تهافت من حواشي جنسيات شتى وراء البحار ، والذي تكالب على فلسطين ، ثم الأساليب الهمجية التي اتبعت في العدوان على أصحاب البلاد وإخراجهم من ديارهم ، والاستيلاء على أراضيهم ومزارعهم وبيوتهم ، كل ذلك تصوره الغزوة العبرانية القديمة . ومن الغريب ان يظل هذا الشبه قائماً على الرغم من بعد المسافة — ثلاثة آلاف سنة — وانتشار الحضارة .

---

(١) بنو بنيامين من العبيرو سيأتي ذكرهم فيما بعد.

الفصل الثاني عشر

أصل اليهود

مقدمة

تذكر بعض المراجع التاريخية بصفة عاجلة ان العبرانيين (Hebrews) الذين هاجموا فلسطين كانوا من الساميين الذين خرجوا من جزيرة العرب بين سنتي ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق.م. ويقول المؤرخ فيليب حتي انهم « من الناحية الجغرافية جيران العرب الأقربين » وانهم « من الناحية الجنسية أقرب الشعوب نسباً للعرب »[١]. ويقول ايضاً ان « الشعب العبري القديم كان مزيجاً من شعبين ساميين الواحدمنهما قدم من مصر والصحراء السورية ، والثاني من الشمال بقيادة ابراهيم . وقد دخل في هـــذا المزيج البشري عناصر أخرى غير سامية مـــن حثيين وحوريين وسواهم »[٢] .

---

(١) تاريخ العرب المطول ، ص ٥١ .

(٢) لبنان في التاريخ ، ص١١٣ . وما جاء في صفحة٩٧ من هذا الكتاب أقرب إلىالنظرية الحديثة ، وهو قول الدكتور حتي : « ان العرق الارمني يدخل في نطاقه شعوب قديمة عديدة منها الحوريون والحثيون .. وشعوب لها ممثلوها في عصرنا هذا ، وهم اليهود والاكراد والارمن» . وكان هذا العرق « يقطن الاراضي المرتفعة الممتدة من جبال الالب الى القوقاز » .

وتشير التوراة إلى أن أصلهم من « الخلاء » أو « القفر » (تثنية ١٠/٣٢) أو من « البرية » (هوشع ١٠/٩) . وهنا نذكر مرة أخرى بأنها تشير أيضاً إلى أن إبراهيم « عبراني » ، (تكوين ١٣/١٤) .

ويظن بعض المؤرخين ان اسم « العبرانيين » مشتق من « عابر » بن شالح الذي ترده التوراة إلى سام بن نوح (تكوين ٢٩/١٠ و ١٤/١١) . وتعتبر سام أبا لكل « بني عابر » ، أي العبرانيين . ولعل من هنا القول بأن اليهود ساميون غير ان الوثائق الأثرية الحديثة والدراسات تدل على أن العبرانيين المذكورين في التوراة هم جماعة من « العبيرو » (Habiro) وان نسبة الجنس السامي فيهم ضئيلة .

ويرى ويسنبرج انه كان قد تشكل في العصور التاريخية مزيج من الإنسان الأرمنوي والإنسان الأبيض . وقد تشكل هذا المزيج في القوقاس لا في فلسطين، وأن هناك صنفين من اليهود ، صنف يشبه الأرمن ، وهو أبيض اللون ضخم الأنف ، وصنف « سامي » ذو أنف دقيق .

ويقول والتر ميتشل ان تاريخ اليهود يبدأ بين الشعوب التي تشغل البلاد الواقعة بين النيل من جهة ودجلة والفرات من جهة اخرى ، وان تركيبهم العرقي قد أدى إلى جدل كثير [١] .

ويقول جون برايت ان العبرانيين من حيث الأصل « يتألفون من عناصر ذات أصول مختلفة للغاية » [٢] .

ويقول نوث ان اليهود ظاهرة فريدة بين الأمم التاريخية الأخرى ، وانه لا يمكن اطلاق معنى « الأمة » عليهم ، وانهم يرجعون إلى « اصول متنوعة جداً » . وهو يوحد ما بين « العبرانيين » و « العبيرو » [٣] .

---

(١) Encyc. Brit. 1963, vol 13 p,42 E

(٢) John Bright, a Hist , of Israel, p, 120

(٣) Noth, The Hist, of Israel, pp, 5, 34, 81

من هم العبيرو ؟

يكاد الباحثون يجمعون على أن « العبرانيين » الذين تشير اليهم التوراة هم من« العبيرو » الذين أشارت اليهم رسائل تل العمارنة ، ووثائق اوغاريت وماري وغيرها من وثائق الدول والممالك .

وتقول الدكتورة كنيون : « ان ترادف كلمات « عبراني » و « عبيرو » و « خبيرو » و « هبيرو » وتطابقها في المعنى لا يثير أي اعتراض لغوي ... وان العبيرو في رأي معظم العلماء لا يمكن الاعتراف بهم كجماعة تنتسب إلى جنس (عرق) واحد ، لأننا لا نرى لهم أسماء خاصة تدل عليهم [١] . هذا ولا يمكن أن نقول انهم يحترفون حرفة محددة ، لأننا نراهم أحيانا جنوداً محترفين ، وأحيانا عمالا عاديين ، وأحيانا عبيداً مستخدمين . والصفة الوحيدة المشتركة بينهم هي انهم اجانب أو غرباء ، وان أنسب ما يمكن أن ينطبق عليهم من التفاسير انهم عصابات مغامرة وجنود تسعى وراء الكسب ، وانهم يظهرون في الأماكن المضطربة ، غزاة للمدن غير المحصنة ، ويتجندون كمرتزقة في جيوش الدول القوية ، وانهم في ايام السلم يبيعون خدماتهم كعمال وعبيد للحكومات القوية . مثل هذه الجماعات يمكن أن تجند من مصادر متنوعة : من الأشخاص الذين لا مأوى لهم ، ومن العصابات المغامرة التي تفتش عن أراض غنية تغزوها ، مثل الحوريين ، ومن العصاة الخارجين على القانون ممن اخرجوا من ديارهم . وفوق هذا من جماعات بدوية فقيرة من جزيرة العرب . ولذلك تكون هذه الجماعات ذات أصل مختلط ... كان طواف العبيرو واقامتهم غالباً في بلاد سامية ولذلك اقتبسوا التراث السامي ... وان الاسرائيليين هم أحفاد جماعات العبيرو التي دخلت إلى فلسطين من شمالي سورية في هذا الوقت »(وقت إبراهيم وجماعته ،

---

(١) ليس المقصود من هذا العرض الاثارة العرقية أو الشوفينية ، وانما نفهم الحقائق واستكناه العلل والاسباب الصحيحة .

حوالي ١٩٠٠ ق.م.) ... ان هذا التفسير ينطبق على الوصف الذي يوصف به إبراهيم كعبراني ، لأنه كان متجولا وجنديا غنياً . وتشبه قصة الآباء العبرانيين والمنطقة التي تجولوا فيها وتنقلوا ما نعرفه عن قصه العبيرو وتنقلاتهم .

« ومع ان تحركات العبيرو جاءت إلى فلسطين بجماعات من أجناس مختلفة كالهكسوس والحثيين والحوريين ، فان الأساس في سكان فلسطين القرن السادس عشر ق.م. كان الجنس السامي . وتتميز خصائصه بقدرة كبيرة على البقـــاء وأمتصاص غيره من العناصر »[١] .

ويقول المؤرخ ايزادور إبشتين : « ان كون العبرانـــيين » و « العبيرو » المتجولين الذين ظهروا في غربي آسيا بين سنتي ٢٠٠٠ و ١٦٠٠ ق.م. شيء واحد أمر مرجح »[٢] .

ويقول البروفسور جون برايت :

« ان المصطلح « عبيرو » ، مهما كان مصدره ... لا يرجع في الاصل إلى وحدة عرقية ، وإنما إلى طبقة في المجتمع . ومع ان أكثر أسماء العبيرو ، بقدر ما نعرف عنها ، سامية[٣] ، فان لهم أسماء أخرى كذلك . ويمكن ان يكون الرجل من أي جنس ، ومع ذلك يكون عبيرو . فالمصطلح كما ترى يشير إلى أية طبقة من

---

(١) Kenyon , Arch . in the Holy Land, pp .183,184

(٢) Judaism, Pengum, p.14

(٣) يقول بروس اعتماداً على الوثائق الاثرية السورية ان اكثر هذه الاسماء في منقوشات الالخ (تل العطشانة) السورية غير سامية (أي غير عربية) . والاسماء السامية لدى العبيرو لا تدل على أصولهم ، لأنهم كانوا يلجأون الى الهلال الخصيب من وراء الانهار والجبال ومن جهات أخرى مختلفة . ومهما كانت الاصول على كل حال فان المهم هو ما تطورت اليه هذه الاصول من شعوب أو جماعات وما اتصفت به من مقومات وقامت به من اعمال ، ويظل اجماع الباحثين قائماً على انهم غرباء دون عرق أو جنسية أو جذور في الارض (انظر صفحة ١١ من كتاب (Arch . and Old Test. Study)

الناس ليس لها جنسية ، ودون مكان في تركيب المجتمع القائم . وتعيش جماعة العبيرو أحيانا عيشة شبه بدوية، وتخلد أحيانا إلى حياة الاستقرار والسلم وتعيش أحيانا حياة قائمة على الغزو . وقد صادف أن سكن أفراد هذه الطبقة المدن . وكان يمكن في الأحوال المضطربة أن يؤجروا أنفسهم (كما ظهر من ألواح تل العمارنة) ، كجماعة غير منتظمة ، لأية مصلحة تعود عليهم بالفائدة . كما يمكن إذا اضطرتهم الحاجة أن يقدموا أنفسهم كعبيد (كما هو الحال في نوزي) وفي مصر حيث استخدمت أعداد منهم كعمال في مشاريع ملكية مختلفة .

« ولهذا كان صحيحاً ... أن ننسب العبيرو إلى هذه الطبقة . وهذا بالذات هو ما درج عليه الناس في زمانهم ، وهو ما عرّفوا به أنفسهم عند الاقتضاء . ومع اننا لا نستطيع أن نشير إلى العبيرو أنفسهم بين الذين عملوا عبيداً في مصر . فمن العسير علينا ان نشك في انه وجدت بينهم إذ ذاك عناصر من العبيرو . ومن الطريف انهم كانوا إذا أبرموا عهداً حلفوا بـ « آلهة العبيرو » وهو تعبير متفق كل الاتفاق مع التعبير الوارد في التوراة « إله العبرانيين » ، (خروج ١٨/٣ و ٣/٥ و ١٦/٧) »[١] .

وقد أشارت التوراة إلى هذا حين تكلمت عن عمل العبرانيين كخدم فقالت :

« إذا اشتريت عبداً عبرانياً فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حراً » (خروج ٢/٢١) .

و « إذا بيع لك اخوك العبراني أو اختك العبرانية وخدمك ست سنين ففي السنة السابعة تطلقه حراً من عندك » (تثنية ١٢/١٥) .

وصفات الذين اجتمعوا مقاتلين مع داود هي من صفات العبيرو . ففي سفر صموئيل الاول من التوراة : « فذهب داود إلى مغارة عدلام . فلما سمع اخوته

---

(١) Bright. a Hist. of Israel . p 85

وجميع بيت أبيه نزلوا إلى هناك واجتمع اليه كل رجل متضايق وكل من كان عليه دين ، وكل رجل مرّ النفس ، فكان عليهم رئيساً ، وكان معه نحو اربعمائة رجل » ، (١/٢٢) .

ويضيف بروس في موضع آخر ما يلي :

« نادراً ما يوصف العبيرو بأنهم مستقرون في بيوت لهم . انهم يوصفون كغرباء ، بل غرباء أعداء ، أينما ذكروا . ومع ان المصطلح « عبيرو » معنى خاصاً ، فقد درج استعماله عامة بمعنى « أعداء » أو « ثوار » أو « قوم غير محترمين » . وفي بعض الحالات كان نعتاً قبيحاً ترمي به عدوك » (١) *

ويضيف جراي انه خلال الالف الثاني قبل الميلاد كان في اوغاريت ، وهي الحاضرة الكنعانية المشهورة ، وفي جميع دول الشرق الادنى ، كبيرة وصغيرة ، جماعات من العبيرو ، وانهم كانوا طبقة اجنبية عن البلاد تسكن مقاطعات خاصة بها ، يمكن ضبطهم فيها وتجنيدهم منها . وكان ذلك افضل لئلا يلجأ

---

(١) Bruce . Arch and old Test. Study. pp 10. 11

* بالنظر لما قد يتبادر الى الذهن اول وهلة من غرابة جماعات العبيرو ، وتطاول المدة التي ظلوا فيها قائمين كظاهرة اجتماعية ناشزة في الهلال الخصيب « ٢٠٠٠ — ١٠٠٠ ق.م. » فاننا نجد لهم شبهاً ، ولو كان محدودا ، في تاريخ العرب قد يقرب ظاهرتهم الى الاذهان ، وهم « الشطار » أيام الدولة العباسية .

ففي أوائل القرن التاسع الميلادي (أوائل القرن الثالث الهجري) ظهرت جماعة مختلطة الاصول والاجناس ، أكثرها من الفرس والاتراك والزنج . وكانت هذه الجماعة تنهب ممتلكات الاغنياء في بغداد وما حولها وتغير على القرى الامنة والمساكن والسفن ، ولم تكن الدولة دائماً قادرة على كبح جماح هؤلاء الشطار (أو العيارين) ، بل ان بعض الحكام كان يستفيد منهم ويستعين بقوتهم .

ويبدو ان أمر هؤلاء الشطار قد انتهى بتطوع الناس ضدهم وتألبهم عليهم والقضاء على فسادهم وعبثهم . « انظر صفحة ٩٩ من كتاب الصعلكة والفتوة في الاسلام ، للدكتور احمد امين ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٥٢ » .

اليهم أحد فيغزو بهم بلاداً يطمع في السيطرة عليها (١) .

وفي هذا المعنى يقول نوث : « قلمـــا نستطيـع الشك بأن « العبيرو » الذين أشارت اليهم رسائل تل العمارنة في استنجادات عبد – حيبا هم أنفسهم الذين تدل عليهم كلمة « العبرانية » التي تستعملها التوراة . واننا لعلى علم بوجود هؤلاء العبرانيين في نواحي الشرق القديم كله . كانوا عادة يؤدون خدمات متنوعة . اننا لنعرفهم من وثائق مدينة ماري ومن مدينة نوزو في الفرات منـــذ القرن الخامس عشر ق.م. ومن الحثيين في آسيا الصغرى خلال القرن الرابع عشر ق.م. ومن سورية وفلسطين في الفترة نفسها ، ومن مصر في القرن الخامس عشر ق.م. باسم . عبر . امـــا ان التسمية تدل على شعب فأمر لا شك فيه . وعندمايذكر الاسم عبرانيون » نجد شعباً من **اصول متنوعة جداً** . وتشير التسمية بخاصة إلى وضع اجتماعي وقانوني معين . واننا لنجـد التسمية مستخدمة في التوراة بصورة تدل على هذا الوضع (خروج ٢١/٢) و (تثنية ١٤/١٢) ، اي انهم ذوو مستوى وضيـع وموارد ضئيلة في وسط البلاد المتمدنة في الشرق القديم . إنهم يؤدون الخدمات في المكان المطلوب وبالصورة المبتـــغاة ويمثلون عناصر متنقلة قلقة **لا جذور لهم في الارض** » (٢).

وعن العبيرو قالت الدكتورة كنيون في كتابها « حفريات أريحـــا » :«ان وجود عصابات العبيرو أمر مقرر . ومن أسباب الحيرة في معرفة هويتهم هوأن بعض المراجع تعتبرهم عبيداً وأخرى عصابات سلابة نهابة ،واخرى مستخدمين لدول كبرى . فاذا اخذنا اسماءهم وجدنا الغالب فيها سامياً (٣) ، ولكن هناك

---

(١) J. Gray, Arch. and Old Test. study pp.156-7

(٢) Noth, the Hist of Israel, p. 34

(٣) لا عبرة بالاسماء ، فان العبيرو جاسوا خلال الهلال الخصيب قروناً عديـــدة ، فاتخذوا لانفسهم اسماء سامية ، ومعظم جماعات العبيرو كانت لها اسماء غير سامية « غير عربية » وذلك على حسب اماكن نشوئها وتجوالها ، « انظر الملاحظة ٣ في صفحة ١٢٨ سابقاً » .

اسماء حورية ايضاً . واسهل التفاسير لذلك ان الاضطرابات التي كانت تنشأ في تلك العصور ، كالتي أثارهـــا انتشار الحوريين ، كانت تسبب نشوء اشخاص كثيرين لا مأوى لهم ، فيكون منهم مغامرون يفتشون عن الغنائم خارج نطاق الأماكن التي انتشروا فيها ، وهنالك الخارجون على القانون ، الذين تقذف بهم اية دولة ذات حكومة قوية . وكان هنالك أيضاً بدو الصحراء الساميون . وفي بعض الحالات يمكن ان تقبض على هـــذه العصابات إحدى الدول الكبرى فيصبحون اشبه شيء بالعبيد ، يبيعون انفسهم كأرقاء الاقطاع لقـــلة فرص السلب والنهب . وبعض جماعات العبيرو كانوا يؤجرون انفسهم كالمرتزقـة ، وبعضها كان يظل عصابات مستقلة » .

وتستمر كنيون فتقول :

« إن هذا التفسير يلائم الحقائق التي كشفت عنها الحفريات الاثريـــة أكثر ملاءمة . فما ان طلع القرن الثامن عشر ق.م. حتى وقع عدد من مدن سورية وفلسطين تحت حكم بعض هذه العصابات المحـــاربة ... وقد كانت سورية وفلسطين في القرن الرابع عشر قبل الميلاد سامية من حيث الاساس . ولكن بعض اسماء الحكام كانت حورية . وبعض هـــذه العصابات دخلت إلى مصر بأعداد كافية بحيث قلبت نظام حكم الامبراطورية الوسطى ، وأقامت هناك حكمها حوالي سنة ١٧٣٠ ق.م. ، إما بالتدريج وإما بالغزو الفعلي . وقدعرفهم المصريون على انهم هكسوس ، أجانب ، آسيويون »[١] .

وتستمر كنيون :

« هنالك نقـــطة جانبية لها اهمية خـــاصة بالنسبة لتاريخ التوراة . ان « العبرانية » في نظر اكثر الثقاة هي تشكيلات « العبيرو » . وعند المصريين العبر . وكان ابراهيم يدعى عبرانياً . وفي فترة تحركات عصابات العبيرو تقع تحركات الآباء العبرانيين ، وهذه التحركات شملت اراضي ما بين النهرين إلى مصر ، وهي البقاع التي وجدت فيها جماعات العبيرو . يضاف إلى ذلك انه

(١) Digging up Jericho, pp 222—224

كان هنالك اتصال وثيق بين عبرانيي التوراة وبين الحوريين ، إذ ان كثيراً من العادات الاجتماعية والقوانين العرفية التي أوردها العهد القديم قد اكتشفت في آثار الحوريين بماري . وقد تجول الآباء أولا كجماعات نصف بدوية في الأراضي الكنعانية ، شأن كثيرين من العبيرو الآخرين . ثم استقر أبناؤهم في البلاد مع الزمن . والكنعانيون الذين وقعت في أيامهم هذه التحركات ينتسبون إلى العصر البرونزي المتوسط ، والموجودات الأثرية في مواقع أريحا وأمثالها تشير إلى نوع المدن التي رآها العبيرو والحضارة التي شاهدوها »[١] .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ان أحد أسباط إسرائيل ، وهو سبط بنيامين ، قد صنف مع العبيرو ، وذلك بناء على الاكتشافات الأثرية الحديثة في ماري (ص ٣٩) التي ازدهرت فيها حضارة العموريين ، منذ ٣٠٠٠ سنة ق.م.

وتضيف هذه الاكتشافات إلى ذلك « ان ذكر البنيامينيين في ألواح ماري يدل على ان جماعة من البدو أو أشباه البدو كانت معروفة باسم البنيامينيين قبل يعقوب الذي لايمكن أن يكون قد وجد قبل القرن السابع عشر ق.م.[٢] (ألواح ماري المشار اليها تعود للقرن التاسع عشر ق.م.) .

ويقول اندريه بارو ان الألواح المكتشفة ترسم صورة لا مجاملة فيها للعبيرو والبنيامينيين معاً ، وتصف كلا منهما بأنه « سراق نهاب »[٣] .

---

(١) Digging up Jericho, p, 224

(٢) Parrot , Arch , and Old Test, Study , p, 141

وقد ظهر مثل هذا الخطأ في أسباط إسرائيل الاثني عشر الذين ذكرتهم التوراة ، اذ تبين ان « نصوص رأس الشمرة « اوغاريت » المسمارية الحروف ... تشير بأن قبائل دان واشير وزبولون كانت في « ارض كنعان » خلال القرن ١٥ ق.م. اي قبل خروج اليهود من مصر. » « اوغاريت ص ٨١ » .

(٣) Parrot, Arch , and Old Test,Study , P, 141

ويؤيد هذا الوصف نص ورد في التوراة ، يقول : « بنيامين ذئب يفترس . في الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهباً » ، (تكوين ٢٧/٤٩) . وهنالك نص آخر في سفر القضاة ينسجم مع هذا المعنى فيقول عن البنياميين : « رجال حرب ... مخترطي السيوف ... يرمون الحجر بالمقلاع على الشعرة ولا يخطئون » (٢٠/١٥–١٨) . وهنالك نص ثالث يقول : « مساعدون في الحرب نازعون في القسي يرمون الحجارة والسهام من القسي باليمين واليسار من اخوة شاول من بنيامين » ، (الأيام الأول ١٢/٢–٣) .

ولا يشك بارّو في أن هذا السبط (أو القبيلة) هو نفسه السبط الوارد ذكره في التوراة بعدئذ . وورد في ألواح ماري ان البنيامينيين كانوا موزعين في قرى متعددة حول المدينة .

ويورد كيلر في كتابه « التوراة كتاريخ » بعض محتويات طريفة لألواح صلصالية من ماري عن تخاطب البنيامينيين بشارات النار ، مؤيداً لما ورد في التوراة « اهربوا يا بني بنيامين ... وعلى بيت هكاريم ارفعوا علم نار » (ارميا ٦/١–٣) . وكتب موظف أمن (شرطي) من ماري للملك في القرن التاسع عشر ق.م. يقول : « سيدي اني تركت ماري أمس وأمضيت الليلة في زوربان لقد كان البنيامينيون يرسلون شارات بالنار ... وكانت قرى البنيامينيين في مقاطعة طرقه تجيب على ذلك بشارات النار أيضاً . ولست أدري للآن ما تعني هذه الشارات ... من الضرورة تدعيم حرس المدينة ، وعلى سيدي ان لا يخرج من البوابة »[١] .

وفي ألواح ماري نرى اصول بعض النبوءات الاسرائيلية ، ومنها الفكرة عن إله معبود ، وبخاصة الإله دجن . وكانت معابدهم تقام على أشكال المساكن التي يقطنونها ، ومنها عبارة « بيت الرب » القديمة وعبارة « جبل البيت » التي

---

(١) Keller, P. 66 and Pritchard, The Ancient Near East 1958, p.260

يستعملها الصهيونيون الآن للتدليل على الجبل الذي كان يقوم عليه « الهيكل » عندهم .

فاذا أعدنا النظر جملة إلى المصادر التاريخية والحفريات الأثرية نجد ان قسما من العبيرو هؤلاء دخل إلى فلسطين مع إبراهيم سنة (١٩٠٠ ق.م.) وبقي فيها ، وقسما ارتحل إلى مصر مع غزوة الهكسوس (١٧٠٠ ق.م.) وقسما كبيراً جاء مع موسى سنة (١٣٠٠ ق.م.) وجماعة موسى هذه ، هي التي يمكن اعتبارها أصل ما أصبح بعدئذ « إسرائيل » . هذا وجماعة يشوع الذين هاجموا أريحا سنة (١٢٦٠ ق.م.) هم أيضاً من العبيرو . على أننا يجب أن نلاحظ ان الاسرائيليين تألفوا في الغالب من العبيرو ، وليس العكس ، فان جماعات من العبيرو ظهرت واختفت دون أن تكون لها علاقة بالاسرائيليين . وفي جميع هذه الحالات ، بما فيها غزو فلسطين ، لا نستغرب العنف والهمجية والشراسة التي اتصفت بها سائر غزوات العبرانيين [١] . ويبدو لنا ان الذين كتبوا التوراة بعد بعد نهاية أحداث الغزوات بوقت طويل (في القرن الثامن إلى الخامس قبل الميلاد) رأوا ، أو أحبوا أن يروا ، ان ذلك إنما تم بأوامر من ربهم يهوه . ولا شك انه كان لنصوص التوراة اثر كبير على أجيالهم المتعاقبة ، التي آمنت بها كابراً عن كابر ، حتى انحدرت الينا في هذا الزمان ، كما رأينا .

---

(١) « العبراني » هو المنحدر من ابراهيم او اسحق او يعقوب « الاباء » . والتوراة تدعو ابراهيم «العبراني» ، وعلى هذا تطلق الكلمة على الاسرائيليين واليهود على السواء .

– الاسرائيلي هو المتحدر من اسرائيل ، وهو يعقوب بن اسحق ، ولكن الكلمة تصرف تجوزاً الى غير انسال يعقوب من العبرانيين .

– اليهودي هو العبراني أو الاسرائيلي الذي كان تابعاً لمملكة يهوذا . ولكن استعمالها بعدئذ شمل الجميع .

وبعد بحث في رسائل تل العمارنـــة يلخص ف.ف. بروس موضوع العبيرو فيقول :

« نستطيع أن نري « العبرانيين » الذين تصفهم التوراة جماعة من « العبيرو » تربط بينهم أواصر دينية قوية ، وقد تخلوا عن حياتهم البدوية السابقة ونزلوا في كنعان (مع جماعات اخرى ملتحقة بهم) في نهاية العصر البرونزي الأخير »[1]. وتصادف نهاية العصر البرونزي الأخير الفـــترة التي هاجم فيها يشوع أريحا.

وقد وردت اشارة حديثة إلى جماعات العبيرو في ألواح عثر عليها في الحفريات التي تقوم بها منذ سنة ١٩٦٣ إلى اليوم بعثة ألمانية تحت إشراف الاستاذ رولف إخمان في قريـــة (كامد اللوز) في سهل البقاع بلبنان ، إذ اكتشفت « ثلاث لوحات من الطين المحروق ، تحمل كتابات بالحرف المسماري ، كما عثر على جزء من لوحة رابعة . وبين هذه اللوحات الأربع رسالتان هما مــن ضمن مراسلات تل العمارنة ، وتشيران إلى قبائل « الحبيرو » ، وهي قبائل ... كان أفرادهــا من جنسيات مختلفة ، اعتبروا بصورة عامة جنوداً يدفع بهم للحرب احياناً، والقيام بثورات ضد أسيادهم والاستيلاء على الحكم في المدن احياناً اخرى »[2] .

---

(١) Bruce, Arch. and Old Test, p, 15

(٢) جريدة النهار ،بيروت، ١٩٧٠/١١/٣٠

الفصل الثالث عشر

اليهود في القدس وفلسطين
(مملكة داود وسليمان، مملكة اسرائيل ويهوذا)

مملكة داود وسليمان

استمر يشوع بن نون في غزو المدن الكنعانية في فلسطين ، مبتدئاً بالضعيف منها . وقد نجح في غزوته تلك على الرغم من مقاومة أهل البلاد الباسلة .وساعد على ذلك تخصص جنود يشوع ومقاتليه من العبيرو في أدوات الحرب والقتال ، وضعف مصر ، او تغاضيها آنئذ ، فلم تلق بالا إلى الغازي الجديد ، على الرغم من الاستغاثات التي صدرت عن القدس وغيرها . ومع ذلك فلم تخضع البلاد كلها ليشوع بل بقي الساحل من عكا إلى سيناء في أيدي الكنعانيين كما بقيت سهول عكا وبيسان وشمال يافا ، والقدس ، وغيرها في أيديهم وأيدي العموريين . وفي أيدي الفلسطينيين الذين كانوا يسكنون ساحل غزة آنئذ (ص١١٢). وبكلمة موجزة بقي معظم البلاد ، وبخاصة السواحل والسهول والأراضي الخصبة في أيدي أصحابها ، سكاناً وحكومات .

وأخذ يشوع يوزع الأراضي التي اغتصبها من مالكيها على الغازين العبرانيين. ومن مطالعة الاصحاح الثالث عشر وما بعده من سفر يشوع نلاحظ مواقع

الأراضي التي ذكر انها اغتصبت ووزعت . ولا بد ان عدد الاسرائيليين كان قليلاعندئذازاءعدداهل البلادوالمناطق المغتصبة. قال السفر– يشوع: « **وقد بقيت أرض كثيرة جداً للامتلاك** » (٢/١٣) . وكانت الطريقة التي اتبعها يشوع في توزيع الاراضي أن يقتلع أصحاب الأملاك من بيوتهم وأراضيهم بالحرب والضرب. قال يهوه ليشوع في العدد نفسه عن سكان البلاد الاصليين : « أنا أطردهم من أمام بني إسرائيل ، إنما اقسمها (أي الأرض) بالقرعة لاسرائيل ملكاً كما أمرتك».

ويشيخ يشوع ، ويقول للعبرانيين وهو على فراش الموت : « أنتم قد رأيتم ما عمل الرب إلهكم بجميع أولئك الشعوب من أجلكم ، لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم » ، (يشوع ٢/٢٣) .

ويموت يشوع (قبل أن يفتتح القدس) . فتؤول الزعامة في القبائل العبرية إلى زعماء من اليهود اسموهم « القضاة » . ولسيرتهم سفر خاص في التوراة . وعلى الرغم من محاولات القضاة الاصلاح فقد ساد عصرهم (الذي دام نحو ١٥٠ سنة) الفوضى والخلافات والنكبات والانحلال الخلقي والديني . وقد ورد هذا كله مفصلا في سفر القضاة نفسه . ورأى أهالي البلاد الفرصة المتاحة فأخذوا يناوشون الاسرائيليين مناوشات مستمرة من كل مكان . وكان هؤلاء يعزون وضعهم المتردي إلى غضب ربهم عليهم فوعدوا بالتوبة ، وولوا شاول ملكاً عليهم مقلدين بذلك نظام الحكم عند الكنعانيين .

و « كان ذلك اول عهدهم بالملكية » ، (حوالي ١٠٢٥ ق.م.) .

وحاول شاول ان يقود اليهود فيوحدهم ويخرجهم من وضع المذلة والانحلال، فلم ينجح في ذلك ، وظل الكنعانيون يقاومونه ، هم والفلسطينيون ، حتى قتل في معركة جلبوع (فقوعة) . و « قد دلت الحفريات في تل الغول على ان شاول لم يحكم إلا جزءاً صغيراً من فلسطين » [١] .

---

(١) تاريخ فلسطين ص ٢٨ .

حكم داود : (١٠٠٠ – ٩٧٠ ق.م.)

وتولى داود الحكم بعد شاول ملكاً على العبرانيين . وكان قائـــداً مدرباً ، فحارب مقاوميه الكنعانيين والعموريين ، كما حارب الفلسطينيين الذين لم ينجح شاول وغيره من قبله في إخضاعهم ، فانتصر عليهم انتصاراً جزئياً فيما يبدو ، ولكن بلاد الفلسطينيين ظلت مستقلة عن حكم داود ، الذي استقر في حبرون (الخليل) .

وظل داود يفكر في غزو القدس . فدبر حملة عليها حوالي سنة ١٠٠٠ق.م. « وذهب الملك ورجاله إلى اورشليم ، إلى اليبوسيين سكان الأرض فكلموا داود قائلين لا تدخل هنا » [١] ، فانتزعها من أيدي أهلها ، وجعلها عاصمة لمملكته . وكانت القدس كما مر تعتبر مقدسة قبل ان يفتحها داود ، بل قبـــل ان يدخل إبراهيم والعبرانيون إلى فلسطين بزمن طويل . فقد كان حاكمها ملكي صادق اليبوسي كاهن الإله الأعلى (شالم) [٢] ، وهو من آلهة اليبوسيين . وبعبـــارة أخرى كان للمدينة قدسية كاملة قائمة على ديانة عربية قديمة . ولم يصنع اليهود شيئاً إلا اقتباس ما وجدوه في الفترة القصيرة التي وقعت فيها المدينـــة المقدسة تحت سيطرتهم

ومما تجدر الاشارة اليه هنا انه عندما افتتح داود القدس ، كان قد مر على بنائها ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة ، كما كان قد مر على وجود الكنعانيين في فلسطين ما يقرب من أربعة آلاف سنة [٣] ، وعلى وجود كنعانيين او غيرهم ممن خرج

---

(١) صموئيل الثاني ٥/٦ .

(٢) دائرة المعارف البريطانية ، مجلد ١٣ ، ص ٦ – مادة Jerusalem

(٣) تشير الدكتورة كنيون في ص ٣١٧ من كتابها Arch, in the Holy Land الى ان الحفريات تدل على ان بعض الاستيطان في مكان القدس وقع منذ الالف الرابـــع ق.م. لكن بقاياه الاثرية جزئية .

من قلب جزيرة العرب نحو خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة .

داود يحاول بناء الهيكل

وكان اليبوسيون ، على عادة الكنعانيين جميعاً ، قد بنوا بيتاً (هيكلا) للاله شالم على احد مرتفعات القدس ، وهو مرتفع الضهور (اوفل) حيث كانت مدينة يبوس ، على الطرف الجنوبي الشرقي من حرم المسجد الأقصى الحالي . ونسبة للاله « شالم » ، كانت القدس تدعى أحياناً « أورشالم » ، وأحياناً اخرى « شالم » فقط ، كما يرد أحياناً في التوراة .

وكان طبيعياً ، وأثر الدين في حياة الناس آنئذ ما نعرف ، ان تقتبس جماعات العبرانيين البدوية البسيطة عن اهل البلاد المتحضرين مظاهر الدين والحضارة ، ففكر داود في بناء بيت (هيكل) للرب في القدس ، على مرتفع وعلى الطريقة الكنعانية ، فاغتصب لهذا الغرض بيدر آرنان (أرونة) اليبوسي فوق مرتفع الضهور أيضاً ، وكانت الغاية ان يضع فيه تابوت العهد الذي كان يضم الوصايا العشر التي نزلت على موسى . ولكن الإله ، كما تقول التوراة ، لم يمكنه من ذلك لأنه أراق دماء كثيرة في حروبه ، ولأنه اغتصب البيدر من اليبوسي اغتصاباً . والواقع انه وجد مقاومة عنيفة من احبار اليهود لأنهم رأوا ، وهم البدو الرحل ، أن بناء بيت للرب يحصره في مكان واحد ، في حين ان وجوده في خيمة متحركة ينقله إلى كل مكان ينتقل اليه العبرانيون ، وبذلك يستطيع أن يدافع عنهم ويحميهم وفي هذا الموضوع تقول كنيون :

« كان تابوت العهد الرمز الأساسي لعبادة يهوه . وقد تنقل مع الاسرائيليين في تنقلاتهم المتكررة المعهودة ، وتعرض لصروف الأيام بما في ذلك استيلاء الفلسطينيين عليه . ونقله داود في احتفال كبير إلى القدس ، بعد أن كان في قرية اسدود ، التي ظل فيها بعد استنقاذه من الفلسطينيين . وكانت خطة داود في الحقيقة ثورية ، فان التابوت كان متنقلا تحميه خيمة ، وكان ذلك الترتيب ملائماً للرمز الديني لإله قوم من البدو المتنقلين . غير ان النبي ناثان أبلغ داود أن إرادة يهوه هي أن لا

يبني هيكلا . ولذلك ظل التابوت في الخيمة بقية حياة داود كلها »[1] .

وعلى الرغم من ذلك كله يشغل الصهيونيون العالم في هذه الأيام بالبحث عن « الهيكل » !!

وفي إحدى الدراسات العلمية الحديثة يظن بعض الباحثين ان الهيكل الذي حاول داود أن يبنيه ، ثم بناه سليمان ، لم يكن سوى الهيكل اليبوسي نفسه الذي بناه ملكي صادق والذي كان الغزاة يهدمونه أو يحرقونه في العهد الاسرائيلي بسبب لجوئهم اليه وقت الحصار ، أي انه كان عند الاسرائيليين « قلعة حرب يجددون بناءها لحصانتها وليس لما فيها من قداسة »[2] .

وكان داود في أثناء حكمه خاضعاً للفنيقيين العرب في لبنان وساحل فلسطين الشمالي ، كما كان خاضعاً للحكام المصريين . ولما بدأ ببناء قصره وهم ببناء الهيكل استعان بمن يبنيه له من الفنيقيين ويزوده بالخشب اللازم للبناء .

ومن حيث ملكه ، فقد وسع داود الرقعة التي بدأ بحكمها ، فبلغ جبل الكرمل شمالا والخليل جنوباً . ولكن الساحل من شمالي يافا إلى جنوبي غزة بقي بيد الفلسطينيين وإن كان بدوره خاضعاً لمصر . ولم يحكم داود ساحل فلسطين شمال عكا ، فقد كان هذا مع ساحل لبنان موئل الفنيقيين . وتذكر بعض المصادر امتداداً أوسع لملك داود ، ولكن هذا الامتداد لا يزيد على انتشار لبعض القبائل الإسرائيلية في غدوها ورواحها ، دون أن تمتد اليها وإلى أراضيها يد المملكة بسلطان ثابت وطيد معلوم .

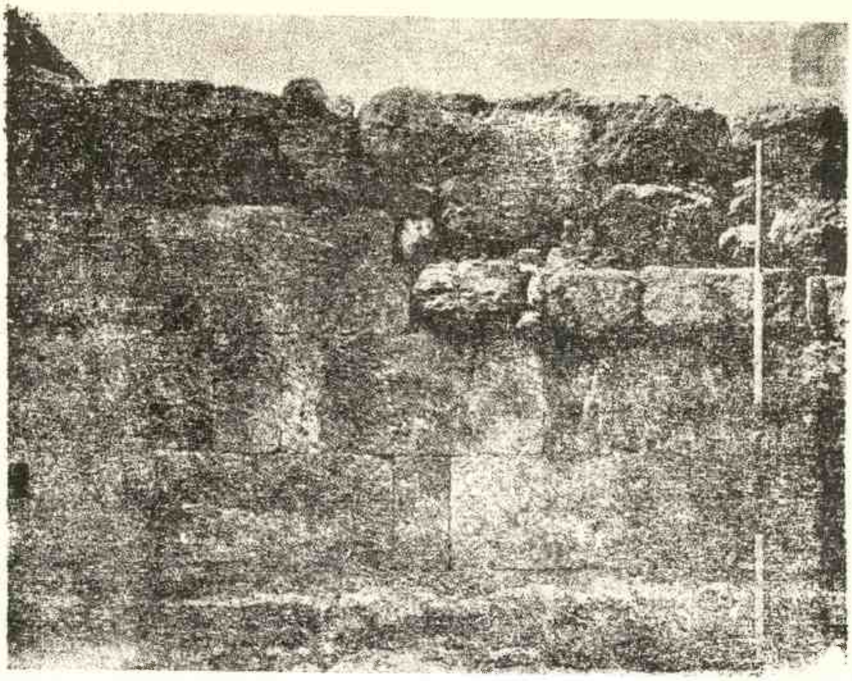
حياة داود في التوراة

إذا تعرضنا هنا لحياة داود فانما نهدف إلى إيضاح الأثر الذي يمكن ان تخلفه صورة هذا الملك والنبي والبطل في أذهان الأجيال اليهودية المتعاقبة على التاريخ ،

---

(١) Kenyon, Jerusalem , P, 54

(٢) يوسف الحوراني ، ملحق «النهار» ١٠/١٠/٧١ ، ص٧.



بقايا جدار في السامرة (بجوار نابلس الحالية)

تشير التوراة إلى عجز الاسرائيليين في الصناعة . وقد جاء في العدد ١٩ من الاصحاح ١٣ من سفر صموئيل الاول « انه لم يوجد صانع في كل أرض إسرائيل » ، والاشارة هنا الى صناعة الحديد التي كان على الاسرائيليين ان يلجأوا فيها الى الفلسطينيين .

ولم يكن الحال في صناعة البناء افضل من صناعة الحديد . وجهدهم فيها يتضح من الصورة العليا (عن كنيون) ، وهي لجدار في السامرة بني في القرن التاسع قبل الميلاد ، أي بعد بناء سليمان لهيكله في القدس . وننشر هذه الصورة لأننا لا نجد صورة من القدس ، اذ لم يبق اي بناء في القدس من عهد سليمان .

والجدار صنعة فينيقية ، متقنة جميلة كما ترى ، فلما اعوز الاسرائيليين اتمام الجدار جاء معهم على الشكل البدائي الخشن الذي ترى في اعلى الجدار .

مما يمكن أن يلاحظ الانسان أثره في حياة اليهود ، وبخاصة حياة الشرقيين منهم .

وتقول الباحثة كنيون « ان اصول نسب داود نفسه كانت بسيطة . انه راع تحول إلى محارب . وقد دلت الحفريات في المواقع الفلسطينية بوضوح على ان الاسرائيليين دخلوا البـــلاد بدواً متنقلين فتسربوا إلى المدن والقرى الكنعانية وتمثلوا تراث البلاد في وقت كان فيه هذا التراث الذي تأسس على حضارة المدن قد أخذ بالانحدار »[1] (خلال القسم الأخير من الألف الثاني ق.م.) .

وتصور التوراة داود صوراً فيها التظاهر بالجنون والتلاعب والقتل. وصورته فيها كقائد لجماعة من العبيرو معروفة لدينا (ص ١٢٩) .

وفيما يترفق القرآن بسيرة داود كنبي مرسل نجد قصصه في التوراة تملأ فصولا حول علاقاته النسوية المرذولة . وقصة زوجة أوريا الحثي في التوراة مشهورة ، إذ « ارسل رسلا وأخذها فدخلت اليه فاضطجع معها وبعث بزوجها في وجـه الحرب الشديدة » ليضرب ويموت . فتم ذلك . أمـــا اشارة القرآن إلى القصة فرمزية ، وتنتهي بأن داود « استغفر ربه وخر راكعاً وأناب » .

وتلاحق التوراة داود بهذه القصص حتى موتـــه ، فقد ورد في مطلع سفر الملوك الأول ما يلي :

« وشاخ الملك داود . تقدم في الأيام . وكانوا يدثرونه بالثياب فلا يدفأ ، فقال له عبيده ليفتشوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء ، فتلقف أمام الملك ولتكن له حاضنة ولتضطجع في حضنك فيدفأ سيدنا الملك . ففتشوا على فتاة جميلة في جميع تخوم إسرائيل فوجدوا أبيشح الشونمية ، فجاءوا بها إلى الملك . وكانت الفتاة جميلة جداً فكانت حاضنة الملك وكانت تخدمه ولكن الملك لم يعرفها » . (الملوك الأول ١/١–٤) .

---

(١) Jerusalem, p, 53

حكم سليمان (٩٧٠ – ٩٣٠)

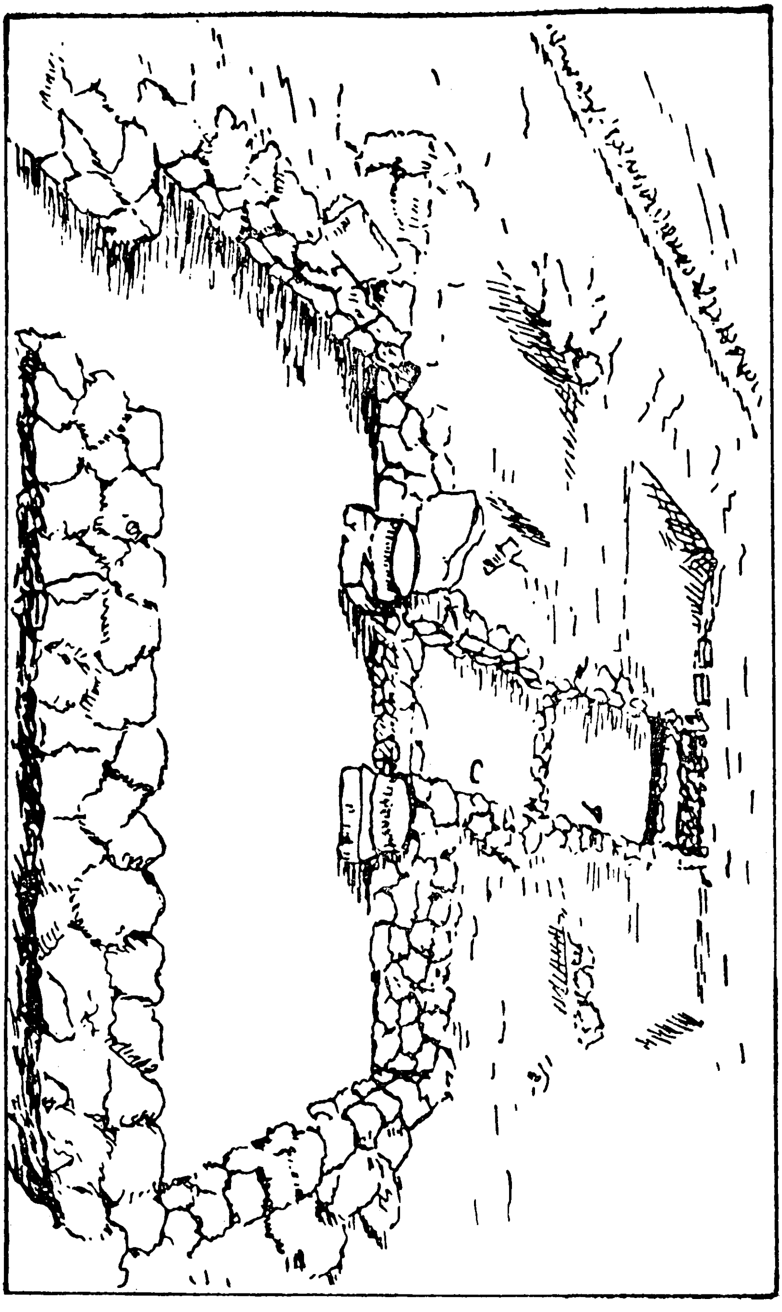
وتسلم سليمان الملك من أبيه داود. وكان حكمه اكثر ازدهاراً واوسع آفاقاً. ولكن هذا الحكم لم يخل من المظالم والمباذل والمتاعب ، وبخاصة عند نهايته ، إذ تذمر شعبه منه وانتقض عليه.

ومع ان حكم سليمان قد امتد إلى جهات من سيناء وسورية ، فانه لم يسيطر على فلسطين كلها ، ولا كان اليهود اكثرية فيها، بل ظل عددهم اقل من السكان الأصليين ، وان كانت التوراة تورد أرقاماً ضخمة في مناسبات مختلفة لا يمكن أن يكون لها نصيب من الصحة ، كما هو ثابت في تقديرات مبنية على الوثائق الأثرية التي ترجع إلى العهد الذي وقعت فيه الحوادث . وجاء في بعض المصادر ان الحكم الحقيقي لمملكة القدس لم يزد على حكم مملكة كبرى من ممالك المدن الكنعانية التي لا تزيد مساحتها على بضعة مئات من الكيلو مترات المربعة .

ومع ذلك ، فقد ذكر ان تجارة سليمان امتدت إلى البحار المجاورة عن طريق المراكب التي سيرها ، كما اهتم باستخراج الحديد والنحاس من وادي عربة . وإذا اعتمدنا على بعض المصادر الاسلامية وغيرها قلنا انه كان حكيما وان ملكه ازدهر من النواحي الأدبية والدينية على قدر يتناسب مع الزمن الذي عاش فيه. والواقع انه لم يكن من المعقول ان يبلغ حكمه اكثر من هذا إذا تذكرنا بأن الزهو الحضاري يحتاج إلى زمن ودأب . ومسافة الزمن بين دخول جماعات العبيرو إلى فلسطين وحكم سليمان قرنان فقط او اكثر قليلا . ولم تدخل جماعات يشوع بأي علم أو فن او ادب ، كي يستطيع سليمان او غيره ان يبني عليها تطوراً حضاريا .

هيكل سليمان

واشتهر سليمان ببناء « بيت الرب » او « الهيكل » على غرار « بيت بعل » او « الهيكل » أيضاً عند الكنعانيين . ويبدو انه اختار له مكانا مرتفعاً على طريقة الكنعانيين كذلك . وقد بناه على الرغم من معارضة أحبار اليهود



هيكل كنعاني من الداخل

على نمطه بنى سليمان هيكله . وقد بناه له الفنيقيون والكنعانيون العرب

وأنبيائهم . واستعان على بنائه بحيرام ملك الفنيقيين الذي أمـده بخشب الارز اللازم للبـنـاء وبالمعماريين والبنائين . وكان سليمان في الحقيقة مثل ابيه من قبله خاضعاً لفينيقيا من جهة ولمصر من جهة اخرى . وفي اثناء حكمه ضم حيرام مدنا عديدة من مدن فلسطين الشمالية إلى ملكه الفنيقي بعد ان كانت تابعة لملك سليمان .

وفي موضوع علاقة سليمان بالفنيقيين قالت الدكتورة كنيون :

« اخذ البحث في فلسطين يشير إلى قوة النفوذ الفنيقي الذي بدأ زمن داود، وكان هذا النفوذ في الواقع هو العامل الذي اثر في تعليم إسرائيل الحضارة .

« ولقد هيأ هذا النفوذ التربة اللازمة للتطورات الكبيرة التي وقعت أيام سليمان . وقلما نجد في الآثار ، أدبية كانت هذه ام اثرية ، ما يدل على تقـدم حضاري يذكر أيام حكم داود . أما في حكم سليمان فالأدلة الأدبية كثيرة ، لكن الادلة الأثرية قليلة » (١) .

وتكاد المصادر التاريخية تجمع على ان سليمان اقام مع الهيكل قصوراً ملكية له ولبعض نسائه كل ذلك على حساب الشعب والبلاد التي حكمها (٢) . وقـد سخر الناس تسخير العبيد وفرض عليهم الضرائب الباهظة فأدى ذلك إلى التذمر الشديد من حكمه . وقد تزوج نساء عديدات « اجنبيات » ، واذن لبعض منهن باحضار معبوداتهن الوثنية إلى القصور والهيكل ، فأثر ذلك على ديانـة المجتمع اليهودي ، فعاد اليهود فيما تصف التوراة والمصادر الاخرى إلى إلههم الخاص بهم وبقبائلهم ، بل عبدوا آلهة متعددة واوثاناً ، فتمزقت بذلك وحدتهم (٣) وأدى هذا فيما أدى إلى انقسام مملكة العبرانيين التي لم تعش أكثر من سبعين سنة ، إلى

---

(١) Arch. in the Holy Land, P. 244—5

(٢) Arch. in The Holy Land, p. 247

(٣) Epstein, Judaism, p, 37

مملكة « إسرائيل » في الشمال و « يهوذا » في الجنوب .

وبالنسبة للمكان « المرتفع » الذي بنى عليـــه سليمان الهيكل ، وبحث الصهيونيين اليوم على اثره ، على مثل هذا المكان المرتفع ايضاً ، نقول انالتوراة نفسها استنكرت في نصوص عديدة فكرة المرتفعات والمذابح التي تقدم عليــها الضحايا والقرابين .

ومن ذلك ما قاله رب إسرائيل لهم عندما تخلوا عن دينهم وعبدو آلهــــة الكنعانيين :

« وبنوا المرتفعات للبعل ... ليجيزوا بنيهم وبناتهم في النهار ... الامرالذي لم اوصهم به » ، (ارميا ٣٢/٣٥) .

ولما ارتد اليهود زمن سليمان إلى عبادة آلهة الكنعانيين هاجمت التوراة هذا الاتجاه ، فجاء في سفر الملوك الثاني :

« والمرتفعات التي قبالة اورشليم التي عن يمين جبل الهلاك التي بناها سليمان ملك إسرائيل لعشتورت رجاسة الصيدونيين ... نجسها الملك ، وكذلك المذبح الذي في بيت ايل في المرتفعة التي عملها يربعام الذي جعل إسرائيل يخطىء ... المذبح والمرتفعة هدمها ، واحرق المرتفعة وسحقها حتى صارت غباراً » ٢٣/١٣ — ١٥)[١]

ومع ذلك نرى الصهيونيين يبحثون في هذه الايام عن مكان الهيكل عــلى مرتفعاتالقدس ، ويلحون بخاصة على المرتفع الاسلامي فوق جبل موريا ، وهي مرتفعات يحرم الشرع اليهودي كما اشرنا بناء المعابد اليهودية فوقها[٢] .

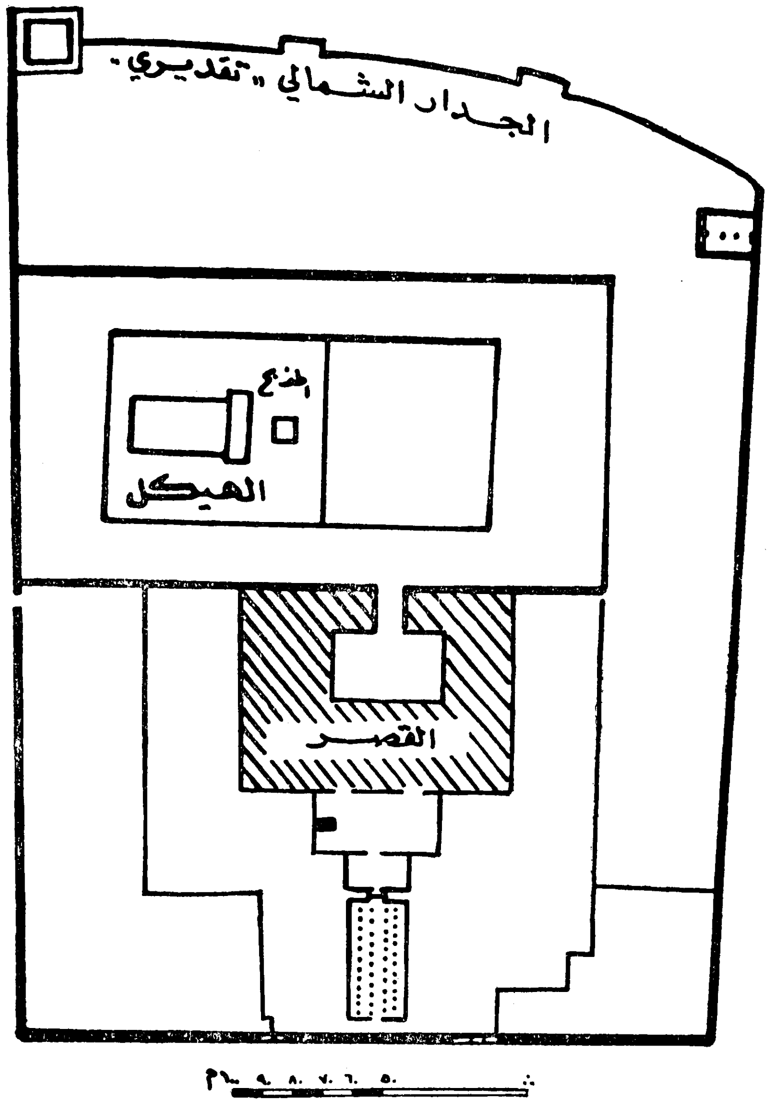
---

(١) ومثل ذلك نصوص الملوك الاول (٢/١٣ — ٣) وارميا (٢٢/٣٥) وهوشع (٧/١٠ — ٨) وغيرها .

(٢) بنى الكنعانيون بيوت آلهتهم على المرتفعات لاعتقادهم انها تكون بذلك اقرب الى الكون الاعلى الذي كانت تنطلق فيه ، وقد سموا بعــــل ، وهو اكبر آلهتهم (رب السماء) و (راكب الغيوم) . اما موقف العداء الذي اتخذه العبرانيون من الكنعانيين فمعروف وتشير اليه اصحاحات التوراة في آيات عديدة .

وفي موضوع حكم سليمان وحكمته والهيكل قال ه.ج.ويلز في كتابه « مختصر تاريخ العالم » :

« هنالك ما يدل على ان القصص البدائي الخشن ، والمقنع أيضاً ، المروي عن ملك سليمان واعمال القتل المختلفة التي ارتكبها ، وعلاقته بحيرام ، وعن قصره



الهيكل

هيكل سليمان من الخارج وبجواره المذبح . وقد بني ملحقاً بـ « القصر » الخاص بالملك.

والهيكل ، والإسراف الذي انهك مملكته حتى مزقها إلى اثنتين – كان قصصاً خاضعاً للانتحال والمبالغة ، خطته فيما بعد يد كاتب تحكمت فيه الرغبة في تضخيم حكم سليمان وتمجيد حكمته .

« ومن واجب الاعتراف للكلمة المكتوبة بقدرتها على قلب الحقائق الواضحة القول بأن الملك سليمان كان من ابلغ الناس حكمة وارفعهم مجداً . ولم تسيطر الكلمة المكتوبة بقدرتها هذه على المسيحيين وحدهم ، بل على العالم الإسلامي ايضاً »[١] .

ويستطرد ويلز فيقول :

« من المفيد ان نتصور في اذهاننا نسب الاشياء ، فان المجد الذي بلغه سليمان لم يكن إلا ملكاً صغيراً خاضعاً لغيره في مدينة صغيرة . وكانت قوته متزايلة إلى حد انه لم تمض إلا سنوات قليلة على موته حتى تمكن الفرعون شيشنق من الاستيلاء على القدس ونهب معظم ثروتها ومعالم ازدهارها. وان كثيرين من النقاد ليشكون في قصص التوراة الواردة في سفري « الملوك » و « الايام » ويقولون ان الكتاب اليهود المتأخرين قد اضافوها وبالغوا فيها بدافع من الكبرياء الوطني ... ان هيكل سليمان ، إذا امعنا النظر في مقاييسه يمكن إدخاله في كنيسة صغيرة لبلد صغير »[٢] و« كان طول الهيكل من الداخل ١٠٠ قدم وعرضه ٣٥ قدماً»[٣].

وفي موضوع صحة قصص التوراة تقول كنيون .

« لا شك في حاجتنا إلى علم الآثار للتدليل على صحة التوراة ، ولكن الحاجة تنشأ للمساعدة في إيضاح الاسفار القديمة من التوراة التي لا يمكن ، بسبب من طبيعة مصادرها ، ان تقرأ كسجل موثوق »[٤] .

---

(١) The Outline of History, p. 262

(٢) Wells , A Short Hist. of the World , p . 100

(٣) Wells , Out . of Hist , p . 263

(٤) Digging up Jericho , p . 266

ولا غرو في ذلك فقد كتبت اسفار التوراة على مراحل زمنية بعـــد عهد موسى . ومن اسفارها ما لم يكتب إلا بعد عودة اليهود من السبي في بابل ،اي بعد نحو ٧٠٠ سنة واكثر من عهد موسى وبعد ما يزيد على الف سنة من عهـد إبراهيم وبقية الآباء العبرانيين .

أما الهيكل فان جميع الحفريات الاثرية لم تعثر له على بقية . وتقول دائرة المعارف البريطانية [١] ، انه ليس من المؤكد ان الهيكل كان في حرم المسجد الاقصى ، خاصة وان تيطس عندما هدم المدينة سنة ٧٠ م لم يترك شيئاً قائما فيها ، وطمست سائر معالمها ، فالبحث عنه إذن عبث في عبث ، حتى ولو كان مكانه في الحرم . وقد اكثر الاثريون من القول بأنهم لا يجدون حـين يبحثون وينقبون شيئاً يذكر بالنسبة للاثار الاسرائيلية . وقد اشرنا إلى السبب ، وهو ان الإسرائيليين الذين دخلوا فلسطين كانوا بدوا بسطاء لا ثقافة لهم ولا حضارة. ولم يطل حكمهم في البلاد لينشأ لهم تراث يذكر في الفن أو البناء أو الحضارة . وما أقاموه من البناء بمساعدة الفنيقيين اندثر بفعل التخريب المتعمد الذي تعرضت له المدينة . وكان أمر قيصر الصادر لتيطس ان المدينة كلها والهيكل يجب أن يدمرا إلا الأبراج العليا من السور ، والقسم المحيط منه بغربي المدينة ، وما عدا ذلك لم يترك منه ومن المدينة ما يشير لمن جاء من بعد إلى أن المدينة كانت معمورة من قبل ، إطلاقاً » [٢] .

ويقول الدباغ : « ان معبد سليمان لم يكن معبداً لجميع اليهود ، إلا في عهـد سليمان ، ومعبداً لأقلية منهم في عهد خليفته وولده رحبعام ، حيث وجـه الإسرائيليون وجوههم نحو معبدين ... الأول في بيتين شمال القدس والثاني في دان – تل القاضي ، شمالي فلسطين ، كما وان السامريين ، وهم طائفة يهوديةتعتقد

---

(١) مجلد ١٣ ، ص ٦٠ .

(٢) Bliss and Dickie, p. 305

بأن الهيكل بني منذ البدية فوق جبل جرزيم في ظاهر نابلس »[١] .

ويبـــدو ان اليهود ايام ملك سليمان لم يكونوا لينظروا إلى الهيكل نظرة القدسية التي يتظاهر الصهيونيون بها الآن. ففي الاحتراب الذي استعر بين مملكتي إسرائيل في السامرة ويهوذا في القدس ، لم يتورع جيش مملكة السامرة في إحدى حروبه مع مملكة القدس زمن ملكها أمصيا من ان يهدم جزءاً من سور المدينة المقدسة وان ينهب ما في الهيكل والقصور من كنوز الذهب والفضة . ولم تعترف مملكة إسرائيل بهيكل سليمان في القدس ، بل اتخذت لنفسها هيكلا خاصاً في السامرة .

وكذلك اليهود الذين ارتحلوا من السبي البـــابلي إلى مصر ، لم ينظروا إلى الهيكل الذي بني في القدس إلا انه معبد من المعابد . فان « أعمال الحفر والتنقيب الحديثة قد كشفت لنا أوراق جالية عبرانية في جزيرة الاليفانتين بمصر تبين منها ان المسبيين من اليهود لم يبلغوا المثال الاعلى ولم يجعلوا قلوبهم هياكل ليهوه لأنهم بنوا هيكلا في مصر ومارسوا فيه عبادة الههم »[٢] .

وتقول الباحثة كنيون : « اقام داود وسليمان ملكية اوتوقراطية... يرافقها إله كان سكنه موقتاً مثل سكن شعبه »[٣]

كما تقول : « إن مملكة إسرائيل المتحدة لم تعش اكثر من ثلاثة أرباع القرن. وكانت هذه هي الفترة الوحيدة التي ظهر فيها اليهود بمظهر القوة السياسية المهمة في غربي آسيا . وقد سجلت مآثر هذه الفترة في التوراة تسجيل عزيز منتصر ، وأثرت على الفكر والمطامح اليهودية تأثيراً عميقاً . ومع ذلك فان الدليل الاثري على وقائع هذه الفترة هزيل إلى أبعد حدود الهزال »[٤] .

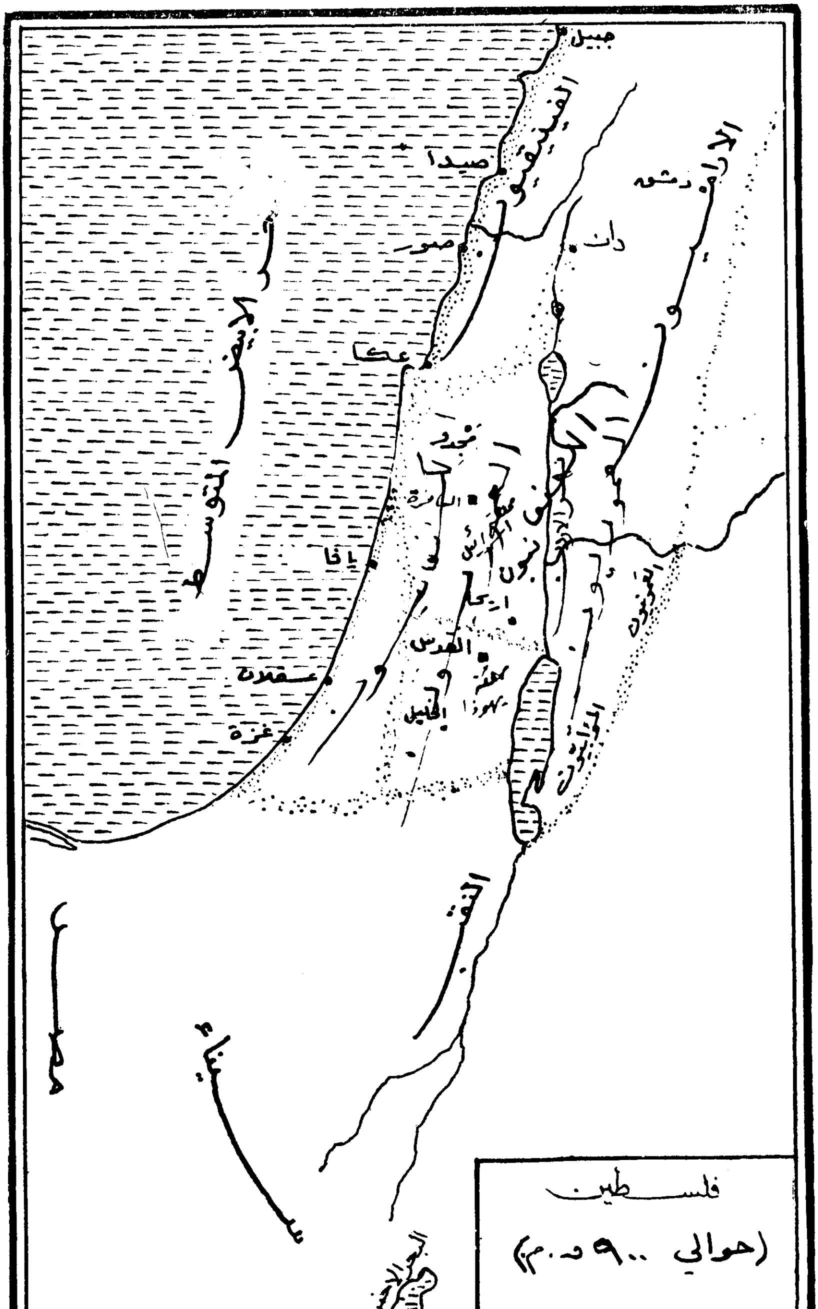
---

(١) بلادنا فلسطين ، ص ٥٦٠ .

(٢) برستد ص ١٦٢ .

(٣) Jerusalem p. 58

(٤) Kenyon, Arch. in the Holy Land, 1970 p. 240



فلسطين بعد انقسام مملكة القدس

اقصى ما يمكن ان يكون قد وصل اليه امتداد الجماعات الاسرائيلية . وظل سكان البلاد الكنعانيون وغيرهم من العرب مقيمين فيها لم يبرحوها . ولم تزد مملكتا اسرائيل في السامرة ويهوذا في القدس على ممالك المدن الكنعانية شيئاً من حيث السكان والمساحة .

مملكتا اسرائيل ويهوذا

بعد موت سليمان دب التفسخ والانهيار في مملكته التي اقيمت في القدس . وقد جاء ذلك حصيلة الانقسام الداخلي بين اسباط اليهود، ونتيجة الهجمات المتكررة عليها من الخارج . والواقع ان نفوذ مصر في البلاد لم ينعدم حتى في اثناء حكم داود وسليمان ، كما اشرنا . ولذلك نرى الفرعون شيشنق يحتل القدس بعد موت سليمان بسنوات قليلة ويستولي على أموالها و كنوزها .

وكما قاوم سكان البلاد الاصليون هجوم داود على القدس وفتحها ، فقد قاوموا احتلالها كذلك ، ولذا لم تمض إلا نحو خمسين سنة على موت سليمان حتى استعاد اليبوسيون القدس ، سنة ٨٩٥ ق.م. واستولوا على خزائنها [١] وحكموها فترة من الزمن .

ثم انقسمت المملكة إلى قسمين : قسم في الشمال دعي « مملكة إسرائيل » ، وعاصمته السامرة بجوار نابلس ، وقسم في الجنوب دعي « مملكة يهوذا » وعاصمته القدس . ولم يكن اي من المملكتين ليزيد على « مملكة المدينة » الكنعانية . وما ان نشأت هاتان المملكتان حتى اشتد الخلاف وبرز التنافس والتطاحن بينهما . وعلى الرغم من ذلك استمرت مملكة إسرائيل في السامرة من سنة ٩٢٣ إلى سنة ٧٢٢ ق.م ، عندما استولى عليها الأشوريون . وكان الملك سرجون الثاني هو الذي انهى حكم اليهود في السامرة ، وسبى قسما من اهلها إلى اشور .

اما مملكة يهوذا في القدس فقد بقيت من سنة ٩٢٣ إلى ٥٨٦ ق م. ، اي انها دامت ثلاثمائة سنة ثم اندثرت ، إذ هاجمها نبوخذ نصر ملك بابل الكلداني إثر تمرد يهوذا عليه ، فحاصر القدس ثم افتتحها سنة ٥٨٦ ق. م. ، وحرق الهيكل وخرب معالم المدينة ، وسبى زعماء المملكة وقسما من سكانها إلى بابل ، واصبحت القدس بعد ذلك تابعة للكلدانيين الذين كانوا قد ورثوا مملكة اشور فيما بين النهرين.

---

(١) عارف العارف ، ص ١٥.

وقد شارك سكان فلسطين العرب في تقويض الغزو العبراني وما أنشأ من ممالك بصورة تلفت النظر حقاً ، إذ ثابروا على المناوشات المستمرة بل على الحروب المستديمة التي تشبه حرب الاستنزاف الحديثة .

قال غيوم « يعلم الجميع ان خطة الاستنزاف استمرت حتى انحسرت مملكة يهوذا في بضع مئات من الأميال المربعة حول مدينة القدس ، وحتى هذه استولى عليها البابليون »(١) .

وفي أثناء إقامتهم في بابل فكر اليهود ملياً في شؤون ديانتهم ، واخذ كبارهم هناك ينتهون لأول مرة إلى عقيدة التوحيد الصافية التي لم يبلغوها من قبل . وتلك العقيدة هي التي ضمنوها أخيراً التوراة التي جمعوا فيها كتابات أسلافهم واقوالهم وتقاليدهم . ولم يتم هذا الجمع بأكمله إلا بعد بدء التاريخ المسيحي(٢).

ومرة اخرى يلخص هـ . جـ . ويلز فترة المملكتين اليهوديتين فيقول :

« يصبح تاريخ ملوك إسرائيل ويهوذا تاريخ دولتين صغيرتين واقعتين بين شقي رحى ، احدهما في الشمال ، سورية ثم اشور ثم بابل ، والآخر في الجنوب وهو مصر . وكانت قصتهم فواجع لاتنتهي إلا بفواجع . قصة ملوك بربريين يحكمون شعباً بربريا »(٣) .

وفي مكان آخر قال « ان الحقيقة البسيطة هي ان اليهود ذهبوا إلى بابل بربريين وعادوا منها متحضرين »(٤) .

« وفي بابل جمع اليهود تاريخهم وكونوا تراثهم ... وقد كان الشعب الذي عاد إلى القدس باذن من قورش مختلفاً جداً في العلم والروح عن الشعب الذي ذهب

---

(١) Palestine and the Bible. p. 16

(٢) برستد ص ، ١٦٤ .

(٣) H. G. Wells, Short Hist. p. 101

(٤) H.G. Wells, The Out. of Hist . p.265

إلى السبي . لقد تعلم الحضارة »[١] .

وبصدد وضع اليهود أثناء حكمهم القدس والسامرة ووقوعهم بين شقي الرحى، قال هـ . ج . ويلز في كتابه الكبير « موجز التاريخ » :

« كانت قصة حروب وصراع واغتصاب وقتل بين الأخوة الحاكمين والناس، ليستولي بعضهم على عروش بعض، استمرت ثلاثة قرون . انها بصراحة قصة حياة بربرية ... ولمدة قرون ثلاثة ظلت حياة العبرانيين أشبه بحياة رجل يصر على ان يعيش وسط طريق مزدحم فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار»[٢].

وتنتهي عند هذا الحد قصة حكم اليهود في فلسطين . فلما عادوا من السبي لم يكن لهم شأن سياسي وظلت محاولاتهم الاستيلاء على الأرض تحت ضغط المقاومة المستمرة يبديها سكان الأرض الكنعانيون وبعض من بقي فيها من الحثيين والفلسطينيين، وتحت رحمة الغازين المتحكمين من الفرس ثم اليونان ثم الرومان. وعند هذه المرحلة يتوزع اليهود في فلسطين بأعداد قليلة مختلطين بالسكان اختلاطهم بهم في بلاد العالم الأخرى .

غير ان حركة واحدة قامت فيما بعد فجددت ذكرهم ثم ما لبثت ان تلاشت، وهي حركة المكابيين . فان اسرة يهوذا مكابيوس احد رجالهم البارزين ثارت على ظلم الحكم اليوناني وعلى العموريين السوريين الذين استعادوا القدس . فقد اضطهد انطوخيوس الرابع اليوناني اليهود ومنعهم من ممارسة بعض طقوسهم الدينية، مثل الاختتان، وطقوس السبت ... الخ . واشتد في اضطهاده فأباح القدس والهيكل للسلب والنهب، فثار اليهود على ذلك، ودبر يهوذا المكابي حملة استطاع فيها أن يحتل المدينة، سنة ١٦٥ ق.م. ، ويقيم فيها حكما ذاتياً متسما هذه المرة بالحرية الدينية . وتعاقب الحكام والرؤساء اليهود في القدس في محاولة للحكم اتصفت كالعادة بالتفسخ والتدابر والاقتتال، كما اتصفت بالانصراف عن

---

(١) H.G. Wells, Short Hist., p. 101

(٢) H, G. Wells, the out, of Hsit , p. 263

عبادة يهوه . وظل الحال على هذا المنوال حتى جاء بومبي القائد الروماني وأجهز على بقايا هذا الحكم الذي لم يدم إلا نحومائة سنة ولم يشمل إلا أجزاءمن فلسطين أما سواد الشعب في القدس وغيرها فظل يبوسياً كنعانياً .

بذلك زال الحكم الذي حاولت الجماعات والقبائل اليهودية أن تقيمه في فلسطين ، كما زال من قبل حكم الهكسوس والحثيين والحوريين والفلسطينيين ، وظل الكنعانيون والعموريون وغيرهم من القبائل العربية خلال ذلك كله سكان فلسطين الأصليين ، يقيمون في البلاد جيلا بعد جيل على الرغم من تعاقب الغزاة والطامعين ويحاول الاسرائيليون ومن يشايعهم ان يوهموا بأن تاريخ فلسطين قبل الفتح العربي الاسلامي إنما هو تاريخ شعب عبري يملأ جوانبها وأزمانها .وقد آن الأوان لكشف النقاب بأساليب العلم عن هذه الأوهام ، وكتابة التاريخ على حقيقته للتخلص من هذا الافك الرازح على العقول والنفوس ، والرسو من ثم على حقائق التاريخ الصحيح في هذه الحقب والعهود .

الفصل الرابع عشر

حكم الغزاة المتعاقبين على القدس وفلسطين

بعد زوال سيطرة الكنعانيين السياسية على مدنهم (مع بقاء الشعب في البلاد) وبعد التخلص من التدخل العبراني بمحاولاته الغازية المختلفة ، حكم الاشوريون والبابليون والمصريون فلسطين فترات متعاقبة وكان حكمهم على العموم متسما بالرفق ، سواء أكان ذلك الحكم متعلقاً بفلسطين أم بقطر واحد منهم حين يستولي على الآخر . لقد كانوا بحكم وجودهم أصلا في البلاد واستقرارهم فيها لا يهتمون إلا بطرق التجارة وجمع الضرائب ، ولذلك كانوا يتطلبون من السكان الولاء السياسي [1] ، دون أن يكون لهذا الولاء مظهر من الغطرسة والتحكم ، ناهيك عن البطش والحرق والقتل والتدمير ويعود ذلك إلى أواصر النشأة وتشابه اللغة والديانة والاتصال عن طريق التنقل والهجرات بين قلب الجزيرة وأجزاء الهلال الخصيب ، من الشرق في العراق إلى الوسط في سورية إلى الغرب في فلسطين ، وبالعكس ذلك ان توسع الاشوريين والبابليين والمصريين إنما كان

(١) البرغوثي وطوطح ، ص ٤٩ .

حركات امتداد ليس لها هدف السلب والتدمير والاستيطان على حساب السكان الأصليين . أما غزو العبرانيين واليونان والرومان وبعض الطارئين على البلاد فيما بعد فشيء مختلف ، لأنه كان يهدف إلى السيطرة عليها والاستيطان فيها وطرد أهلها منها أو تحويلها إلى مقاطعات من طراز البلد الأم . كان محاولة للاستيلاء اصحابها من خارج البلاد أو خارج قلب جزيرة العرب والهلال الخصيب .

حكم الاشوريين والبابليين والفرس

لقد حكم الأشوريون البلاد فترة من الزمن استمرت من سنة ٧٣٠ ق . م . إلى سنة ٦٤٥ ق.م.

ثم تخلوا عن الحكم للبابليين .

ومع ذلك فقد ظلت فلسطين طوال حكم الاشوريين والبابليين تحت النفوذ المصري ايضاً ، يضعف تارة ويشتد اخرى . وكان هدف المصريين من ذلك الاستيلاء على طرق التجارة وجمع الضرائب .

ومما يجدر ذكره عن هذه الفترة ان الكتابة المسمارية اخذت تنتشر في فلسطين ابان حكم البابليين لها . وشاعت اللغة البابلية (لهجة من العربية الاولى) في الحكم والتجارة . أما لغة الكلام بين الناس فقد ظلت الكنعانية (٢) .

واستمر وجود البابليين إلى أن غزا الفرس البلاد وحكموها وقد استمر حكم الفرس هذا من سنة ٥٣٩ إلى سنة ٣٣٢ ق.م.

وفي أوائل الغزو الفارسي أذن قورش ملك الفرس لليهود المسبيين ، ابتداء من سنة ٥٣٦ ق.م. ، بالعودة إلى فلسطين ، فعاد منهم عدد وتأخرت أعداد . وقد رغب قورش في عودة أهل السبي ليستفيد منهم فيما كان يفكر فيه من غزو مصر ، وغزو اراض غيرها من الهلال الخصيب ، وكذلك غزو آسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط . ويبدو انه وعدهم بحقوق مواطنة في فلسطين

---

(١) عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص ١٨ .

إذا هم أقاموا فيها [١] . وقد تم للفرس ما أرادوا ففتحوا مصر على يد ملكهم قمبيز الذي ضم مصر إلى مملكة فارس . وقد عمل اليهود المقيمون في فلسطين فعلا على تسهيل الغزو الفارسي لمصر وفلسطين ، فشبه بعض المؤرخين فعل قورش هذا بفعل « لويد جورج وبلفور اللذين « اعطيا » فلسطين وطناً قومياً إلى اليهود » [١] .

ومع ان قورش كان زرادشتي الديانة فقد ادعى لليهود المسبيين ان « الإله » اوصاه بأن يبني بيتاً لله في اورشليم . وحث اليهود على العودة ليقيموا البيت هناك أما من بقي منهم في ارض الشتات فيتبرع من مكانه بالذهب والفضة والبهائم (عزرا ١/١–٤) .

ومن الغريب ان السكان العرب وغيرهم في فلسطين عارضوا ايضاً عودة اليهود من السبي للقدس و « غضبوا جداً » عندما عاد هؤلاء وقد بدت المعارضة مثلا عندما قاوم السكان بالعنف محاولة اليهود ترميم أسوار القدس ، واخذ هؤلاء السكان يهاجمون العمال اليهود ، فعمد هؤلاء إلى تخصيص نصف العمال للترميم ونصفهم « يمسك الرماح من طلوع الفجر إلى ظهور النجوم » حماية لمن يقوم بالترميم ،(نحميا ٤/٧–٨و٢١) . ومما تجدر الاشارة اليه ان التوراة في مطلع هذه الآيات تستعمل كلمة « العرب » لا كلمة « الكنعانيين » كما عهدناها في الغالب .

حكم اليونان والرومان

ثم انزاح الحكم الفارسي عن البلاد ، كما كان مقدراً ، وحل محله الحكم اليوناني سنة ٣٣٢ ق م. بقيادة الاسكندر . وقد فتح الاسكندر القدس واخرج الفرس منها ومن البلاد قاطبة ، ولاحقهم حتى غزا بلادهم نفسها

---

(١) Barbour , Nisi Dominus p. 18

(٢) البرغوثي وطوطح ، تاريخ فلسطين، ص ٤٧.

وقد حاول الاسكندر ومن جاء بعده محاولة « استعمارية » ملحة ، وهي ان يدمج اليونانيين بأهل فلسطين ، بنقل جماعات من اليونان إلى فلسطين وحملهم على التزاوج والاختلاط ، بغية تحويل البلاد إلى ولاية يونانية . ولكنه لم يفلح ، وظلت البلاد على طبيعتها الكنعانية العمورية في المعيشة والعادات والديانة وغيرها ، وعلى لغتها الآرامية التي كانت سائدة آنئذ. وقد حاول اليونان عموماً نشر لغتهم أيضاً ، فلم يقبل عليها الأهالي ، ولم يتأثر بها إلا عدد محدود من الطبقة الخاصة وحلقات الأدباء ، وعجزت عن مزاحمة لغة البلاد ، بل تغلبت هذه على اللاتينية والعبرية معاً (١) .

وفي هذه المحاولة ومثلها قال برستد « ان التأثير اليوناني ... لم يسر على السواء في جميع انحاء البلاد ، بل كاد ينحصر في المدن فقط ، فلم يتأثر به كثيراً سكان القرى والدساكر الذين آثروا البقاء على عاداتهم السامية القديمة والنطق بلغات آبائهم والاحتفاظ بتقاليدهم وافكارهم . وسنرى كيف ان الساميين ابتلعوا غير الساميين الذين حلوا بينهم وطمسوا آثارهم » (٢) .

ثم استولى الرومان على البلاد سنة ٦٣ ق.م. وذلك بعد مقاومة شديدة من سائر السكان . ودخل القائد بومبي القدس عنوة بعد حصار وقتال واتخذ الرومان قيسارية مقراً لحكمهم بدل القدس. وفي اثناء حكمهم ظهر السيد المسيح بدعوته فساعده الحكم الروماني آنئذ على نشر الدعوة ، ولكن اليهود قاوموه كما هو معلوم . اما السكان الكنعانيون (والفنيقيون في الشمال) فلم يعارضوه ومنهم من نصره وايده وآمن به . وفي اثناء هذا الحكم ايضاً ، وعلى اثر فتنة وقعت بين من بقي من اليهود في القدس ، حمل القائد الروماني تيطس سنة ٧٠ م . على القدس وحاصرها حصاراً شديداً ، وضيق الخناق عليها ، فأصاب سكانها الجوع والموت ، ثم افتتحها ، وقتل معظم من فيها من اليهود ، واستباح كنوزها ودمر

(١) البرغوثي وطوطح ، ص ٧٧ .
(٢) برستد ، ص ٣١٥ .

الهيكل وقضى على سائر ما كان فيها من المعالم اليهودية .

وانتهى عهد الرومان سنة ٦٣٧ م . لقد انهته موجة جديدة للعرب اندفعت كسابقاتها من قلب الجزيرة إلى الهلال الخصيب . وكان العرب المسلمون في ظل الراية الاسلامية هذه المرة هم اصحاب الموجة ، فدخلوا البلاد بعد مقاومة عنيفة من الرومان وبعض من شايعهم من السكان ، وبترحيب من معظم السكان الذين عرفوا في العرب القادمين ارومتهم على الرغم من ان حكم اليونان والرومان معاً دام مدة تقرب من الف سنة .

ودخل عمر بن الخطاب القدس سنة ٦٣٨ م دون حرب [١] ، بل بطلب من رجال الدين المسيحي فيها آنئذ ليسلموه هو المدينة . وقد تسلمها موقعاً عهدته العمرية المشهورة لأهل القدس (ايلياء)، عهدة تدل على نضج حضاري واخلاص ديني وسماحة عربية . انهاعهدة تورد إلى الخاطر ، بطريق ارتبـــاط النقيضين ، صورة العقلية البربرية التي اقتحم بها يشوع مدينة اريحا ، قبل ذلك بنحو خمسة عشر قرنا

وكان عمر يعرف القدس وفلسطين وما حولها ، فقد سبقته اليــها هجرات العرب الكنعانيين (واليبوسيين) والانباط والغساسنه والمناذرة وغيرهم ، كما عرفها عن طريق إسراء محمد اليها وايفاد النبي في حياته جيشاً لفتحها . وعرفها ايضاً حين كانت قبلته الاولى في الصلاة وقـــد ساعدت هذه الروابط العرب المسلمين على سرعة فتح البلاد التي كانوا مشتركين مع سكانها بنسب جنسي قرب او بعد [٢] .

---

(١) كانت هذه المرة الوحيدة في تاريخ القدس ، السابق واللاحق ، التي لم ترق فيها قطرة دم واحدة .

Hitti, Hist. of the Arabs , p 214(٢)

الفصل الخامس عشر

عروبة فلسطين والقدس

١ ـ من واقع التاريخ

عرضنا في الفصول السابقة مراجعة سريعة لتاريخ فلسطين والقدس قبل الإسلام .

ونحن هنا لا نتعرض لهذا التاريخ بعد الاسلام لأنه تاريخ معلوم ، ولا تتخذ منه الصهيونية متكأً لحجتها الواهية في اطماعها الاستيطانية الاستعمارية في فلسطين ، مع ان واقع هذا التاريخ العربي الصريح وحده ، ومضي ثلاثة عشر قرناً عليه ، يكسب العرب في فلسطين حقاً لا يمكن الجدال فيه .

ولعله قد اصبح واضحاً الآن ان طبيعة « جزيرة » العرب ، بما فيها الهلال الخصيب ، كانت سبباً رئيسياً في الاحداث التاريخية التي وقعت في المنطقة خلال تاريخها الطويل ، وابرزها محافظة البلاد على اساسها السكاني ، العربي .

ان ملاءمة الأرض والمناخ لحياة البشر في بلاد العرب يسرت تطور الانسان من الحالة البدائية التي نشأ فيها إلى الحالة الحضارية التي عرفناها ، والتي ما يزال تاريخ البشرية خاضعاً لها . ومن المرجح جداً أن تكون مظاهر هذا التطور قد وقعت في جزيرة العرب قبل ان تقع في اوروبا او اية بقعة من العالم ، بخطوة

واحدة في كل مظهر . ومن المؤكد انها سبقت العالم في بعض المظاهر الأساسية مثل الكتابة . وكان لفلسطين ذاتها حظ في التقدم على بقية بقاع الجزيرة العربية في بعض نواحي هذا التطور .

وقد قسمت جزيرة العرب بمعناها الواسع إلى قسمين ، قسم يهيء العنصر البشري في المقام الأول ، وقسم يهيء ظروف المعيشة اللازمة لإنشاء الحضارة وتطورها . وهذان القسمان هما قلب الجزيرة والهلال الخصيب .

فقد كان قلب الجزيرة يرسل القبائل العربية في موجات من الهجرة تتدفق بين آونة واخرى ، وتنتشر على مسافات شاسعة ، بأعداد كبيرة ، على النحو الذي شرحناه في الفصل الثاني من هذا الكتاب

لذلك لم يكن من قبيل الصدفة ان سبقت البلاد العربية بقية بلاد العالم في الحضارات الاولى ، فقامت فيها حضارة الحرزيين في وادي النيل وحضارات الكلدانيين والاشوريين والبابليين والعموريين والكنعانيين واليبوسيين والفنيقيين والآراميين والانباط وغيرهم من القبائل العربية التي ظهرت بعد ذلك في مصر والعراق وسورية ولبنان وفلسطين .

ولم تكن تلك القبائل العربية والشعوب والجماعات قبل التاريخ المدون تحس بوحدتها العرقية وتجانس اصولها ، لأن تلك العصور لم تكن عصور قوميات وإنما كانت عصور قبائل وعشائر واسر بدوية ثم تجمعات قروية ، وبعدئذ ممالك مدن حضرية ، وامبراطوريات سميت بأسماء قبائلها واسرها . يضاف إلى ذلك ان الصلة بين هذه القبائل والشعوب من كلدانية وبابلية وعمورية و كنعانية وآرامية لم تكن معروفة ، وكان على المؤرخين الاجانب الذين تولوا البحث عنها ان ينتظروا إلى اواخر القرن التاسع عشر حين اكتشفت الآثار المختلفة في مصر والعراق وسورية ولبنان وفلسطين ليتبينوا ان هذه القبائل والشعوب ترتد إلى « شعب واحد ومكان واحد » .

ومع ان سائر القبائل خرجت من قلب جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب

وكانت « عربية » الأصول ، إلا ان مصطلح « العرب » كدلالة عرقية شاملة لتلك القبائل لم يستعمل إلا في مطلع الألف الأول قبل الميلاد ، مع ان حضارات تلك القبائل بدأت تتميز عن غيرها من الشعوب قبل ذلك بآلاف عديدة من السنين .

ولقد لفتت هذه البقعة من العالم أنظار سكان الأرض الآخرين ، وبخاصة فيما يلي الجزيرة من بلاد فارس وآسيا الوسطى وآسيا الصغرى واليونان ، فأخذت هذه تنافس الشعوب العربية الناشئة ، الآخذة بأسباب الحضارة ، المتمتعة بثمارها من إنتاج وثروة ، كما أخذت تطمع في ارضها وكنوزها وخيراتها ومع ان الجزيرة والهلال بقيا في الغالب المجال الحيوي التاريخي للشعوب العربية وحدها ، فان الهلال كان عرضة لغزوات متعددة أعاقت بين حين وآخر سير هذه الحضارة وتقدمها ، وإن كانت قد أفادته في بعض الحالات .

وقد قام بهذه الغزوات شعوب وجماعات من وراء الجبال والبحار ، مثل الحثيين والحوريين والفلسطينيين ، وشعوب وجماعات اخرى من وراء الجبال وبقاع مختلفة من داخل الهلال الخصيب نفسه ، مثل الهكسوس والعبرانيين .

ولما كانت فلسطين واقعة بين امبراطوريات وادي النيل من جهة ووادي الرافدين من جهة اخرى ، فقد كانت كثيراً ما تتعرض لامتداد نفوذ واحدة منهما إلى الأخرى . وكانت سيطرة مصر ، بحكم الجوار ، أطول من سيطرة دول الرافدين ، أو سورية .

• • •

ويرى بعض المؤرخين الأثريين ومنهم اولبرايت وهاملتون ان ما يسمونه العرق « السامي – الحامي » قد تواجد في فلسطين منذ عشرة آلاف سنة قبل الميلاد [1] ، ويظنون ان الشق « السامي » منه انحدر بعضه إلى قلب جزيرة

Albright, Archaeology of palestine, p. 179 (١)

العرب ثم عاد فخرج منها . على ان الكثرة الغالبة من الباحثين ترى ان حركة ما يسمونه العرق « السامي » كانت عكس ذلك ، أي ان الشعوب «السامية» نشأت في قلب الجزيرة ، ثم هاجرت منها إلى فلسطين والهلال الخصيب . وقد يكون بعض تلك الهجرات تم في هاتيك الأوقات المبكرة قبل التاريخ ، ومنها هجرة يمانية قديمة أو هجرة كنعانية مثلها فيكون ما نسميه « إنسان فلسطين » أو « إنسان البحر المتوسط » إنسانا عربياً معظمه أو بعضه . على ان هذه الناحية من الموضوع ما تزال بحاجة إلى اكتشاف اثري وبحث دقيق حتى يمكن التوصل فيها إلى رأي قاطع ومن الحضارات التي أقامها الإنسان في فلسطين في تلك الحقب (٦٠٠٠ – ٣٠٠٠ ق.م.) ، وحضارة أريحا وحضارة النطوف والغسول وغيرها ، التي أتينا على طرف من ذكرها .

على أن تواجد العرب الكنعانيين في فلسطين وجنوبي لبنان وأجزاء من سورية منذ ما قبل الألف الثالث قبل الميلاد أمر مقرر ، تدل عليه المدن التي بنوها والآثار التي خلفوها والحضارات التي شادوها . والمظنون ان هذه الحضارات بدأت من مدينة جبيل ، شمال صيدا . وقد انتشر الكنعانيون في فلسطين بأعداد كبيرة وأحدثوا فيها تطوراً شاملا حتى سميت فلسطين (وما جاورها مباشرة) «أرض كنعان » ، وهي التسمية التي تطلقها التوراة نفسها . وقد أطلق على الكنعانيين الذين عمروا ساحل لبنان اسم « الفنيقيين » . وكان « اليبوسيون » ، الذين يعتبرون بطناً من الكنعانيين ، هم الذين عمروا القدس وما حولها وذلك حوالي ٤٠٠٠ ق م.

ولم يؤثر في طبيعة هذا التواجد الكنعاني العربي ما تعرضت له فلسطين من غزوات الشعوب والأقوام المختلفة ، كالحثيين والفلسطنيين وغيرهم . فقد كانت هذه تستقر في البلاد على نحو ماشاهدنا في الاستعمار التركي الذي انتهى سنة ١٩١٨ والاستعمار البريطاني الذي انتهى سنة ١٩٤٨ كلاهما كان يحكم البلاد بحكام منه محصوري العدد ، وبلغة يفرضها على المعاملات الرسمية والمخابرات ، ولكن سواد

الشعب يظل على نسبه الجنسي وتركيبه الاجتماعي ولغته الخاصة . وفي حالة الشعوب العربية كان الغالب أن تكون هذه مؤثرة في الشعوب والدول الغازية والمستعمرة ، وليس العكس . وذلك راجع في الأرجح إلى عزلة قلب الجزيرة وقسوة طبيعتها وسبق حضارتها ، مما جعلها في موقف المؤثر اكثر منها في موقف المتأثر .

وقد بدأت قصة إبراهيم في أوائل الألف الثاني ق.م. ومن هذه القصة وغيرها نعرف كيف كانت البلاد ممتلئة بالسكان العرب في سائر أرجاء الهلال الخصيب . ومنذ ما قبل الألف الثاني هذا بزمن طويل كان الكنعانيون العرب مواطني فلسطين الأساسيين . والصورة الشاملة التي ترسمها الدكتورة كنيون في فلسطين خلال هذه الفترة الأخيرة (العصر البرونزي) هي صورة السيادة الشاملة للحضارة الكنعانية [١] ، حتى سنة ٤٢٠٠ ق م. ويؤيد توينبي هذا الوجود العربي المستمر عن طريق الأسماء الشخصية ، كنعانية كانت هذه أو عمورية ، وذلك بين سنتي ٢٠٠٠ و ١٧٥٠ ق.م. [٢] . وتدعم المراجع العربية الاصلية هذا الوجود وتورد تفاصيله وجزئياته .

وقد استمر الوجود العربي في فلسطين على هذه الصورة يردفه من سورية والعراق الوجود العربي الآرامي واللغة البابلية (بالخط المسماري) التي كانت اللغة الرسمية في فلسطين أثناء القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وفي هذا القرن وما حواليه نجد الحفريات تؤيد هذا الوجود كل التأييد نظراً لغزارتهاوقرب العهد بها، وهو وجود يوصف بالاستقرار والطمأنينة ومظاهر الحضارة الزاهرة ، كما أسلفنا في هذا الكتاب . ويحب جون برايت ان يؤكد هذه الحقيقة التاريخية وهو يتحدث عن حضارة الكنعانيين فيقول : يجب ان نؤكد ، ونكرر التأكيد ، ان

---

(١) Digging up Jericho , p . 228

(٢) A Study of History, vol. 12. p. 416

العصر الذي ظهرت فيه اصول إسرائيل كان عصراً ذا ثقافة واسعة»[1] .

ولكن هذا الاستقرار وتلك الحضارة والثقافة والفن أقلقها وأزعجها الغزو العبراني الذي وقع على فلسطين حوالي سنة ١٢٦٠ ق.م. وقد بدأ العبرانيون به كعصابات غزت أريحا أولا ثم بعض المدن والقرى في جهات رام الله والخليل . وأسست ملكاًفي القدس دام سبعين سنة ، من ١٠٠٠ ق.م إلى ٩٣٠ ،ثم انقسمت الدولة إلى قسمين أحدهما في القـــدس دام من ٩٢٣ إلى ٥٨٦ ق.م والآخر في السامرة دام من ٩٢٣ إلى ٧٢٢ ق.م. ولم يصبح اليهود أكثرية في فلسطين كلها ولا حكموا سائر البـــلاد التي تقع ضمن حدودها التي نعرفها اليوم . ثم اقاموا حوالي سنة١٦٥ ق.م. حكماً ذاتياً في القدس عـــلى ايدي المكابيين دام نيفاً ومائة سنة (١٦٥ - ٣٧ ق.م.) وبعدئذ انتهى حكم اليهود فيفلسطين.وفيفترات حكمهم هذه كانوا في الحقيقة تحت نفوذ الفنيقيين والمصريين واليونان ، كما كانوا غير مستقرين بسبب مقاومة السكان الكنعانيين والعناصر الأخرى . هذا وقد عاشوا في تلك الفترات في بلاد شعب هو أرقى منهم . لذلك نجدهم يقتبسون لغة الكنعانيين وحضارتهم فالعبرية لغة مقتبسة من الكنعانية والآرامية وحروفها مقتبسة من الكنعانية ، كما نجدهم يقتبسون الشعر والأدب والعادات الاجتماعية والأزياءرالطعاموالبناء.واهم من هذا وذاك يقتبسون ديانة الكنعانيينوشرائعهم وآدابهم على نحو ما رأينا في ألواح ماري ، واوغاريت ونوزي وغيرها ، ممادخل في تضاعيف التوراة نفسها .

٢ ـ من التراث اللغوي

لقد دللنا على سيادة الشعب الكنعاني العربي في فلسطين منذ بدء التاريخ بشواهد من الأحداث التاريخية المدونة ، المعززة أحيانا كثيرة بالوثائق الأثرية العديدة . واستدللنا أحياناً بالتركيب الجسماني لهذا الشعب .

---

(١) Bright A Hist. of Israel p. 108

والآن نعرض بايجاز للدلالة اللغوية التي تعتبر ناحية مهمة جداً في إثبات الانتماء إلى حضارة أو ثقافة قومية معينة .

ويجب ان ننبه في موضوع هذه الدلالة إلى ان الشعب قد يتكلم لغة ، في حين تكون اللغة الرسمية المدونة (أو اللغة التي نجدها في النقوش الاثرية) لغة اخرى. ان المهم هو لغة الشعب السائد في البلاد او لغة حكامه الاصليين لا لغة الغزاة الطارئين . ومع ذلك فاننا نرى في فلسطين انه حيث نفتقد اللغة الكنعانية من الآثار نجد البابلية أو العمورية او الآرامية هناك ، وهذه كلها عربية الأصول ، أو لهجات من اللغة العربية الاولى .

يقول اولبرايت « « ان الدلالة مـــن **أسماء الاماكن والأشخاص** ذات اهمية كبرى في تعيين نوع اللغة التي كان يتكلم بها الناس في فترات مختلفة ... وان اقدم الاسماء ، لهي اسماء الأنهار والجبال . ونجد في فلسطين ان اسماءها جميعاً، منذ أقدم عهود التاريخ ، على التحقيق او الترجيح اسماء سامية ، ولكنها من النوع القديم الذي لايسهل دائماً تفسيره. فكلمات « لبنان » و « شريان » و « الكرمل » سامية والأرجح ان تكون سامية كذلك كلمات «طابور» و« جلبوع » و «جلعاد ». واسماء « الأردن » و « اليرموك » و « ارنون » سامية ايضاً ، فاذا عرجنا على اسماء المدن ، وجدنا ان جميع الأماكن المأهولة في الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد ذات اسماء سامية ، او ان لها الصيغة السامية على اقل تقدير . فاذا جئنا إلى الاسماء الكنعانية والعمورية في الالف الثاني قبل الميلاد الفينا معظمها اسماء لقبائل قديمة تنم على اصل سامي من ذلك كلمة « أمّو » بمعنى امة . وفي كلتا الحالتين نجد اسماء خاصة بأماكن العبادة لها اشتقاق لغوي من ذلك مثلا «بيت شمس » (بيت الشمس) و « بيت يرح » (بيت القمر) و « بيت داجون » و « بيت ايل »و« بيت لحم » [1]» .

---

١ — The Arch, of Palestine p, 179

وفيما يتعلق بأسماء المدن والقرى في المراجع العربية القديمة والحديثة نجـــد المئات والالوف من هذه الاسماء في سائر ارجاء العراق وسورية وفلسطين تحمل « اللمحة العربية القديمة من اللهجات او اللغات الكنعانية الفنيقية ، والعمورية، والآرامية ، والسريانية ، والعبرانية » . ومن ذلك اجنادين ، اذرع ، اربد ، بردى ، بصرى ، بعلبك ، بيت لحم، بيروت ، جبرين ، جبيل ، جرش،حصن، حمص ، ... الـخ ... مما لا يسهل إيراده كله هنـا ، ويجب الرجوع الـــيه في مصادره .

ونعود إلى قول اولبرايت :

« أما عند الاسرائيليين فنجد بعض اسماء الأماكن مشتقاً من اسماء القبائل والعائلات ، وبعضها مشتق من خصائص محلية كالشجر والينابيع » . ولانحتاج إلى مزيد من التفصيل في هـــذه الناحية ، إذ لا يجد اولبرايت (وهو اللغوي الاثري) ما يستنبطه من الاسماء الاسرائيلية اكثر من ذلك (١) . وهذا طبيعي لأننا عرفنا الآن المدى القصير لحكم الاسرائيليين في أجزاء مـــن فلسطين ، وكما عرفنا مصادر لغتهم .

وعندما يصف اولبرايت **لغة اهالي فلسطين** في الالفين الرابـــع والثالث قبل الميلاد بأنها « سامية » فان المقصود « عربية » او عربية الأصول ، كما قدمنا وفي هذة الحالة كانت الكنعانية هي اللغة السائدة معظم الوقت الذي يعنينا ،وفي واحد من احدث تصانيف «اللغات السامية » نجد العبرية فرعاً او لهجة مقتبسة من الكنعانية . ويعتبرون لغة اوغاريت (الكنعانية) فرعاً مستقلا من اللغة « الشمالية الغربية » .

وبعد الكنعانية تكلم اهل فلسطين الآرامية . وصارت هـــذه لغة الحديث والكتابة مدة الف سنة . واللغة الآرامية هي لهجة قبائلها المعروفة بهذا الاسم ،

---

(١) Ibid. p. 179

هي القبائل التي خرجت في موجة خاصة من قلب الجزيرة إلى العراق وسورية، ثم جنحت اعـــداد منها إلى فلسطين وسكنت بعض المرتفعات (الآرام) . والآرامية هي التي كانت سائدة ايام المسيح عليه السلام، وكذلك عند الفتح الاسلامي، الذي احل العربية الحديثة بلهجة قريش محل الآرامية . واختفت اللغة العبرية تماماً بعد انتشار الآرامية .

ويستطرد اولبرايت .

« ان الشكل السائد للتراكيب العظمية والجماجم البشرية لأصفى القبائل السامية – الحامية اليوم قد ظهر في العصر الحجري المتوسط في فلسطين، منذ نحو عشرة آلاف سنة ومع اننا لا ننكر وقوع تحركات عديدة لشعوب غير سامية عبر اراضي فلسطين . بين ذلك التاريخ والالف الثالث قبل الميلاد ،فان الاستنباط الوحيـــد الذي يبدو لنا معقولا هو ان العنصر السامي بقي العنصر الاساسي في التركيب العرقي لفلسطين منذ ذلك الوقت إلى الآن فالساميون كما يظهر من لغتهم، فرع من الجنس السامي – الحامي . واللغات السامية القديمـــة الرئيسية هي العقادية الاشورية – البابلية) والسامية الغربية والسامـــية الجنوبية . وهذه الاخيرة يمكن تفريعها الى العربية الشمالية والعربية الجنوبية (أي المعينية والسبئية والحبشية ،وخلافها من اللهجات القديمة والحديثة) وليس هدف مثل هذا التقسيم إلا التيسير، إذ ليس له الاهمية التركيبية التي لاقسام اللغات الهندية الاوروبية . وقد كانت الالسن السامية القديمة، ما عدا العقادية شديدة الصلة بعضها ببعض في النحو والصرف واللفظ ومخارج الاصوات بحيث كان في كل لهجة تراكيب مشتركة مع اللهجات المجاورة ... وقلما كانت الفروق بين اللهجات السامـــية المختلفة ايام عصر الآباء العبرانيين (ابراهيم واسحق ويعقوب) في مطلع الالف الثاني ق.م. اكبر من الفروق القائمة بين اللهجات العربية الرئيسية في الوقت الحاضر (١٩٦١) »[١] .

---

(١) The Arch. of Palestine, pp. 179—180 and 204—5

وكان الناس في تلك الأزمنة (خلال الألف الثاني ق.م.) يتنقلون بحرية ، من بلاد إلى أخرى ضمن الهلال الخصيب ، دون عائق من اللغة. وفي هذا نعود إلى اولبرايت فننقل عنه :

« لم يكن هنالك حاجز لغوي يعترض سبيل أحد من السكان في سائر ارجاء الهلال الخصيب ، لأن السامية الغربية كانت مفهومة في كل مكان . أما اختها اللغة العقادية البابلية ، فكانت اللغة الرسمية في الأعمال والشؤون السياسية . هذا وقد ظلت الروابط السياسية والثقافية بين مصر وفلسطين وثيقة ، فكانت المصرية مفهومة في جميع المراكز الفلسطينية الهامة ، كما كانت السامية الغربية دارجة في أجزاء عديدة من شمالي مصر » [١] .

وربما كان اولبرايت الحجة العالمية الأولى في هذا الموضوع ، ومع ذلك ننقل كلمة مرجوليوث التالية :

« لقد حافظ العرق السامي في بعض الأحوال على تماسكه حين هاجر إلى الشمال ، **ولم يكن من الممكن عادة التمييز بأن العربي الجنوبي غريب بين من يهاجر اليهم من سكان شمالي الجزيرة ، أو من كنعان ، أو حتى من المستعمرات الفنيقية** » [٢] .

وهذا لافت للنظر حقاً ، ويكاد يشبه أحوالنا الراهنة في الصلة والتفاهم بين العرب بعضهم مع بعض في أقطارهم المختلفة. وقد حدد اللغوي الأميركي فيرغسون شيئاً من معنى هذا التفاهم حين قال « ان لغة شعر جاهلي وحديث تاجر من مدينة القاهرة يعتبران غير متشابهين » [٣] . وهو يقول هذا في معرض اختلاف اللهجات العربية الحاضرة الناتج عن اتساع بلاد العرب ، لا في معرض التشابه .

---

(١) The Arch. of Palestine, p. 204—5

(٢) The Relation between Arabs and Israel:tes, p. 28. والمستعمرات الفنيقية كانت في قبرص وكريت وردس وصقلية ومالطة واسبانيا وشمالي افريقيا .

(٣) Encyc. Brit. 1963, vol.2, p. 182

ومع ان ملاحظة فيرغسون صحيحة ، فاننا نعلم الآن ان لغة الشعر الجاهلي والتاجر المصري واحدة . ومع ذلك يكاد يصعب على تاجر مصري في الوقت الحاضر ان يفهم حديث شاعر نجدي أو شعره ، على الرغم من أسباب التقارب بالصحافة والراديو والأسفار ، مما يشير إلى الصلة والتقارب الشديدين بين أرجاء البلاد العربية بما في ذلك الهلال الخصيب في الحقب القديمة التي نتحدث عنها . ويكاد المتحدث العراقي المتعلم الآن لا يبين إذا تحدث إلى مصري متعلم بلغته العامية ، والعكس صحيح ، علماً بأن العامية العراقية والعامية المصرية لهجتان من العربية الفصحى .

ونجد في الألواح المسمارية انه عندما غزا الهكسوس فلسطين (١٧٥٠ق م.) تخلفت عنهم اسماء شخصية عديدة ، منها ما هو مصري ومنها ما هو فلسطيني محلي . ومعظم هذه الأسماء عربية أما الباقي فمنه ما هو هندي — اوروبي .

وعندما امتد للحوريين بعض السلطان إلى فلسطين تركوا قليلا من الأسماء الحورية كتبت بالخط المسماري . وقد كان زعماء الحوريين في الغالب هنديين — اوروبيين . وقد اختفى الحوريون دون أن يتركوا أي أثر للغتهم في فلسطين ، علماً بأنهم قاموا بدور مهم في الهلال الخصيب خلال فترة طويلة (٢٣٠٠ — ١٢٠٠ ق.م.) .

أما الفلسطينيون (١٢٠٠ — ١٠٥٠ ق.م.) فلم يتركوا لنا إلا اسماء شخصية قليلة . ولم يجد الباحثون إلى اليوم آثاراً تشير إلى لغتهم أو كتابتهم .

وأما اليهود فواضح من تواريخ حكمهم في القدس والسامرة انهم دخلوا البلاد حين كان الكنعانيون (والعموريون) أهلها وقد كانت الفترات التي استولوا فيها على الحكم قصيرة كما رأينا . فلما سبوا أو أنهي ملكهم رحل منهم عن فلسطين من رحل ، وبقي من بقي على صورة أقليات مبعثرة ومنطوية على نفسها كما اصبح شأنها في بلاد أخرى من العالم . وكان لديانتهم الانعزالية أثر كبير في ذلك . أما الكنعانيون والعموريون وغيرهم من الشعوب والقبائل العربية فظلوا في البلاد

دون ان يرحلوا عنها . فلما توالى الفرس واليونان والرومان على حكم فلسطين ظل السكان كما كانوا ، كنعانيين ويبوسيين وفنيقيين . ثم عمت البلاد اللغة الآرامية على اثر انتشار التجارة وعلى أثر انتشار عائلات آرامية وفدت من الشرق إلى فلسطين . فلما جاء العرب المسلمون لم يبد من اليهود اية مقاومة او كيان او قوة تدل على كثرة أو أهمية ، واستقبل المسيحيون وسائر السكان العرب القادمين في وحدة وانسجام أساسها وحدة الأصول والألسن واللهجات والعادات .

أما **الكتابة** فقد شاركت فلسطين الكنعانية في تطويرها . وقد عثر فيها على ألواح ونقوش تشير إلى هذه المشاركة وتطورها ، كما تشير إلى خط خاص تطور في فلسطين نفسها . من ذلك ما وجد في بيت شمس وجبل طابور مما يرجع إلى القرن الرابع عشر ق م . وهذا الخط يكتب من اليمين إلى اليسار مثل خط العربية . وقد اخترع في فلسطين بعدئذ خط آخر بأبجدية مستقيمة . ومن هذا الخط اقتبس العبرانيون حروفهم [١] . ومع المشاركة الفلسطينية سارت الجهود الفنيقية في تطوير الكتابة ، فانتهى الأمر إلى فوز الحروف الهجائية الفنيقية وشيوعها . وفي القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد اقتبس اليونان هذه الحروف التي اصبحت بمرور الزمن اصلا لحروف الكتابة في معظم انحاء العالم .

نماذج الصلات بين اللهجات

يستدل المؤرخون والأثريون من اللهجات والخطوط على مدى الصلة بين شعوب قلب جزيرة العرب وبين الشعوب التي هاجرت من هناك إلى أجزاء الهلال الخصيب . ولسنا نستطيع في كتابة موجز كهذا إلا الاشارة العابرة إلى أشكال هذه الصلة فقد كان بين لهجات جنوبي الجزيرة (ومعها اللغة الحبشية) وبين اللهجات البابلية والاشورية والكنعانية والعبرية والعربية الفصحى تشابه ينم على انتمائها جميعاً إلى لغة أصلية واحدة . وقد أورد إسرائيل ولفنسون

---

(١) Albright, The Arch. of Palestine, p. 188

والبروفسور ليسلاو وغيرهما من اللغويين القدامى والمحدثين نماذج عديدة من الألفاظ التي تدل على ذلك ، منها :

لغة جنوب الجزيرة والحبشة	العربية (الفصحى)	العقادية (بابلية اشورية)	الكنعانية (اوغاريتية)	الآرامية	العبرية
احو	اخ	اخو	اخ	احا	اخ
سم	اسم	شومو	شم	شما	شم
بعل	بعل	بلو	بعل	بعلا	بعل
بيت	بيت	بتو	بت	بيتا	بيت
رأس	رأس	رشو	ريس	ريشا	روش
زرع	زرع	زرو	درع	زرعا	زرع
سلم ، سلام	سلم ، سلام	شلمو	سلم	شلما ، شلم	شلم ، شلوم
سماي	سماء	شمو	سمايم	شمايا	شمايم
عين	عين	انو	عن	عينا	عين
ماي	ماء	مو	ماي	مايا	مايم [1]

وقال ولفنسون : « كان بين اللغة الكنعانية واللغة البابلية قرب عظيم وشبه شديد حمل طائفة من المستشرقين على ان تؤلف من هاتين الكتلتين كتلة لغوية واحدة تماثل تلك الكتلة السامية التي كانت مكونة من اللغات الجنوبية في الجزيرة العربية والحبشة »[2] .

(١) تاريخ اللغات السامية ، ص ٢٨٣ ، والبروفسور ليسلاو عن اللغات السامية في دائرة المعارف البريطانية سنة ١٩٦٣ ، مجلد ٢٠ ، ص ٣١٤ . والعبرية مشتقة مباشرة من الكنعانية وهي لهجة منها ومن الآرامية بعدها .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

ومن حيث قدرة الشعوب والقبائل التي كانت تتكلم بتلك اللهجات على التفاهم فقد نقلنا رأي اولبرايت(ص١٣٨) . وهنا يقول هـ.ج. ويلز :

« ان بابل واشور وسورية كانت جميعاً سامية تتكلم لغات مفهومة لدى بعضها بعضاً »[1] .

هذا وعندماهاجرت هذهالقبائل من قلب الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب ومصر اطلقت على عدد كثير من معالم اوطانها الجديدة (من جبال وانهار وسهول وبلدان وقرى اسماء حملتها معها من الجزيرة . وكانت هذه قبلا تطلق على معالم في الجزيرة نفسها ، كما اطلقت اسماء اخرى ما تزال قائمة إلى الآن ، وتشير إشارات قوية إلى الصلات الشديدة التي نتحدث عنها ، كما شرحنا سابقاً في فصلنا عن الكنعانيين .

H, G, Wells, A short Hist, of the World p. 102 (١)

الفصل السادس عشر

وعد يهوه لليهود

الملحق ١

اسس الوعد

لاحظنا في بحثنا الموجز في هذا الكتاب كيف حاول العبرانيون ويحاولون أن يحشروا انفسهم ضمن القبائل العربية [١] على اعتبار انهم « ساميون »، وكيف ان المؤرخين والمنقبين المحدثين لا يجدون مرتكزاً تاريخياً لهذه المحاولة .

كما لاحظنا ان نشأتهم المرجحة كجماعات من العبيرو مضطربة في الأرض لا بد قد ولدت في نفوسهم الرغبة في الاستقرار ، على نحو ما كانت القبائل العربية تستقر في مدن الهلال الخصيب وقراه ، فانسجم مع تلك الرغبة القول بأن الرب وعدهم بأرض كنعان او بالهلال الخصيب كله مستقراً لهم ووطناً .

ولما كان المجال الحيوي الذي تتحرك فيه القبائل الخارجة من قلب الجزيرة العربية هو الهلال الخصيب من النيل فالأراضي المصرية شرقي نهر النيل فسيناء ففلسطين إلى سورية والعراق الى الفرات ، فقد انبثق على الارجح القول بأن الارض الموعودة هي « من النيل الى الفرات » .

---

(١) تاريخ اللغات السامية ، ص٣٧ من كتابنا هذا .

ولما كان الكيان اليهودي قد تشكل أكثر ما تشكل ضمن جماعات العبيرو القائمة حياتها على الفقر والحرمان والغزو والسلب والتشرد ، فقد كان من الطبيعي أن يجنح الخيال بهم إلى البحث عن الأرض المنتجة التي « تدر لبناً وعسلا » والتعطش إلى تأليف كيان . ومن هنا لا نستغرب ما وصفهم به مرجوليوث من أنهم كانوا متهالكين على امتلاك الأرض والمحافظة على هذا الامتلاك [1] ، وما وصفهم به اولبرايت من انهم كانوا جائعين للارض ، يعوزهم أي كيان [2] .

وأغلب الظن ان هذه الرغبات والهواجس قامت في أذهان جماعات العبيرو ، أو العبرانيين ، مهما كانت أصولهم ، بدافع من الحاجات التي ذكرناها . فلما حاولوا تحقيقها وجدوا البلاد التي اختاروا الاستقرار فيها مأهولة بالسكان ، ووجدوا عند هؤلاء السكان تمسكاً بالأرض واستعداداً للمقاومة ، فنشأت لدى العبرانيين فكرة تدمير القرى والمدن وطرد السكان والاستيلاء على الأرض . أما الكيان فلم يظفروا به لأنهم لم يستقروا مدة كافية .

ولما كان الكنعانيون قد استقروا في الأرض آلاف السنين من قبل . وضربوا لذلك بسهم وافر في القدرة على الحرب والدفاع ، فقد أصبح استعمال القسوة بل الوحشية في اقتلاعهم وتدمير مدنهم وتحريقها المركب الخشن الذي بررته غايات الاسرائيليين المنحرفة ، وخاصة وان حياتهم كان فيها تخصص في الحرب والقتال والفتك والتدمير . ومثال ذلك ما فعله العبرانيون بأريحا وعاي والصهيونيون بدير ياسين وقبية من بعد .

أما إله العبرانيين الذي « وعدهم » بالأرض فكان في بادىء الأمر إلهاً خاصاً ، على نمط الإله في تلك العصور ، إلهاً مرحلياً دخل في أدوار تطور الفكر الإنساني في ذلك الوقت عن الاديان . كان إلهاً لهم ولجماعاتهم : يقاتل معهم ، ويدافع

---

(١) Relations between Arabs and Israelites, Margolioth, p . 29

(٢) A History of Israel, p. 86

عنهم ويكسب الحرب من أجلهم ويهاجر هجرتهم ويزيل الشعوب من أمامهم[1] لأنهم شعبه الخاص – « شعب الله المختار » . فالوعد من أساسه كما ترى إنما يستند إلى خرافة دينية .

وتراكم هذا التفكير بصوره المختلفة في وعي الجماعات العبرية ، ولا وعيها ، وصارت تتناقله أجيالها وتنسج حوله القصص والأساطير منذ حوالي سنة ١٩٠٠ ق.م. إلى حوالي ٤٥ ق.م. ، وهو الوقت الذي استطاعت فيه ان تدونه كتابة ، فكان التوراة .

غير ان اليهود تأثروا بالسبي البابلي واقتبسوا مما حولهم فأصبح ربهم رباً للعالمين : ولكن فكرة الشعور بالشخصية اليهودية الخاصة كانت قد ترسخت مع الأجيال حتى ظلت الأساس الأول للوجود اليهودي في العالم . وحتى فكرة الأرض نفسها توارت في الغالب لتخلي السبيل لفكرة الرابطة اليهودية القائمة على الدين . ومن هنا جاءت المقاومة عند بعض الهيئات الدينية اليهودية والأفراد لفكرة « الدولة » اليهودية .

الوعد في التوراة

ومع ذلك فلنمض في تحليل وعد الرب يهوه لهم ، كما جاءت به التوراة :

(١) لقد وردت أول اشارة إلى الوعد في سفر التكوين (١٢ / ٦ – ٧) إذ قال :

« واجتاز ابرام إلى مكان شكيم ، إلى بلوطة مورة . وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض . وظهر الرب لابرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض » .

واضح من ذلك ان الكنعانيين كانوا أصحاب الأرض يومئذ (١٩٠٠ق.م.) واننا لنعلم الآن انهم كانوا قد استقروا في فلسطين نحو ألفي سنة قبل قدوم ابراهيم اليها ، وفي رأي آخر قبل ذلك بكثير ، ولم ينقطعوا عنها .

---

(١) في مخطوط لمحمود العابدي ، ومن نصوص التوراة .

(٢) وجاء في سفر التكوين أيضاً (١٤/١٣ – ١٦) :

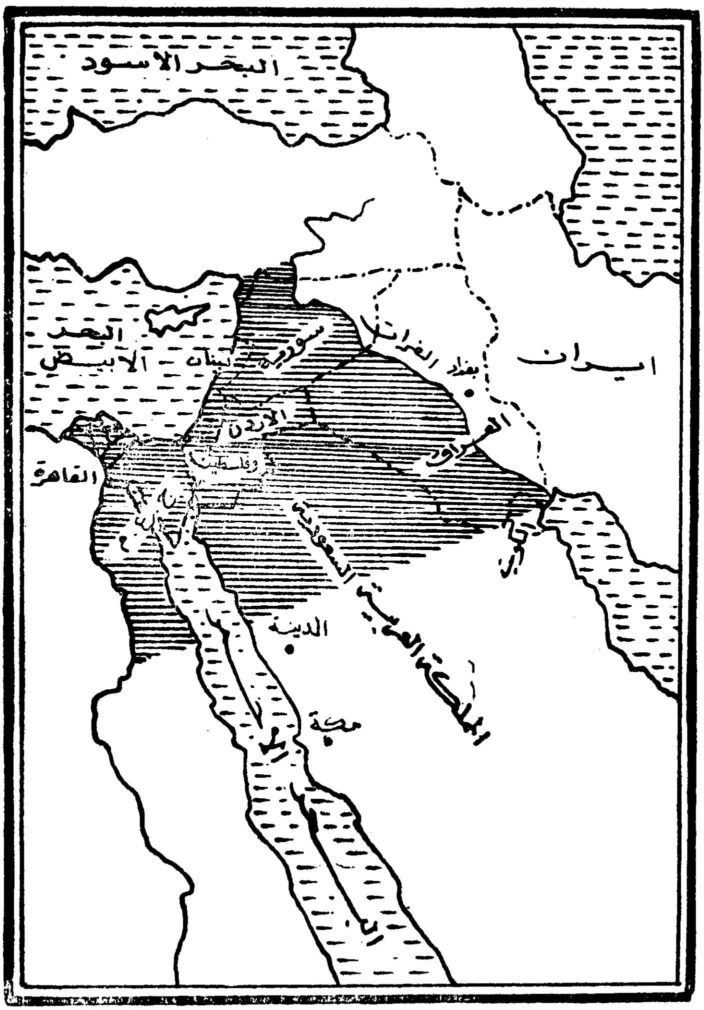
« وقال الرب لابرام ... ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه ، شمالا وجنوبا وشرقاً وغرباً،لأن جميع الأرض التي أنت ترى،لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد ، واجعل نسلك كتراب الأرض ، حتى اذا استطاع احد ان يعد تراب الارض فنسلك أيضاً يعد » .

ومع ذلك فان ابراهيم قد غادر البلاد مسرعاً الى مصر يسعى الى المرعى ، وكأن الرب لم يكلمه أو يعده بشيء ، او كأن ابراهيم شكك في الوعد او لم يحمله على محمل الجد . وحتى عندما اتسع ملك اليهود في فلسطين الى اقصى ما بلغ اليه ، زمن سليمان ، فانهم لم يحكموا البلاد كلها ،ناهيك بأرض كنعان التي كانت أوسع من فلسطين ، حتى بحدودها التي نعرفها الآن . هذا وقد مضى على اليهود قرون عديدة منذ ذلك الوعد ، فلم يصبح نسلهم في أي وقت اكثر من غيرهم من شعوب الارض ، بل أقل بكثير .

(٣) وورد في سفر التكوين أيضاً (١٨/١٥) ان الرب « قطع مع ابراهيم ميثاقاً بأن يعطي لنسله هذه الارض) من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات» وقد صدر هذا الوعد قبل ولادة اسماعيل واسحق ويعقوب ، وقبل ان تكون « اسرائيل » كجماعة . فلماذا يكون المقصود من نسل ابراهيم يوم « صدور » الوعد هم بني اسرائيل (يعقوب) وحدهم ، مع ان التوراة نفسها تربط بالنسب بين ابراهيم والعرب ؟ (تكوين ١/٢٥) .

ان صيغة هذا الوعد هي احب الصيغ عند الصهيونيين المحدثين . وهي كما ترى تشمل اوسع معنى للهلال الخصيب – النيل الى الفرات .

على ان هرتسل وفيشمان (١٩٤٧) فسرا وعد الرب هذا تفسيراً حديثاً على ضوء ما في بطن الأرض وليس ما على ظهرها . لذلك شمل الكويت ومد منها خطاً الى جوار المدينة المنورة فاقتطع بذلك أجزاء من الصحراء الشمالية لجزيرة



الوطن القومي

في خطة الصهيونية

وهنالك خرائط تشمل الجزيرة كلها

العرب ، وهي صحراء تقع ضمن المملكة العربية السعودية (انظر الخارطة) . ولفئات من الصهيونيين خرائط تشمل المدينة المنورة وميناء ينبع على البحر الاحمر والاراضي المصرية الواقعة شرقي دلتا النيل وسائر أنحاء الدلتا الى مقربة مـــن

القاهرة والأسكندرية [١] .

وفي هذا الصدد قال البروفسور ألفرد غيوم : « لا يمكن اعتـبار الأراضي الواقعة مابين النيل والفرات اسرائيلية ... لأننا اذا استثنينا الفترة القصيرة التي عرف فيها حكم سليمان ... فان هذه المنطقة كانت دائماً أراضي عربية » [٢] .

(٤) وجاء في سفر التكوين كذلك (١٧/٦-٨) قول الرب لابراهيم :

« وأقيم عهدي بينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبديا ، لأكون الها لك ولنسلك من بعدك ، واعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك ، كل أرض كنعان ملكاً أبديا ، واكون الههم » .

ومن هذا يتضح ان اله ابراهيم ، كما صورته التوراة ، كان الها خاصاً له ولنسله من بعـــده . ويعترف نص التوراة كذلك بأن الارض كانت بالنسبة لابراهيم « ارض غربة » ، لا ارض وطن ، ومـــع ذلك فان يهوه يهب ارضاً لا يملكها هو ولا يملكهانسل ابراهيم .

ولا حاجة للقول بأن موضوع نسل ابراهيم ، حين نأخذ به ، ينطبق على اسماعيل بن ابراهيم الذي ولـــد قبل اسحق بثلاث عشرة سنة ، بحسب نص التوراة نفسها . واسماعيل يعتبر أبا العرب العدنانيين . فالوعد اذن صح عـلى اسماعيل ابي العرب قبل ولادة اسحق ويعقوب ابوي الاسرائيليين ، وخـاصة وان اسماعيل اختتن الخـــتان الذي اقيم بسببه العهد بين الرب وبين ابراهيم ونسله .

أما « ابديا » هذه فترجمة مغلوطة للاصل العبري الذي يظل معناه على كل حال « لمدة طويلة » .

---

(١) انظر مقابل ص ٥٢٠ من كتاب « جهاد فلسطين » لصالح ابو يصير ، دار الفتح للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ بيروت .

(٢) Alfred Guillaume: Palestine and The Bible; Institute for Palestine Studies, Beirut, p. 15.

(٥) وقد كرر هذا الوعد لاسحق بن ابراهيم فقـــال له الرب (تكوين ٢٦/٣-١٤) :

« تغرب في هذه الارض ، فأكون معك واباركك ، لاني لك ولنسلك اعطي جميع هذه البلاد وافي بالقسم الذي أقسمت لابراهيم ابيك ،و اكثر نسلك كنجوم السماء » .

وهذا يؤكد عدم اهتمام ابراهيم بالوعد والا لما كرر لاسحق ، كما يؤكد مسألة النسل الكثير ، الذي لم يتحقق منه شيء .

(٦) ثم كرر الوعد ليعقوب بن اسحق (تكوين ٢٨/١٣) على الطريقة نفسها ، ولكن بعبارة مختلفة .

وبعد هذا وذاك تظل الارض المشمولة بالوعد غير معلومة والوعد غامضاً ، فحدود الارض مرة هي « من النيل الى الفرات » ومرة « هذه الأرض »واخرى مدى النظر « شمالا وجنوبا وشرقاً وغربا » ، ومرة « كل ارض كنعان » ، و « جميع هذه البلاد » ، واخيراً « الارض التي انت مضطجع عليها » ... الخ مما يوحي بمجرد الرغبة الدنيوية في الاستيلاء على ارض .

المسيحيون والوعد

ويعتبر المسيحيون ان الذي جاء في التوراة انما ينسحب عليهم الآن لا على اليهود ، لأنهم (أي المسيحيون) ، وان كانوا يعترفون دينياً بأن هذا الوعدقد صدر عن الله لابراهيم ، يقولون ان اليهود قد اضاعوا حقهم في الوعد ، لأنهم رفضوا رسالة المسيح ، وبذلك انتقل الحق في الوعد من ابناء ابراهيم بالجسد (اليهود) الى ابنائه بالروح (المسيحيين) [1] . ان الوارث الحقيقي للوعد عند المسيحيين هو المسيح ثم من آمن به وكرس نفسه له . وقد جاء في رسالة بولس

---

(١) Dr.Frank Stag, The Israel of God Palestine and, the Bible: Institute of Palestine Studies, Beirut, p. 27

الرسول الى اهل غلاطية : « ان كنتم للمسيح فأنتم اذن نسل ابراهيم ، وحسب الوعد ورثة » (غلاطية ٤/٧) .

فالمسيح والمسيحيون لذلك هم بمقتضى هذا الذين يرثون الوعد الذي قطع لابراهيم واسحق ويعقوب .

اما الميراث (فلسطين ، او الارض الموعودة) فقد اصبحت « ملكوت الله » يرثها الانسان روحياً . واما القدس المعنية التي تورث فهي القدس السماوية ، لا القدس الارضية المادية .

وقد اوضح انجيل يوحنا هذه العقيدة حين اجاب عن سؤال سألته امرأة ليسوع المسيح ، فقالت : « آباؤنا سجدوا في هذا الجبل ، وانتم تقولون ان في اورشليم الموضع الذي ينبغي ان يسجد فيه . قال لها يسوع ... صدقيني انه تأتي الساعة لا في هذا الجبل ولا في اورشليم ... تأتي ساعة ، وهي الآن ، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق » . (يوحنا ٤/٢٠/٢٣) . فالعبادة اذن تتم في كل مكان على الارض ، لا في القدس وحدها ، والعبادة صلة بين العبد وربه ، ومعاملة عادلة لا ارض واغتصاب في نور القرن العشرين .

وأما « اسرائيل » التي يشير اليها اليهود في التوراة ، فسواء عبروا بها عن أناس أو عن أرض فهي عند المسيحيين « الكنيسة » التي نشأت بعد مجيء المسيح ، ولا علاقة لها بدولة تقام او ارض تغتصب . قال الانجيل : « في المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئاً ولا العزلة ، بل الخليقة الجديدة ، فكل الذين يسلكون بحسب القانون عليهم سلام ورحمة وعلى اسرائيل الله » . (غلاطية ٦/١٥-١٦) .

وعندما يرتل المسيحيون « نويل ، نويل ، ولد ملك اسرائيل » فانما يقصدون المسيح ، الذي جعل الوعد ملكوتياً والارض روحية والقدس سماوية .

المسلمون والوعد

ومع هذا البحث الجدلي للوعد ، نذكر أيضاً وعداً ورد في القرآن الكريم

يورث فيه الله عز وجل فلسطين للمسلمين .

فقد جاء في الآية ١٠٥ من سورة الانبياء : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون » .

ويفسر علماء المسلمين هذه الآية بأن «الأرض» هي الأرض المقدسة -فلسطين- وان عباد الله الصالحين هم أمة محمد [١] . وهذا يجعل لكل مسلم على وجه البسيطة حقاً في القدس وفلسطين .

« رب العالمين » ينسخ الوعد

ان فكرة الإله عند اليهود قد تطورت بعد السبي وبعد كتابة التوراة وغيرها من الكتب الدينية اليهودية على النحو الذي لخصناه من قبل . ولقد جابهوا حين انتقلوا إلى بابل مشكلة ما إذا كان يهوه ربهم الخاص بهم في فلسطين سينتقل معهم إلى بابل أم يظل رباً لمن بقي من اليهود في فلسطين . لهذا ، وبتأثير من الفكر الديني في بابل آنذاك ، كان لا بد أن يصبح يهوه إلهاً لسائر العالمين .

ويقول برستد عن اليهود المسبيين في بابل :

« وهكذا ترقى اعتقاد اليهود بيهوه عما كان أيام بداوتهم حين كانوا يرونه إله حرب قاسياً ، مختصاً بهم ، لا يتجاوز سلطانه تخوم البادية موطنهم الاول حتى صاروا يرون فيه الأب المحب لجميع الناس والمتسلط العادل على كل الارض . وهذا هو التوحيد بعينه » [٢] .

وإذا كان الامر كذلك ، فان الله ، رب العالمين ، لن يميزهم عن شعوب العالم الاخرى ، ولن يعدهم بامتلاك ارض على حساب غيرهم من الشعوب ، لأنها جميعاً شعوبه .

قال المؤرخ آرنولد توينبي : « إذا كان العالم كله ينتمي لرب العالمين ويخضع

---

١ - تفسير البيضاوي ، القاهرة ١٩٢٦ ، ص ٤٦٦ .

٢ - برستد ، ص ١٦٣ .

لارادته ، فان الهدف الاعلى لهذه الارادة لا يمكن أن يكون إعادة تأسيس دولة يهودية على الأرض الفلسطينية ، لأن هذا لا يمكن أن يكون الهدف الاعلى لإله قومي خاص فقط » [1] .

ومن هنا يكون « وعد يهوه » قد نسخ نسخاً تاماً . وهو على اي حال لا يمكن ان ينطبق على أى شعب له إله آخر أو عقيدة أخرى أو ايمان مغاير للايمان اليهودي .

المجتمع اليهودي الخاص ينسخ الوعد

ان سبي اليهود إلى بابل وحياتهم فيها، مع حرصهم على الانحصار ضمن الكيان اليهودي الخاص ، بتأثير عقيدة « شعب الله المختار » ، قد ولد فيهم قوة خاصة من التجمع والتماسك والتعصب. ولذلك تنبأ زعماؤهم بأن حياة الشتات والتوزع في أنحاء العالم ستولد منهم قوة لا يستهان بها ويجب أن يحرصوا عليها .

وقد ثبتت التوراة نفسها هذا التفكير فجاء في الاعداد ١ — ٨ من الاصحاح التاسع عشر من سفر ارميا « الرسالة التي أرسلها أرميا النبي من اورشليم إلى بابل » بأن اله إسرائيل قال لأهل السبي جميعاً في بابل « ابنوا بيوتا واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها . خذوا نساء ولدوا بنين وبنات وخـــذوا لبنيكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات واكثروا هناك ولا تقلوا ، واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم اليها وصلوا لأجلها ... لا تغشكم أنبياؤكم الذين في وسطكم وعرافوكم ولا تسمعوا لاحلامكم التي تحلمونها » .

والاحلام التي يشير اليها هي العودة الى فلسطين .

وفي هذا الصدد قال توينبي :

« ان إرادة البقاء كمجتمع خاص في أي مكان وتحت أي ظروف قد تفوقت

---

(١) Toynbee, p. 495

عند اليهود على إرادة البقاء كمجتمع يعيش على أرض فلسطين التي احتلتها من قبل دولتا يهوذا واسرائيل . وبمقارنة ذلك بالبقاء من حيث هو تصبح الصهيونية غاية يهودية ثانوية »[١] .

وهكذا نجد اليهودية العالمية حائرة ، حيرة لم تجد منها مخرجاً للان ، بين الايمان بإله شامل للكون ونفوذ بارز في بلاد مختلفة ، من جهة ، وبين الامتياز كشعب مختار والانحصار ضمن دولة يهودية ، من جهة أخرى .

ولا ريب انهم مضطرون في النهاية إلى الاخذ بالفكرة العالمية ، وهي الالوهية الشاملة التي اكسبت الديانة اليهودية قيمتها التاريخية المعروفة ، ثم التجاوز عن ذلك كله والعيش مع الناس بالعقلية المتطورة الحديثة .

أما الذين يصرون على الامتياز وعلى الدولة الاسرائيلية من صهيوني العصر فانهم لا يقيمون في ضمائرهم وزنا للديانة اليهودية ، بل تسوقهم الدوافع السياسية الاستعمارية . وهذا كله بغض النظر عـــن ان حضارة القرن العشرين والقانون الدولي لا يفسحان مجالا لدولة تقوم على اسس دينية أو عنصرية .

وقد ادت هذه الحيرة إلى أن تحاول دولة إسرائيل الحالية في فلسطين سلخ اليهود في الدول الاخرى عن ولائهم الدستوري للبلاد التي يقيمون فيها ويعتنقون جنسياتها ، فيتصرف أكثر هؤلاء اليهود بشكل غير قانوني ، يقارب الخيانة للدولة التي هم رعاياها ، بسبب ولائهم المزدوج ، ويمسون سيادة تلك الدولة بصورة تستدعي المؤاخذة والعقاب .

الاله يهوه صاحب الوعد

ان « يهوه » صاحب الوعد هو الاسم الشخصي لاله بني إسرائيل .

وقد جاء في نصوص ألواح رأس الشمرة (اوغاريت) ان يهوه كان معبود بعض القبائل عند الكنعانيين . وعبدت عشائر عماو إلهاً باسم ياو أو ياوه . وقد

(١) Toynbee, p. 486

سبقت نصوص رأس الشمرة التوراة بألف سنة (١) .

ووجد بين المكتشفات الاثرية للسلالة السادسة والعشرين المصرية (٦٦٤ — ٥٢٥ ق.م.) ان الاله « يهوه » كان معروفاً في مصر كاسم إله غير رئيسي . وقد اظهر فك الأحرف المصرية وتحويلها ان الاسم هـ و أو ي هـ و هـ هكذا Yahwe ، Yhw ، كما اظهرت الآثار صورته (٢) .

ومن الاسماء التي قرئت على نقوش الكتابات الثمودية (القرن السابع ق.م. او ما قبله) بمدائن صالح شمال الحجاز اسم « يهوا » (٣) .

(١) الخازن ، اوغاريت ، ص ٤٠ و ٨١ نقلا عن فيرولو .

(٢) Margaret Murray, The Splendour That was Egypt, Sidwick and Jackson, London, 1949, p. 8.

(٣) تاريخ الجنس العربي ، جزء ١ ، ص ١٠١ .

الملحق ١ :

"السامية" و"الساميون"

على حسب التصنيف الذي نتج عن اصطلاح شلوتسر ، تقسم اللغات السامية إلى سامية شمالية وسامية جنوبية . (بالنسبة الى وسط جزيرة العرب) .

وتقسم السامية الشمالية بدورها الى ما يلي :

شمالية شرقية – وهي العقادية التي تفرعت الى اللهجتين البابلية والاشورية .

شمالية غربية – وهي الكنعانية (ومنها الفنيقية والمؤابية والعبرية). والاوغاريتية والعمورية والآرامية . ويسمون العمورية أحيانا اللهجة « الكنعانية الشرقية » . ويقسمون الآرامية الى شرقية وغربية .

وتقسم السامية الجنوبية الى ما يلي :

جنوبية شرقية – وهي عربية الجنوب ، المسماة بالحميرية (في اليمن وعدن وحضرموت وتشمل اللهجتين السبئية والمعينية)، والحبشية (وهذه انتقلت مع خطها من جنوب جزيرة العرب الى الحبشة ، وهناك تفرعت الى لهجات عدة).

جنوبية غربية – وهي العربية .

ويرد اللغويون هذه اللغات او في الحقيقة اللهجات الى السامية الأولى

(proto Semitic) التي نشأت داخل جزيرة العرب أو فيما بين النهرين [1] . ويبدو أن الذين يتمشون مع قصة التوراة والطوفان هم الذين يرجحون ما بين النهرين ولقد كان أكثر هذه اللهجات قريباً بعضه من بعض إلى حد التفاهم المتبادل بها عامة .

ولو اصطلح شلوتسر والمصنفون الذين استندوا اليه على إطلاق اسم العربية الأولى على « السامية » هـــذه ، ثم قالوا العربية العمورية والعربية الكنعانية لـكان ذلك أوضح وأكثر واقعية .

ولسنا وحدنا الذين نعترض على تقسيم اللهجات بحسب الجهات ، بل ان عالما يهوديا مختصاً باللغات السامية هو إسرائيل ولفنسون يقول مثل هذا : « ان العلماء الذين قسموا لهجات (ولا يقول لغات) الجزيرة العربية إلى شمالية واخرى جنوبية ... لم يشرحوا لنا شرحاً وافياً السبب الذي حملهم على تقسيم هذا ، ولم يبينوا له علة ، بل لم يوجد من بينهم من يبحث عن سر هذا التقسيم ، فكلهم درجوا عليه دون مناقشة أو انتقاد ، على حين كانت الضرورة قاضية بمناقشته أشد مناقشة ، لأنة ليس تقسيما جغرافياً صحيحاً ولا تاريخياً دقيقاً ... نحن لا نلوم المستشرقين على ذلك لأن مسألة تقسيم اللهجات العربية مـــن المشاكل العويصة » [2] .

ويقول ولفنسون أيضاً : « ومن مميزات اللغة العربية انها تشتمل على عناصر قديمة جداً من اللغات السامية ، وهذا يدل على ان اللغة العربية كانت موجودة في مهد اللغات السامية أو في ناحية قريبة منه » [3]. ومثل هذا الرأي يقول به شلوتسر أيضاً وغيره . فاللغة العربية هي أقرب اللغات أو اللهجات إلى اللـــغة السامية الأولى التي يعتبرون جنوبي جزيرة العرب مهدها الأصلي . واللغة السامية الأولى عندنا هي « العربية الأولى » ، وقد تفرعت عنها البابلية والكنعانية والآرامية

(١) Wolf Leslau, Encyl Brit. Vol. 20, p. 314

(٢) تاريخ اللغات السامية ، ص ١٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٦٨ .

وغيرها وبعض اللغويين يسمون « لغة » ما نسميه نحن لهجة . فالعامية العربية الحاضرة مثلاً عندهم لغة قائمة برأسها وعندنا لهجة من العربية الفصحى .

ويقول حتي : « ان للفظة « سامي » دلالة لغوية أكثر منها اثنولوجية . ويجب ان ينظر إلى اللغات الأشورية البابلية والآرامية والعبرية والفنيقية والعربية الجنوبية والحبشية والعربية على انها لهجات تفرعت من لغة واحدة هي اللغة الأم »[1] . والافضل أن نسمي « اللغة الام » هذه « العربية الأولى » .

أما « اللغة العربية » التي يضعها اللغويون الأجانب على سواء مع الاشورية والآرامية والحبشية فهي « العربية الفصحى » التي تألفت فيما بعد من لهجات عدة تطورت من العربية الأولى ، وتمثلها لغة القرآن ولغة الشعر والنثر الجاهليين في مرحلة تطورها الذي بلغته قبيل الاسلام.

فاذا تجاوزنا موضوع اللغة أو الثقافة إلى الجنس أو (العرق) نجد بعض المستشرقين يتحدث عن « العرق السامي » (Semitic race) ولا يفهم من حديثه أو من معظم حديثه إلا العرق « العربي » : وانصراف التسمية بالسامية إلى (جنس) تشويش وخطأ ، لأن شلوتسر نفسه لم يصف بالسامية جنساً وإنما وصف لغة أو ثقافة كما قدمنا .

وبعضهم يقصد من « العرب » سكان قلب جزيرة العرب ، فقط ولذلك يسميهم أحياناً « ساميي الصحراء »[2] . أما غيرهم من القبائل العربية الأصل التي تسكن بلاد الهلال الخصيب فيدعوهم « ساميي بلاد العرب الأخرى » . ومن هؤلاء عندهم الكلدانيون والعموريون والكنعانيون وغيرهم وعن هؤلاء يقولون انه طرأت عليهم هجرات من خارج الجزيرة والهلال فأثرت على صفاء جنسهم

---

(١) تاريخ العرب (المطول) ، ص ١٤ .

(٢) O'Leary, p. 12

السامي . ويقصد بهؤلاء المهاجرين الحوريين والهكسوس والفلسطينيين ، لأنهم طرأوا على بلاد العرب من الخارج . ونحن على ضوء المكتشفات الأثرية الجديدة نضم اليهم العبرانيين ، لأسباب اصبحت الآن واضحة .

ويقول هندرسون : « ان علماء السلالات يقصرون استعمال مصطلح «عرب» على الاصول السامية الاساسية التي نشأت في جزيرة العرب ، والتي بقيت فيها القبائل البدوية على هويتها ولو بعد آلاف السنين من الحروب ، ومن الهجرات إلى العراق وسورية وافريقيا »[1] .

ومن هنا نلاحظ ان بعض الثقات الاخصائيين يضطرون في تعابيرهم إلى إطلاق مصطلح « العرب » على ما أراد به شلوتسر أن يكون « سامياً » وذلك للتوضيح ولخلو هذه التعابير من أي خطأ .

والتأثير على صفاء الجنس السامي أو العربي موضوع يتعرض له المستشرقون كثيراً إلى حد أنهم يخرجون أحيانا سكان بعض البلاد العربية من الانتماء العربي والانتماء السامي على السواء ، ويكتفون بأن يقولوا عنهم انهم «خليط» ، مثل سكان فلسطين في بعض حقب التاريخ .

والمتفق عليه في علم الانساب (ethnology) الحديث ان أميركا مثلا أميركية أو أنجلوسكسونية لان سكانها ، ولو كانوا خليطاً مجزءاً جداً ، يتصفون بالتبعية أو الجنسية الأميركية أو الانجلوسكسونية ، بما تقتضيه هذه من عوامل لغوية وجغرافية وحضارية ... الخ .

إن مثل هذا الاختلاط لم يقع في حالة جزيرة العرب ، بل ظل صفاء اللغة ووحدة السكان وارتدادهم في الغالب إلى جنس واحد ميزة نادرة بين سكان العالم . وسبب ذلك يعود إلى انعزال الجزيرة بحدود من البحار والانهار والجبال والهضاب .

على أننا نلاحظ انه حتى في فلسطين ، حيث يميل بعض المستشرقين أحياناً إلى وصف سكانها بـ « الخليط » ، فان هؤلاء المستشرقين أنفسهم يرتدون إلى

---

(١) Anderson, Encyc. Brit, 1963, Vol. 2, p. 164

القول بأن الاساس في السكان أو الحضارة ظل سامياً ، أي عربياً ولسنا نشير هنا إلى اختلاط الاسرائيليين بأهالي فلسطين ، فان الكلام عن « الخليط » الذي نشير اليه ، يقال عن تركيب السكان قبل طروء الاسرائيليين على البلاد .

وفي موضوع صفاء الجنس وتأثره بما يطرأ عليه من الاختلاط بتأثير المهاجرين اليه من الخارج يقول السير فلندرز بيتري ان الجنس معناه « شعب تفوق سرعة هضمه وتمثيله للعناصر الطارئة عليه سرعة التغيير الذي تحدثه هذه العناصر » ومعنى ذلك ان الجنس العربي مثلا يظل عربياً مهما طرأ عليه من العناصر الاخرى ما دامت هذه العناصر تتخذ لغته وعاداته وحضارته وتنصهر فيه .

الملحق ٢ :

أثر التعاليم التوراتية في اليهود

نتيجة الاستفتاء الذي أجراه في إسرائيل العالم الاميركي ه . تامارين
(انظر ص١٢١من هذا الكتاب)

●

« أعد تامارين ١٠٦٦ استمارة ذات محتوى واحد . وقد أجاب عليها كتابة ٥٦٣ فتى و ٥٠٣ فتيات مـــن مختلف الصفوف في مختلف المدارس . وتطرقت الاستمارة لسفر يشوع بن نون في التوراة ، الذي يدرس في المدارس الاسرائيلية من الصف الرابع حتى الثامن [١] .

« وقد تضمنت الاستمارة التي سلمت للطلاب والطالبات للاجابة عليها ما يلي .

« انك تعرف جيداً المقتطفات التالية (من سفر يشوع) :

« فهتف الشعب وضربوا بالأبواق . وكان حين سمع الشعب صوت البوق ان الشعب هتف هتافاً عظيما فسقط السور في مكانه وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة . وحرموا (أي استباحوا) كل ما في المدينة

---

(١) احذروا الصهيونية ، يوري ايفانوف ، وكالة أنباء نوفوستي ، سنة ١٩٦٩ ، ص ٣٩ .

من رجل وامرأة . من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحـــد السيف (يشوع ٦/٢٠) .

« وأخذ يشوع مقيدة في ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرم ملكها هو وكل نفس بها . ولم يبق شارداً . وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا . ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل إسرائيل معه إلى لبنة [١] . وحارب لبنة . فدفعها الرب هي أيضا بيد إسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكل نفس بهـا . لم يبق بها شارداً . وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا » (يشوع ١٠/٢٨ ــ ٣٠) .

« أجب من فضلك على السؤالين :

« ١ ــ هل تعتقد ان يشوع بن نون والاسرائيليين قد تصرفوا تصرفاً صحيحاً أو غير صحيح ؟ اشرح سبب الرأي الذي تبديه .

« ٢ ــ لنفترض ان الجيش الاسرائيلي قد احتل خلال الحرب قرية عربية . فهل هو جيد أو سيء أن يتصرف على هذا النحو مع سكان هذه القرية ، كما تصرف يشوع بن نون مع شعب اريحا . اشرح السبب

« وكتب تامارين : ان ابادة الناس بالجملة التي قام بها يشوع بن نون ليست المثل الوحيد من هذا النوع في التوراة . ولقد اخترتة لأن « سفر يشوع » يحتل مكانا خاصاً في نظام التعليم الاسرائيلي [٢] .

« وقد وزعت هذه الاستمارة في مدارس تل ابيب وقرية بالقرب من الرملة وفي مدينة شارون ومستعمرة معوتشد ، الخ .

« ولنذكر بعض الأجوبة :

« كتب تلميذ من مدرسة شارون « كان هدف الحرب هو الاستيلاء على البلاد

---

(١) مقيدة هي المغار بجوار الرملة ، ولبنة في الارجح هي التي تقوم على أنقاضها « تـــل الصافي » الان ، بجوار مدينة الخليل .

(٢) New Outlook, Tel Aviv, Jan, 1966, p. 49—58

من اجل الاسرائيليين . ولذلك فقد تصرف الاسرائيليون تصرفاً حسناً باحتلالهم المدن وقتلهم سكانها . وليس من المرغوب فيه أن يكون في إسرائيل عنصر غريب . ان الناس من مختلف الاديان يمكن أن يؤثروا تأثيراً لا حاجة اليه على الاسرائيليين »[١] .

« وكتبت فتاة من مستعمرة معوتشد : « لقد تصرف يشوع بن نون تصرفاً حسناً ، بقتله جميع الناس في أريحا لانه كان من الضروري احتلال البلاد كلها ولم يكن لديه وقت لاضاعته على الاسرى »[٢] .

« كانت الاجوبة التي من هذا النوع تشكل ما بين ٦٦ و ٩٥ في المائة حسب المدرسة والمستعمرة أو المدينة .

« وعلى سؤال هل يمكن في عصرنا تصفية جميع سكان قرية عربية ، أجاب ٣٠ في المائة من التلاميذ بشكل قطعي « نعم » !

« ونورد فيما يلي بعض ما كتبه الاولاد : « اعتقد ان كل شيء قد جرى بشكل صحيح ، إذ اننا نريد قهر أعدائنا وتوسيع حدودنا . ونحن أيضا قتلنا العرب كما فعل يشوع والاسرائيليون »[٣] (الصف السابع) .

« وكتب تلميذ من الصف الثامن : « في رأيي ينبغي على جيشنا ان يتصرف في القرية العربية مثل يشوع ، لان العرب هم اعداؤنا » .

« هذه بعض الثمار المحسوسة لـ « التعليم » الصهيوني . وهي لم تنضج على هذا الشكل تلقائيا ، وانما على الشجرة الحقيقية للايديولوجية الصهيونية التي ضربت بجذورها عميقا في السوء والكراهية » .

---

(١) Ibid

(٢) Ibid

(٣) New Outlook , Tel — Aviv , Jan, 1966, p, 49—58

« غادرت إسرائيل هذه المرة وأنا اذكر بقوة ان العرب فقـــدوا ديارهم وأراضيهم .

« ان الاسرائيليين يغربلون الحقائق بعناية، ثم يضخمون الحقائق التي توافقهم ويتجاهلون الحقائق التي لا توافقهم » .

جيروم كاميناندا
التايمس البريطانية
١٩٦٩/١٠/١

(الجدول التاريخي للأحداث الرئيسية)

التاريخ (ق.م)	عام	فلسطين	مصر	العراق	سورية	التاريخ (ق.م)
٠٠٠٠٠٠	ـ بداية العصر الحجري القديم					٠٠٠٠٠
١٠٠٠٠	ـ بداية العصر الحجري المتوسط ، انتهاء عصور الجليد					١٠٠٠٠
٩٠٠٠	هجرات من قلب الجزيرة للهلال الخصيب	ـ التمكن حول اريحا الاولى				٩٠٠٠
٨٠٠٠		ـ بناء اريحا الاولى (قبل الفخار)		ـ بداية الزراعة في شمالي البلاد		٨٠٠٠
٧٠٠٠	العصر الحجري الحديث (ما قبل الفخار)					٧٠٠٠
٦٥٠٠						٦٥٠٠
٦٠٠٠		ـ ظهور الفخار في اريحا			ـ حضارات قروية مماثلة لحضارات النطوف والغسول	٦٠٠٠
٥٠٠٠	العصر الحجري النحاسي (ـ ٣٠٠٠)	ـ الحضارات النطوفية والغسولية		ـ بداية الزراعة المستقرة		٥٠٠٠
٤٠٠٠		ـ إنشاء اليبوسيين للقدس		ـ السومريون		٤٠٠٠
٣٥٠٠	الهجرات الكبرى للقبائل العربية (السامية)	ـ هجرات العموريين ـ المساهمة في اختراع الكتابة	ـ هجرات عربية من قلب الجزيرة الى مصر (الجرزيون وغيرهم)	ـ هجرات العقاديين		٣٠٠٠
٣٢٠٠				ـ هجرات العقاديين ثم بعض العموريين	ـ هجرة العموريين	٣٠٠٠
٣٠٠٠	ـ العصر البرونزي القديم (٣٢٠٠ ـ ٢١٠٠)	ـ بناء اريحا الكنعانية	ـ الاسرة الاولى (٣١٠٠ ـ ٢٨٩٠)			٣٠٠
٢٥٠٠	ـ العصر البرونزي المتوسط (٢١٠٠ـ١٥٠٠)	ـ هجرات الكنعانيين وبعض العموريين		ـ مملكة اور الاولى (٢٦٠٠ ـ ٢٤٥٠)	ـ هجرات الكنعانيين (والى اجزاء الهلال الاخرى)	٢٢٠٠
٢٠٠٠	ـ العبيرو وتجوالهم في الهلال الخصيب (٢٠٠٠ـ١٠٠٠)					٢٠٠٠
١٩٠٠		ـ هجرة بعض العموريين الى فلسطين				١٠٠٠
١٨٠٠	ـ حركة الهكسوس (١٧٥٠ـ١٥٥٠)	ـ قدوم ابراهيم الى فلسطين		ـ فترة بابل الاولى (١٨٥٠ ـ ١٥٥٠)		١٩٠٠
١٧٠٠	ـ الحثيون (١٧٥٠ـ١٢٠٠)			ـ حمورابي (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠)	ـ الملك زيري ليم في ماري (١٧٧٥)	١٨٠٠
١٦٠٠	ـ الحوريون (٢٣٠٠ـ١٢٠٠)					١٧٠٠
١٥٠٠	ـ العصر البرونزي الحديث (ـ ١٢٠٠)	ـ فترة العمارنة (١٤٠٠ ـ ١٣٥٠)	ـ اخناتون (فرعون)			١٦٠٠
١٣٠٠		ـ قدوم موسى ببني اسرائيل	ـ عبد حيبا حاكم القدس(١٣٨٠ـ١٣٦٠)			١٣٠٠
١٢٠٠	ـ العصر الحديدي (ـ ٦٠٠)	ـ غزو يشوع لاريحا ـ قدوم الفلسطينيين				١٢٠٠
١١٠٠			ـ رمسيس الثاني (فرعون موسى) (١٣٠٤ ـ ١٢٣٧)			١١٠٠
١٠٠٠		ـ غزو داود للقدس (١٠٠٠ ـ ٩٦٠)				١٠٠٠
٩٥٠		ـ حكم سليمان وانقسام مملكته(٩٦٠ـ٩٣٥)				٩٥٠
٩٠٠		ـ شيشنق (مصر) يستولي على القدس(٩٣٥)				٩٠٠
٨٠٠				ـ فترة بابل الجديدة (٦٢٥ ـ ٥٣٩)		١٠٠
٧٠٠		ـ زوال مملكة اسرائيل في السامرة (٧٢٢)		ـ سقوط نينوى (اشور) ـ سقوط بابل (٦١٢) (٥٣٩)		٧٠٠
٦٠٠	ـ قورش ملك فارس (٥٥٠ـ٥٣٠)	ـ زوال مملكة يهوذا في القدس (٥٩٧)				٦٠٠
٥٠٠		ـ الفرس في فلسطين (٥٣٦ ـ ٣٣٢)		ـ نبوخذ نصر البابلي (٦٠٥ ـ ٥٦٢) سبي اليهود		٥٠٠
٤٠٠						٤٠٠
٣٠٠		ـ اليونان في فلسطين (٣٣٢ ـ ٦٣)				٣٠٠
٢٠٠						٢٠٠
١٠٠		ـ فترة المكابيين في القدس (١٦٧ـ٣٧)				١٠٠
٠	ـ ميلاد المسيح	ـ الرومان في فلسطين (٦٣ ـ ٦٣٧ م)				٠
٠٠					ـ ميلاد المسيح	٠٠
٦٣٨ م	ـ الفتح العربي الاسلامي للقدس				ـ الفتح العربي الاسلامي للقدس	٦٣٨ م

التعريف بالمؤلفين

(تعريف ببعض المؤلفين الواردة أسماؤهم في الكتاب)

•

ابشتين ، ايزيدور (Isidore Epstein) ، الحاخام الدكتور ابشتين . خريج كلية اليهود بلندن ، وخريج جامعة لندن في الساميات والفلسفة والآداب . أصبح مديراً لكلية اليهود المذكورة . مؤلف لكتب عدة في التلمود واليهودية ، ومنها كتاب « اليهودية » (Judaism) الذي رجعنا اليه . توفي سنة ١٩٦٢ .

اولبرايت ، الدكتور وليم فوكسويل (W. F. Albright) استاذ اللغات السامية سابقاً في جامعة جون هوبكنز بالولايات المتحدة الأميركية. ولد سنة ١٨٩١ . أدار المدرسة الأميركية للابحاث الشرقية في القدس . له تآليف عديدة عن التاريخ القديم لفلسطين والشرق العربي . ويعتبر من الثقات العالميين في الموضوع . « يتقن السامية والمصرية ولغات كثيرة » ، توفي سنة ١٩٧١ .

باربر ، نيفل ، مؤلف وسياسي بريطاني . عمل في مصر والعراق أثناء الحرب

العالمية الأولى ، كما عمل في مصر وفلسطين عشر سنوات فيما بعد . اهتم بدراسة تاريخ العرب في المشرق والمغرب . كان مراسلا لجريدة التايمس ومحرراً لمجلة « المستمع العربي » . عمل مساعداً لمدير الاذاعة البريطانية للخدمات الشرقية حتى سنة ١٩٥٥ ، ثم انصرف لدراسة أحوال العرب في المغرب . مؤلف كتاب « نيسي دومينوس » في القضية الفلسطينية و « نظرة على شمالي افريقيا » وغيرها .

برامكي ، الاستاذ الدكتور ديمتري . مدير المتاحف في الجامعة الأميركية في بيروت ، وأستاذ التاريخ وعلم الآثار فيها . كان قبل سنة ١٩٤٨ كبير موظفي الآثار في حكومة فلسطين . مؤلف كتاب « الفن والعمارة في فلسطين القديمة » (بالانجليزية) .

برايت ، جون ، استاذ العبرية وتفسير التوراة في معهد الاتحاد اللاهوتي في ريتشموند – فرجينيا – الولايات المتحدة ، منذ سنة ١٩٤٠ . مؤلف كتاب « صحة العهد القديم » الذي يوضح فيه طريقة تفسير التوراة وتعليمها والدعوة اليها . مؤلف كتاب « تاريخ إسرائيل » الذي رجعنا اليه .

برستد ، جيمس هنري (١٨٦٥ – ١٩٣٥) ، المؤرخ الأميركي المشهور . « تخصص في الدراسات القديمة المصرية » . خريج جامعة شيكاغو ثم استاذ التاريخ المصري والشرقي القديم ، وكذلك مدير متحف الآثار بها (١٩٠٥ – ١٩٣٣) . كشف بنفسه عن آثار هامة في مصر والعراق مؤلف كتب « تاريخ مصر » و « العصور القديمة » و « انتصار الحضارة » وغيرها من كتب التاريخ والأبحاث العامة .

البرغوثي ، عمر الصالح (١٨٩٤ – ١٩٦٥) ، قانوني وسياسي وكاتب . انتسب في حياته كطالب ومحام إلى عدة جمعيات وأحزاب سياسية للعمل في سبيل القضية الفلسطينية والعربية . كان استاذاً بمعهد

الحقوق بالقدس زمن الانتداب . شغل منصب الوزارة سنة ١٩٥٧ ألف « تاريخ فلسطين » (١٩٢٣) بالاشتراك مع الدكتور خليل طوطح ، و « شرح أحكام المجلة » و « اليازوري – الوزير المجهول » (١٩٤٨) .

بروكلمان، كارل (Karl Brocklemenn) (١٨٦٨–١٩٥٦) المستشرق الألماني الشهير من ثقات الإخصائيين في الدراسات العربية والآداب والتاريخ . أصدر « قاموس اللغة السريانية » و « تاريخ الفكر العربي » و « تاريخ آداب اللغة العربية » و « تاريخ الشعوب العربية » وغيرها .

بلس ، فردريك جونز (Frederick Jones Bliss) من رجال الآثار التابعين للجنة « صندوق البحث الفلسطيني » في لندن . قام بحفريات في القدس بين سنتي ١٨٩٤ و ١٨٩٧ ، وخطط معالم القدس اليبوسية ، ونقب في أسوار المدينة . ألف كتاب « حفريات في القدس » بالاشتراك مع ديكي الذي قام بالتخطيط والرسم (١٨٩٨) ، كما ألف كتاب « تل المدن العديدة » .

توينبي ، آرنولد جوزف (Arnold Joseph Toynbee) (١٨٨٩ –) المؤرخ الانجليزي الشهير . تعلم في جامعة اوكسفورد وعلم بها . خدم في وزارة الخارجية البريطانية في أثناء الحربين العالميتين الاولى والثانية ، كما كان عضواً في مؤتمري السلام سنة ١٩١٩ و ١٩٤٦ . « عمل استاذاً للغة والتاريخ في جامعة لندن » . مؤلف لكتب عدة في التاريخ والحضارات والشؤون الدولية والدينية ، اشتهر كثيراً بكتابه الموسوعي «دراسة في التاريخ» الذي كتبه في عشرة مجلدات (١٩٣٤ – ٥٤) ، كما اشتهر بدراساته في المقارنة بين الحضارات . زار الشرق العربي وألقى محاضرات في الاردن ومختلف البلاد العربية .

حتي ، الدكتور فيليب خليل (١٨٨٦ —) ، ولد في شملان بلبنان وتعلم وعلم في الجامعة الاميركية في بيروت. كما تعلم وعلم في جامعتي كولومبيا وبرنستون في الولايات المتحدة التي أنفق فيها معظم حياته العلمية . استاذ في التاريخ والآداب السامية . أسس ورئس قسم التاريخ العربي في جامعة برنستون . مؤلف لكتب عديدة تعتبر أساسية ، منها « تاريخ العرب » و « لبنان في التاريخ » و « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » . وما يزال الدكتور حتي يعمل بنشاط في التأليف والشؤون العلمية والتربوية .

الخازن ، الشيخ الدكتور نسيب وهيبة ، كسروان ، لبنان . قدم اطروحة الدكتوراة بالافرنسية سنة ١٩٢٧ في « التشريع الصناعي » . مؤلف تاريخي باللغات العربية والانجليزية والافرنسية . أنتج « الجغرافية الانسانية » (١٩٣٣) و « الدولة العثمانية والدول الحديثة » ١٩٣٣ و « مصر » (١٩٣٤ و ١٩٥٢) و « الاصول التاريخية » في ١٨ جزءاً (١٩٥٦ — ٥٨) و « اوغاريت » (١٩٦١) ، وغيرها .

الدباغ ، مصطفى مراد (١٨٩٨ —) مرب ومؤرخ . عمل فترة في الجيش التركي والعربي ثم في التعليم ، ابتداء من وظيفة المعلم إلى المدير إلى المفتش في فلسطين ، وانتهاء بوظيفة وكيل وزارة التربية الاردنية (١٩٥٤) . من مؤلفاته التاريخية « بلادنا فلسطين » (١٩٤٧) و « الموجز في تاريخ فلسطين » و« الجزيرة العربية » جزءان (١٩٦٢) . وقد توسع في كتاب « بلادنا فلسطين » فأصدر سنة ١٩٦٥ الجزء الاول — القسم الأول منه (٨٢٠ صفحة كبيرة) وسنة ١٩٦٦ القسم الثاني في جزءين كبيرين .

دروزة ، محمد عزة (١٨٨٨ —) إداري وسياسي ومؤرخ . شغل في بدء حياته عدة وظائف كان آخرها وظيفة المدير العام للاوقاف في

فلسطين (١٩٣٧) ، عمل في جمعيات سياسية عديدة وأحزاب ، من جمعية العربية الفتاة إلى عضوية حزب الاستقلال الفلسطيني (١٩٣٢) إلى عضوية اللجنة العربية العليا في فلسطين . من كتبه «عصر النبي» و « سيرة الرسول » و « القرآن واليهود » و « حول الحركة العربية» — ستة مجلدات (١٩٥٠ —) و «تاريخ الجنس العربي » — سبعة مجلدات (١٩٥٩—٦٤) و « تاريخ بني إسرائيل» (١٩٥٨) و «عروبة مصر في التاريخ » (١٩٦١) وغيرها .

العارف ، عارف (١٨٩٢—) إداري وسياسي ومؤرخ ، عمل في الجيش والادارة ، وشغل منصب الوزارة (١٩٥٧) ، كما شغل وظيفة المدير العام لمتحف الآثار الفلسطيني فترة من الزمن عند مطلع سنة ١٩٦٧ ، يحسن ست لغات . مؤلف لكتب عدة منها « تاريخ الحرم القدسي » (١٩٤٧) و « الموجز في تاريخ القدس » (١٩٥١) و « المفصل في تاريخ القدس » (١٩٦١) و « تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك » (١٩٥١) و «النكبة » — سبعة أجزاء (١٩٥٦ — ١٩٦١) .

كنيون ، الدكتورة كثلين (Kathleen Kenyon) ، رئيسة كلية سانت هيوز في جامعة اوكسفورد . عملت مديرة للمعهد البريطاني للاثار في القدس (١٩٥١—١٩٦٣) ومحاضرة في معهد الآثار في جامعة لندن (١٩٤٨—١٩٦٢) . وهي ابنة السير فريدريك كنيون الذي كان مديراً للمتحف البريطاني . وقد قامت بنفسها بعدة عمليات حفرية واسعة في الشرق العربي وافريقية، ومنها حفريات اريحا والقدس. مؤلفة كتاب حفريات أريحا (١٩٥٧) وكتاب « القدس » (١٩٦٧) وغيرهما .

كيلر ، ورنر (Werner Keller) ، صحفي ألماني. درس التوراة والحفريات

المتعلقة بها منذ سنة ١٩٥٠ . ألف كتاب « التوراة كتاريخ – علم الآثار يؤيد كتاب الكتب ». ويقصد بـ « كتاب الكتب » التوراة وكتابه مشهور ، وقد طبع عشر مرات ما بين ١٩٥٦ و ١٩٦١ ، وترجمه وليم نيل من الالمانية إلى الانجليزية ، وهو من المراجع شبه القصصية ، وتجب مطالعته بحذر وروية .

مرجوليوث ، دافيد صموئيل (David Samuel Margolioth) ، (١٨٥٨ – ١٩٤٠) ، ولد بلندن لأب مبشر . تعلم في جـامعة اوكسفورد واصبح استاذ اللغة العربية فيها . وكان رئيساً للجمعية الآسيوية الملكية وعضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق . مؤلف كتاب « محمد وظهور الإسلام » و « نشأة الإسلام » ، وغيرهما . وقد حقق ونشر كثيراً من امهات الكتب العربية ، مثل معجم ياقوت (١٩٠٧ – ١٩٢٧) و « رسائل المعري » (١٨٩٨) ، و « ديوان الحماسة » ... الخ .

نوث ، مارتن (Martin Noth) . استاذ العهد القديم في جامعة بون ، مؤلف كتاب « تاريخ إسرائيل » وغيره . وقد اعتمدنا على الترجمة الانجليزية الطبعة الثانية (١٩٦٠) وهو كتاب موضوعي مفيد ، ويعتمد على المكتشفات الاثرية . ويقع في ٤٨٧ صفحة من القطع الكبير . وقد زار الاردن وبلاداً اخرى من الشرق العربي الذي يلم بتاريخه القديم إلماماً حسناً .

هاردنج ، لانكستر (G. Lankester Harding) ، مدير دائرة الآثار الأردنية مدة عشرين عاماً ، كان آخرها عام ١٩٥٦ ، يعمل في الآثار منذ ١٩٢٦ إلى الآن . اشترك عملياً بحفريات عديدة في المملكة الأردنية الهاشمية بضفتيها الشرقية والغربية ، ومنها خربة قمران التي اكتشفت فيها مخطوطات البحر الميت .

ويلز ، هـ . ج . (Herbert George Wells) ، (١٨٦٦ – ١٩٤٦) العالم البيولوجي والاديب الروائي الانجليزي الشهير . تخرج من جامعة لندن سنة ١٨٨٨ . مؤلف لنحو ٥٠ كتاباً من كتب العلوم والقصص العلمي الاجتماعي والتاريخ . اشتهر بكتابه « مجمل التاريخ » (The Outline of History) (١٩٢٠) . وقد كان هذا الكتاب عظيم الشيوع ثم انتهى تداوله تقريباً بسبب عدم متابعة الأحداث ومن مؤلفاته « آلة الزمن » (١٨٩٥) و « علم الحياة » ، بالاشتراك مع هكسلي و ج . ب ويلز (١٩٣١) .

ملاحظة : لم نأت على ذكر بقية أصحاب المراجع التي وردت في الكتاب ، على الرغم من أهميتهم ، مثل أوليري وآب طوماس وبروس وغراي وغيرني وميتشل وليسلاو وغيرهم ، اكتفاء بمن مر ذكرهم .

أهم المراجع العربية

١. برستد ، جيمس هنري ، العصور القديمة . ترجمة داود قربان ، المطبعة الأميركية ، بيروت ١٩٢٦ .

٢. البرغوثي ، عمر الصالح وخليل طوطح ، تاريخ فلسطين ، نشر مكتبة فلسطين العلمية ، مطبعة بيت المقدس ، القدس ١٩٢٣ .

٣. التوراة (العهد القديم) ، نشر جمعية التوراة البريطانية والأجنبية ، بريطانيا ١٩١٣ .

٤. حتي ، فيليب ، تاريخ العرب (مطول) وجرجي وجبور ، الجزء الأول ، دار الكشاف ، بيروت ١٩٦١ .

٥. حتي ، فيليب ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة حداد ورافق ، مراجعة جبور ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٥٧ .

٦. حتي ، فيليب ، لبنان في التاريخ ، ترجمة أنيس فريحة ، مراجعة نقولا زيادة . دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٥٩ .

٧. حسن سليم ، مصر القديمة ، مطبعة الكوثر ، الفجالة ، مصر ، ١٩٤٠ .

٠٨ الخازن ، نسيب وهيبة ، أوغاريت ،دار الطليعة ، بيروت ١٩٦١ .

٠٩ الدباغ ، مصطفى مراد ، بلادنا فلسطين ، الجزء الأول ، القسم الأول ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٥ .

٠١٠ دروزة ، محمد عزة ، تاريخ الجنس العربي ، المطبعة العصرية ، صيدا ١٩٥٩ .

٠١١ دروزة ،محمد عزة ،تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ، المكتبة العصرية ، صيدا — بيروت ١٩٦٩ .

٠١٢ ديسّو ، رينيه ، العرب في سورية قبل الاسلام ، ترجمة الدواخلي ، مراجعة مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

٠١٣ زيدان ، جرجي ، العرب قبل الإسلام ، مطبعة الهلال ، القاهرة ، ١٩٢٢ .

٠١٤ الشويحات ، يوسف سليم العزيزات ، العرب وتراثهم ، مطبعة القوات المسلحة (ظهر سنة ١٩٦٩) .

٠١٥ ظاظا ، الدكتور حسن ، القدس مدينة الله أم مدينة داود ، مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٧٠ .

٠١٦ العارف ، عارف ، المفصل في تاريخ القدس ،مكتبة الأندلس ،القدس ، ١٩٦١.

٠١٧ علي ، الدكتور جواد ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، مطبعة التفيض ، بغداد ١٩٥١ — ١٩٥٢ .

١٨. متحف الآثار الفلسطيني ، العصر الحجري والعصر البرونزي ، (مطبوع على الستينسل) ، القدس ١٩٣٧ .

١٩. هاردنج ، لانكستر ، آثار الاردن ، اخراج مجلة « رسالة المعلم » ، عمان ١٩٦٥ .

٢٠. ولفنسون ، اسرائيل ، تاريخ اللغات السامية ،مطبعة الاعتماد ، مصر ١٩٢٩

أهم المراجع الأجنبية

1. Albright, W.F., The Archaeology of Palestine, Penguin books, Baltimore, U.S.A., 1961.
2. Aldred, Cyril, The Egyptians, Thomas and Hudson, London, 1961.
3. Baramki, Dimitri C., The Art and Architecture of Ancient Palestine. Palestine Liberation Organization Research Centre, Beirut, 1969.
4. Barbour, Nevill, Nisi Dominus, Institute for Palestine Studies, Beirut, 1969.
5. Bliss and Dickie, Excavations at Jerusalem, Committee of the Palestine Exploration Fund, London, 1898.
6. Brestead, James Henry, A History of Egypt. Bantam, New York, 1964.
7. Bright, John, A History of Israel, S. C.M. Press Ltd., Bloomsbury Str., London, 1967.
8. Encyclopaedia Britannica, William Benton, London, 1963.
9. Epstein, Isidore, Judaism,

Penguin Books, Middlesex, England, 1968.

10. Hitti, Philip K., History of the Arabs,
Macmillan, St. Martin Press, New York, 1968.

11. Holy Bible, British and Foreign Bible Society,
Cambridge University Press, 1913.

12. Keller, Werner, The Bible as History,
Hodder and Stroughton, London, 1956.

13. Kenyon, Kathleen M., The Amorites and Canaanites,
British Academy, London, 1960.

14. Kenyon, Kathleen M., Archaeology in the Holy Land,
Benn Ltd., London, 1970.

15. Kenyon, Kathleen M., Digging up Jericho,
Benn Ltd., London, 1957.

16. Kenyon, Kathleen M., Jerusalem, Excavating 3000 Years of History,
Thames and Hudson, London, 1967.

17. Margolioth, The Relations Between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam,
Oxford University Press, London, 1924.

18. Menuhin, Moshe, The Decadence of Judaism in our Time,
Institute of Palestine Studies, Beirut, 1969.

19. Noth, Martin, The History of Israel,
Adam and Charles Black, London, 1960.

20. O'Leary, De Lacy, Arabia Before Muhammad,
Kegan Paul, New York, 1927.

21. Pritchard, James B., editor, The Ancient Near East,
Princeton (and Oxford) University Press, U.S.A. and London, 1958.

22. Robinson, Brestead and Smith, Earlier Ages,

Gin and Co., Boston, U.S.A., 1937.

23. Thomas, D. Winton, Editor, Archaeology and Old Testament Study, Clarendon Press, Oxford, 1967.

24. Toynbee, Arnold, A Study of History, Oxford University Press, London, 1964 (vol. 12).

25. Wells, H. G., The Outline of History, Cassel, London, 1961.

26. Wells, H.G., A Short History of the World, Clear-type Press, London, (year ?)

27. Wright, Freeman and Campbell, The Biblical Archaeologist Reader (Vols. 1 and 2) Anchor Books, Doubleday and Co., Garden City N.Y. (1961).

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

فهرس الاعلام والاماكن

(لم نفهرس : التوراة ، سليمان ، العبرانيون ، فلسطين ، القدس ، الكنعانيون ، الهلال الخصيب ، مصر ، اليهود ، الامن بعض الاشارات المهمة)

ح

خ

د

ر

غ

ف

ق

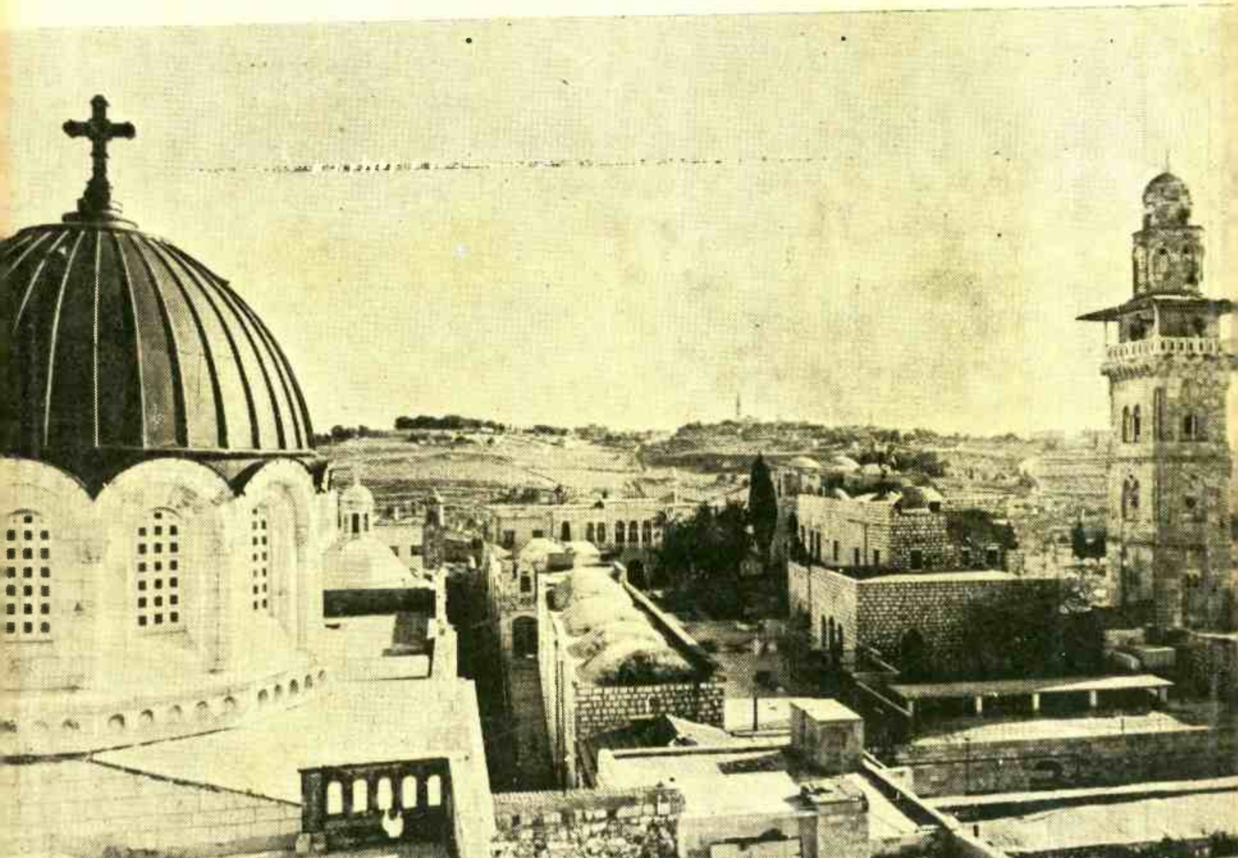
ك

ل

م

* * *

فهرس الكتاب



هذا الكتاب ...

● أول كتاب يكشف بأسلوب علمي زيف الدعاوى اليهودية والصهيونية المعتمدة على أساطير التوراة وتحويف الاحداث ، كما يكشف نشأة الجماعات العبرية على ضوء المكتشفات الاثرية .

● معالجة موضوعية تزيح الغطاء عن روابط الوحدة الطبيعية بين اجزاء البلاد العربية واستيطان الشعوب العربية لها واستقلالها بها ، بما في ذلك اليبوسيون في القدس والكنعانيون في فلسطين والفنيقيون في لبنان ، وغيرهم في سورية والعراق ومصر ، منذ نشأة الانسان ، لا منذ أربعة عشر قرناً وحسب .

● نقض قاطع لدعوى الصهيونية في أي « وعد إلهي » او « حق تاريخي » لليهود في فلسطين او اي جزء آخر من بلاد العرب .

● شرح واضح لتطور الحضارة والديانة عند الشعوب العربية القديمة التي عمرت البلاد منذ فجر الاحداث حتى دخول الاسلام .

● اساس تاريخي سياسي وطيد ينير السبيل لكل قارىء او باحث في السياسة او الاجتماع او الثقافة المتصلة بالقضية الفلسطينية والوحدة العربية ، وتتضح بذلك فوراً علاقات الشعوب العربية القديمة بعضها ببعض .